

ديوان الأمير شكيب أرسلان

اعتنى به وشكله

محمد العرب

تصدير ديوان أمير البيان

(لما عَلِمَ شَاعِرُ الْأَقْطَارِ الْعَرَبِيَّةِ وَشَيْخُ الْأَدْبَاءِ الْأَسْتَاذُ خَلِيلُ بَكْ
مَطْرَانَ بِقُرْبِ ظُهُورِ دِيْوَانِ صَدِيقِهِ وَعَشِيرِ صِبَاهُ صَاحِبِ الْعَطُوفَةِ
الْأَمِيرِ شَكِيبِ أَرْسِلَانَ أَحَبَّ أَنْ يَضَعَ لَهُ كَلِمَةَ التَّصْدِيرِ الَّتِي نَشَبَتْهَا
فِي صَدْرِ الدِّيْوَانِ، قَالَ الْأَسْتَاذُ حَفِظَهُ اللَّهُ):

هذا ديوانُ أميرِ البَيَانِ! أفي حاجةٍ أنا إلى تسميةِ صاحبه بعد
هذا النَّعْتِ الَّذِي نَعَتَهُ بِهِ الْإِجْمَاعُ فِي الْأَمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ؟

أُتِيحَ لِي أَنْ أَصَدِّره بهذه الْكَلِمَةِ وفي النَّفْسِ دَاعٍ مِنَ الْوَدِّ
الْقَدِيمِ؛ وَبَاعَثْتُ مِنَ الْإِعْجَابِ وَالْإِكْبَارِ، فَاَنْتَهَزْتُ الْفُرْصَةَ
السَّانِحَةَ، مَغْتَبِطاً بِهَا، وَلَا أَبْرِيءُ اغْتِبَاطِي مِنْ أَثَرِ فِيهِ لِلْآثَرَةِ، فَإِنَّ
حَظِّي مِنَ الْفَخْرِ بِهَذَا التَّصْدِيرِ أَضْعَافُ حَظِّ الصَّدِيقِ الْكَرِيمِ.

بَدَأَ الْأَمِيرُ شَكِيبُ أَرْسِلَانَ حَيَاتَهُ الْأَدَبِيَّةَ بِنَظْمِ الشَّعْرِ فَاشْتَهَرَ بِهِ
وَلَمَّا يَعُدُّ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ. وَقَدْ طَبَعَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ دِيْوَاناً
جَمَعَ بِهِ أَوَائِلَ شِعْرِهِ وَسَمَّاهُ (الْبَاكُورَةُ) فَتَوَسَّسَ مُطَالِعُوهُ أَنَّ نَاطِمَهُ
يَرْفُقِي حَثِيثاً إِلَى مَقَامٍ لَا يُرَامُ بَيْنَ شُعْرَاءِ الْعَرَبِيَّةِ. وَلَوْ ظَلَّ الْأَمِيرُ
مَعْنِياً بِذَلِكَ الْفَنِّ الرَّفِيعِ لَصَدَّقَ فِيهِ مَا ظَنُّوهُ كُلُّ الصَّدَقِ.

غَيْرَ أَنَّ شَأْناً آخَرَ مِنَ الشُّؤُونِ الضَّخَامِ الَّتِي هِيَ أَشَدُّ إِغْرَاءً
لِلرَّجُلِ الْبَعِيدِ الْمَطْمَحِ فِي مَطَالِبِ الْعِلْيَاءِ صَرَفَهُ وَشَيْكَاً عَنِ الْهَيْامِ

في مَسَاحِ الخيالِ والضَّرْبِ في آفاقِهِ الأنيفةِ إلى مُنازلةِ الحوادثِ
والأيَّامِ في مُعْتَرِكِ الحقيقةِ .

ففي هذا المُفْتَرِقِ الأوَّلِ مِنَ السَّبيلِ التي يواجهُ بها المرءُ مستقبلَهُ
آثر الأميرُ الترسُّلَ ومضى فيه متدفِّقاً تدفَّقَ اليَنبُوعُ الصَّافي مجلجلاً
أحياناً جَلَجَلَةَ السَّيْلِ الكثيرِ الشَّعَابِ . وما زالَ حَفِظَهُ اللَّهُ مُنْذُ خَمْسِ
وأربعينَ سنةً يتحفُّ قراءَ العربيةِ في مشارِقِ الأرضِ ومغارِبِها بكتبٍ
قيمةٍ يقتبسونَ مِنْ أنوارِها هُدًى أو يفيدونَ مِنْ مُخْتَلَفِ الآراءِ المنبئةِ
فيها ما يَهَيِّئُ لهم مِنْ أمرِهِمْ رَشْداً، إلى رسائلَ متنوعةٍ يَجْتَلُونَ
محاسنَ أغراسِها وأزهارِها ويَجْتَنُونَ ما يغذي العقولَ ويفكِّه القلوبَ
مِنْ أطايبِ ثمارِها، إلى فصولٍ ومَقالاتٍ تنشرُها المجلاتُ الدوريةُ
والصحفُ اليوميةُ في كُلِّ قُطْرٍ فما ينقضي يومٌ من أيامِ تلكَ البرهةِ إلَّا
وَلَهُ في كُلِّ منها قلائدُ تزهى بها صَفحاتُها أو فرائدُ تزخرُ بها أنهارُها .
ولو تَفَرَّغَتْ طائفةٌ مِنْ حَمَلَةِ الأفلامِ جَمَّ عديدها فيأضه قرائحُها فيما
يشاءُ اللَّهُ من مسائلِ السياسةِ والاجتماعِ والأدبِ ومباحثِ التاريخِ
والأخلاقِ لكتابةٍ ما كَتَبَ مِنْ تلكَ الفصولِ والمقالاتِ لتعذَّرَ عليها أن
تأتي مجتمعةً بما أتى به ذَلِكَ العَلَمُ الفَرْدُ .

على أَنَّ الذينَ تتبَّعوا كما تتبَّعْتُ آثارَ الأميرِ شكيب قد تبَيَّنوا مُنْذُ
السَّاعَةِ الأولى سرَّ المزيةِ التي امتازَ بها شِعْرُهُ ونثرُهُ جميعاً فأحلاه الذروةُ
المنيعَةُ الرفيعةُ التي حلَّها بينَ الأفاضِلِ المبرِّزينَ مِنْ متقدِّمينَ ومتأخِّرينَ .

ذلكَ السرُّ هو أَنَّهُ مَلِكُ اللِّغَةِ مِنْ أوَّلِ أمرِهِ ولا أَتَغَالَى إِذَا قُلْتُ أَنَّهُ
جَمَعَ معجمَها في صَدْرِهِ، بَلَّه ما استظهره مِنْ أساليبِ بُلْغائِها ورواهُ
مِنْ روائعِ فُحُولِ شِعْرَائِها . وفي أَثناءِ ورودِها تلكَ المواردِ مِنْ فَصَحِ

العربيّة كان يرى وجوه الانطباق بين المصطلحات القديمة والمصطلحات الحديثة ويتبين كيف تصرّف المتقدمون فيما وصل إليهم من الأصول ليفرغوا عليها المعاني الجديدة التي تعلق بها تصرّفاً لم ينافِ سلامة القول ولم يُنابذ مقتضى البلاغة على تحوّل الأحوال وتعدّد العهود.

فلما اتّسقت له هذه الخصال وتوافرت لديه تلك الأسباب وأفاض من واسع علمه بالعربيّة على ما أكسبته الخبرة أنا بعد أن من مكنونات المبتدعات الحديثة ومقتضيات الأحوال العصريّة ما دقّ منها وما جلّ بين حسّي ومعنويّ، عدل غير مبطىء عن تشبّثه الأول بالمحض الخالص من الأساليب المأخوذة عن الصميم من القديم ولم ير له بعد ذلك مكتوب إلا وهو مطبوع بطابع السلاسة والانسجام والغزارة مع الحرص على شرف المفردات ورصانة التراكيب مجتمعاً كل أولئك في طابع الأمير شبيب.

تلك غاية لم يُدرِكها غير هذا العبقرى في الترسل ولو قد رامها في الشّعير لأدرَكها كما قدّمت. غير أنه إذا كان قد رضي لنفسه في الشّعير أن يكون المقلّ المجيد فلا مشاحة في أنه انفرد بين المترسلين بأنه المُكثّر المجيد.

وإن من ينظر جملة إلى صنيع الأمير شبيب ليجد بحراً زاخراً في الأدب ليست اللؤلؤات المنظومة فيه إلا شقائق للآلئ المنتورة منه في كل جانب.

خليل مطران

القاهرة ٢٥ مايو ١٩٣٦

مقدمة

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾

هذا ديوانٌ شعري من أيام الصَّغَرِ إلى أيام الكِبَرِ، تتجلى فيه روحي حدثاً وشاباً، وكهلاً وشيخاً، ويعرف منه القارئ أنها روحٌ لم تَزَلْ يُشَبِّهُ بَعْضُهَا بَعْضاً في جميع أدوار الحياة، لم يكن عَرَضِي مِنْ نَشْرِ هذا الديوان إظهارَ فصاحةٍ أفاخرُ بها، ولا إثباتَ براعةٍ أتعلَّقُ بأسبابها، ولا حشدَ كلماتٍ أتوخى إرسالها، ولا تسيير شوارد يقال: مَنْ ذا قالها؟ لا سيَّما وقد بلغت السنَّ التي يضعفُ فيها التفكيرُ في المفاخرة، ويَقْوَى التذكُّرُ للأخيرة، ولكنني قصدتُ جَمَعَ هذا الديوانِ لخصالٍ ثلاثٍ:

إحداها: أَنَّ الشَّعْرَ لقائله، كالوَلَدٍ لِناجله، فأخشى مِنْ بعدِ أنصُرَافِي مِنْ هذه الدُّنْيَا أَنْ يُنسَبَ إِلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْهُ، وَيُلْحَقَ النَّاسُ بِخاطري ما لَمْ يَنْجُلْهُ، وَيُعْزَى إِلَيْهِ مِنْ قَدَاحِ الْفِكْرِ ما لَمْ يُجَلِّهِ، فلقد وَقَعَ لي مِنْ هذه الأمثالِ جَمٌّ في أثناء حياتي، فكيف تكونُ الحالُ بعدَ وفاتي، والشاهدُ حينئذٍ يكونُ قد صارَ بعيداً، والثَّبتُ إذ ذاكُ يصبحُ مفقوداً، وكما أنه يجوزُ أَنْ يُنسَبَ إِلَيَّ ما لَمْ أَقُلْهُ يجوزُ أيضاً أَنْ يُنسَبَ كَلَامِي إِلَى سِوَايَ، وَأَنْ يَخْتَلِفَ النَّاسُ فِي مُلْكِي لَهُ بما قد أهملتُ مِنْ دَعَوَايَ، فرأيتُ الأصلحَ لأَمْرِي - والمرءُ مسؤولٌ عن نفسه في الحياة وبعد الرِّحيل، ومُطَالَبٌ بأنْ يَثْبُتَ

الحقائق عن نفسه وأن يَحْتَاطَ لذلك قبل أن يصيرَ تحتَ الرَّمْلِ المهيل - أن أجمعَ ما وُجِدَ في يديّ من أشعاري، وأن أَجْتَهِدَ في أن لا يُنسَبَ أثري إلى غيري ولا يُنسَبَ إليّ غير آثاري.

الخصلة الثانية: أن بعضَ هذه القصائد مُتَعَلِّقٌ بوقائع تاريخية مشهورة، وبعضُها متضمنٌ لمبادئ سياسية مأثورة، فنشرُها حصّة من التاريخ يتميزُ فيها من اعتدَلِ عَمَّنِ اعتَدَى، ويعرف من ضلَّ ممن اهتَدَى، فلم يزلِ الشَّعْرُ وهو الخيالُ المجسَّمُ أحسنَ قَيْدٍ للحقائق، ولم تزلِ الوقائعُ التاريخيةُ تأخذُ من الوزنِ والقافية أثبت الموثاق، وكم من واقعة تاريخية نَشَدَها المؤرخونَ في أقوال المُنْشِدِينَ، وكم من رَجُلٍ لم تُخَلِّدْهُ التَّوَارِيخُ وجَعَلَهُ الشَّعْرُ من الخالدين.

الثالثة: أنه كان لي أصدقاء وأترابٌ، وإخوانٌ، ترافقني عليهم الحسراتُ إلى التُّرابِ، ومن الأعلام من لَمْ أعْرِفْهُ بوجهه، ولكني عَرَفْتُه بآثاره، وقطفتُ من نُوَّارِهِ، مثلَ الشَّيْخِ أحمد فارس صاحب الجوائب، وعبد الله باشا فكري الشَّاعِرُ الكاتبُ، فأما الذين رَثَيْتُهُمْ من أصحابي فَهُمُ عبدُ الله باشا فكري، ومحمود باشا سامي، وأمين باشا فكري، ومحمد بك فريد، وكامل بك الأسعد، وأحمد باشا تيمور، والشيخ عبد العزيز شاويش، وأحمد بك شوقي، والشيخ عبد القادر الشيباني، والحاج عبد السلام بنونة، وأخي نسيب، وغيرهم ممن كانوا غرّةً في جبين الدَّهرِ، وكان ذِكْرُهُمْ عبيراً يأخذُ منه كلُّ زمنٍ ما يأخذُ الرَّوْضُ مِنَ الزَّهْرِ، أفرغَ الله عليهم سِجَالَ عَفْوِهِ وَرِضْوَانِهِ،

وحَيَّاهُمْ فِي آخِرَتِهِمْ بِرَوْحِهِ وَرَيْحَانِهِ، فَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَبِثَّ أَرْوَاحَهُمْ
الزَكِيَّةَ الْوَجْدَ الَّذِي أَجَدُّهُ مِنْ فِرَاقِهِمْ، وَأَنْ أَنْشُرَ بَعْدَ طَيِّ أَجْسَادِهِمْ
مَا أَعْرَفُ مِنْ مَحَاسِنِ أَخْلَاقِهِمْ، فَأَكُونَ وَقَيْتَهُمْ بَعْضَ حَقُوقِ
الْوَفَاءِ، وَأَذِيتُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْأَمَانَةِ مَا فِيهِ لِلنَّفْسِ شِفَاءً.

هَذَا وَقَدْ كُنْتُ فِي السَّابِعَةِ عَشْرَةَ مِنَ الْعُمُرِ طَبَعْتُ فِي بَيْرُوتَ
أَوَائِلَ شِعْرِي فِي دِيْوَانِ سَمِيَّتِهِ (الْبَاكُورَةِ) وَلَمْ يَكُنْ بَقِيَ مِنْهُ إِلَّا
نَسْخُ نَوَادِرُ فِرَاجَتُهُ فِي هَذِهِ الْمَدَّةِ الْأَخِيرَةِ فَلَمْ أَجِدْهُ دُونَ أَنْ
يَنْسَبَ إِلَيَّ، وَلَا أَضْعُرُ مِنْ أَنْ يَقَيَّدَ عَلَيَّ، بَلْ قَدْ رَأَيْتُ الشَّبَابَ
أَشْعَرَ مِنَ الْمَشْيَبِ، وَوَجَدْتُ أَحْسَنَ الْقَرِيضِ، مَا جَاءَ فِي الْعَهْدِ
الْغَرِيضِ، وَلِذَلِكَ أَلْحَقْتُ بِدِيْوَانِي هَذَا أَكْثَرَ مَا كُنْتُ نَشَرْتَهُ فِي
الْبَاكُورَةِ، بِحَيْثُ قَدْ نَظَّمْتُ هَذَا الدِّيْوَانَ حَاشِيَتِي الْعُمُرِ، وَجَمَعَ مَا
قَدَّمَ وَمَا حَدَّثَ مِنْ نَتَائِجِ الْفِكْرِ، وَاللَّهِ أَسْأَلُ أَنْ يَتَذَكَّرَنِي بِلُطْفِهِ؛
وَيَسَدِّدَنِي بِفَضْلِهِ، وَأَصْلِي وَأَسْلَمَ عَلَى مُحَمَّدٍ خَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ وَسَيِّدِ
رُسُلِهِ، الْهَادِي لِأَقْوَمِ سُبُلِهِ؛ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ.

شكيب أرسلان

جنيف ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٥٤

القسم الأول من الديوان

المراسلات السامية

المراسلات السامية

أريد بها ما دار بيني وبين أمير الشعراء في وقته محمود سامي باشا البارودي رئيس نظار مصر سابقاً، وذلك لما كان في منفاه بسيلان على إثر الحادثة العراقية، وقد كانت فقدت من عندي بعض هذه المراسلات فاضطرت إلى طلب مجلة الزهور الأدبية من مصر، لأنها كانت قد نشرتها وهكذا عثرت عليها كلها ما عدا قصيدة ميمية كنت بعثت بها إلى محمود سامي سنة ١٩٠٢ من طبرية حيث كنت أبذل الهواء، وأما جواب محمود سامي على هذه القصيدة فقد وجدته بين أوراقي، ولنبدأ الآن بالمراسلات التي وجدت في مجلة الزهور، ولا بأس بأن ننشر المقدمة التي صدرها بها شاعر القطرين خليل بك مطران، وهو قوله عن صاحب هذا الديوان:

حضري المعنى، بدوي اللفظ، يحب الجزالة، حتى يستسهل
الوعورة، فإذا عرضت له رقة وألان لها لفظه، فتلك زهرات ندية
ملية شديدة الرياً ساطعة البهاء كزهرات الجبل.

نبغ منذ طفولته في الشعر، وكان أبكر الفتيان في نشر ديوان
له^(١) وجاء ديوانه في وقته آية.

(١) نظمت الشعر المطبوع في الجرائد وأنا ابن أربع عشرة سنة ونشرت الجزء الأول من ديواني المسمى «بالباكورة» وأنا ابن سبع عشرة سنة ومذ ذاك الوقت لم أهتم لجمع شعري ولا لنشره إلى أن عنت لي هذه الفكرة في هذه الأيام للأسباب التي أوردتها في المقدمة.

غير أنه لم يلبث أن ترك الشعر وانصرف إلى الترسل فحبس فيه
ما أوتيهِ من العبقرية فهو الآن في مذهبي إمام المترسلين .
على أنه قد يدعوه داع من النفس أو من الطوارئ فينظم ، ينظم
كما ينثر ، فياض الفكر غير تعب ، لكن نظمه يحمل في عهده الآخر
أثراً من نثره .

خليل مطران

قالت الزهور

استشهد الأمير شكيب في بعض كتاباته أولاً وثانياً بأبيات
للبارودي على غير معرفة شخصية سابقة ، فكتب محمود سامي باشا
إلى الأمير بالمقطوعة الآتية . قال :

[من الطويل]

أشدتِ بِذِكْري بادنأ ومَعْقِباً
وَأَمْسَكْتُ لَمْ أَهْمَسْ وَلَمْ أَتَكَلَّمِ
وَمَا ذَاكَ ضَنْناً بِالْوَدَادِ عَلَى امْرِئٍ
حَبَانِي بِهِ لَكِنْ تَهَيَّبْتُ مُقَدِّمِي
فَأَمَّا وَقَدْ حَقَّ الْجَزَاءُ فَلَمْ أَكُنْ
لَأَنْطُقَ إِلَّا بِالثَّنَاءِ الْمُنْمَنِ
فَكَيْفَ أَذُوذُ الْفَضْلَ عَنْ مُسْتَقَرِّهِ
وَأُنْكِرُ ضَوْءَ الشَّمْسِ بَعْدَ تَوَسُّمِ
وَأَنْتَ الَّذِي نَوَّهْتَ بِاسْمِي وَرِشْتَنِي
بِقَوْلِ سَرَى عَنِّي قِنَاعِ التَّوْهِمِ
لَكَ السَّبْقُ دُونِي فِي الْفَضِيلَةِ فَاشْتَمَلُ
بِحَلَّتِهَا فَالْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ

وَدُونَكُهَا يَا ابْنَ الْكَرَامِ حَبِيرَةٌ
مِنْ النَّظْمِ سَدَّاهَا بِمَدْحِ الْعُلَى فَمِي

فأجابه الأمير : [من الطويل]

لَكَ اللَّهُ مِنْ عَانٍ بِشُكْرِ مَنْمَمٍ
لِتَقْدِيرِ حَقٍّ مِنْ عِلَاقٍ مُحْتَمٍ
وَشَهُمِ أَبِي النَّفْسِ أَضْحَى يَرَى يَدًا
تَذَكَّرُ فَضْلٍ أَوْ جَمِيلٍ لِمَنْعَمٍ
رَأَى كَرَمًا مَنِي تَذَكَّرَ قَوْلَهُ
فَدَلَّ عَلَى أَعْلَى خِلَالًا وَأَكْرَمٍ
وَلَوْ كَانَ يَدْرِي فَاضِلٌ قَدَّرَ نَفْسَهُ
رَأَى ذِكْرَهُ فَرَضًا عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ
أَيَعْجَبُ مِنْ تَنْوِيهِ مِثْلِي بِمِثْلِهِ؟
لَعَمْرِي الَّذِي قَدْ شَقَّ فِي شِعْرِهِ فَمِي
وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَعْجَمٍ فَبِفَضْلِهِ
يَرَى ثَقْفِيًّا فِي الْوَرَى كُلِّ أَعْجَمٍ
إِذَا مَطَرَ الْغَيْثُ الرِّيَاضَ بَوَابِلٍ
فَأَيُّ يَدٍ لِلطَّائِرِ الْمَتَرْتَمِ؟
إِذَا مَا تَصَبَّتْ بِالْعَمِيدِ صَبَاحَةً
بُوجِهِ فَمَا فَضْلُ الْعَمِيدِ الْمُتَيَّمِ؟
وَهَلْ يَنْكُرُ الْإِحْسَانَ إِلَّا لِنَامَةٍ
وَيَنْكُرُ حَسَنًا غَيْرَ مِنْ طَرْفِهِ عَمِي؟

وَهَلْ فِي شُهُودِ الشَّمْسِ أَدْنَى مَزِيَّةٍ
 وَقَدْ جَاءَ ضَوْءُ الشَّمْسِ لَمْ يَتَكْتَمِ؟
 رَوَيْدَكَ لَا تُكْثِرْ لِدَهْرِكَ تَهْمَةً
 وَلَا تَيَاسُنْ مِنْ أَهْلِهِ بِالتَّوَهُّمِ
 فَمَا زَالَ مَنْ يَدْرِي الْجَمِيلَ وَلَمْ يَكُنْ
 لَتَأْخُذْهُ فِي الْحَقِّ لَوْمَةٌ لَوَّمِ
 وَأَنْتَ الَّذِي لَوْ أَنْصَفَ الدَّهْرُ لَمْ يَكُنْ
 لَعَيْرِكَ فِي الْعَلِيَاءِ صَدْرَ التَّقَدُّمِ
 جَمَعْتَ الْعُلَى مِنْ تِلْدِهَا وَطَرِيفِهَا
 فَجَاءَتْ كَعَقْدٍ فِي ثَنَّاكَ مَنْظَمِ
 غَدَتْ خَطَّتِي إِمَّا يَرَاعِ وَمَخْذَمِ
 وَإِنَّكَ قُطْبٌ فِي يَرَاعِ وَمَخْذَمِ
 وَلَمْ أَرْ كِفَاءً مِثْلَ كَفِّكَ أَحْسَنْتَ
 إِلَى الْمَجْدِ إِرْعَافَ الْمَدَادِ مَعَ الدَّمِ
 جَمَعْتُهُمَا جَمْعَ الْقَدِيرِ بِكَفِّهِ
 إِلَى مُحْتَدِ سَامٍ إِلَى الْمَجْدِ يَنْتَمِي
 وَلَوْ كَانَ يُرْقَى الْمَرْءُ مَا يَسْتَحَقُّهُ
 إِذَا لَبَلَّغْتَ النِّيَّاتِ بِسُلْمِ
 وَأَنْتَ الَّذِي يَا ابْنَ الْكِرَامِ أَعَدَّتْهَا
 لِأَفْصَحَ مِنْ عَهْدِ النَّوَاسِي وَمُسْلَمِ
 وَأَنْشَرْتَ مِيتَ الشُّعْرِ بَعْدَ مَصِيرِهِ
 لِأَعْظَمَ نَشْرًا مِنْ رِفَاتٍ وَأَعْظَمِ

وأشهدُ ما في النَّاسِ من متَأخِرٍ
 يُدَانِيكَ فِيهِ لَا وَلَا مُتَقَدِّمٍ
 وَلَوْ شُعْرَاءُ الدَّهْرِ تَعَرَّضُ جَمْلَةً
 بِمَنْجِدِهِمْ مِنْ كُلِّ حَيٍّ وَمُتِّهِمْ
 لِأَبْصَرْتُ شَخْصَ الْبَحْتَرِيِّ مِنْكَ بُحْتَرًا
 وَخُلِقَ أَبِي تَمَّامٍ غَيْرِ مُتَمِّمٍ
 لَكَ الْآبِدَاتُ الْآنَسَاتُ الَّتِي نَأَتْ
 وَأَنْسَتْ عُكَازَ الشَّعْرِ بَلْ كُلِّ مَوْسِمٍ
 لَكُمْ أَشْهَرَتْ جَفْنَ الرِّوَاةِ وَخَالَفَتْ
 حَظُوظَكَ مِنْهَا شُرْدٌ غَيْرِ نَوْمٍ
 شَغَفْتُ بِهَا طِفْلًا فَأَرَوِي بِدِيعُهَا
 وَلَمْ أَرَوْ مِنْ وَجْدِي بِهَا نَارَ مُضْرَمٍ
 وَلَا عَجَبَ أَنِّي أَحْنَّ صَبَابَةً
 فَيَسْرِي الْهَوَى بِالْقَوْلِ لِلْمُتَكَلِّمِ
 أَفِي كُلِّ يَوْمٍ فِيكَ وَجْدٌ كَأَنَّهُ
 طَوَى جَانِحًا مِنِّي عَلَى نَارِ مَيْسَمٍ
 أَحْمَلُ رِيحَ الْهِنْدِ كُلَّ تَحِيَّةٍ
 فَكَمْ مِنْ صَبَاً مِنْهَا عَلَيْكَ مُسَلِّمٍ
 وَقَدْ طَالَمَا حَدَّثْتُ نَفْسِي وَعَاقَنِي
 تَرَدَّدَهَا مَا بَيْنَ: أَقْدِمُ وَأُحْجِمُ
 حَلَفْتُ بِمَا بَيْنَ الْحَطِيمِ وَزَمَزَمِ
 وَبِالرَّوْضَةِ الزَّهْرَاءِ أَلْيَةً مُفْسِمِ

لألْفَيْتُ عِنْدِي دَوْسَ مُشْتَجِرِ الْقَنَا
 وَخَوْضِي فِي حَوْضٍ مِّنَ الطَّعْنِ مَفْعَمٍ
 أَقَلَّ بِقَلْبِي فِي الْمَوَاقِفِ هَيْبَةً
 وَأَهْوَنُ مِنْ ذَاكَ الْمَقَامِ الْمَعْظَمِ
 وَهَبْ أَنِّي بَارِزٌ^(١) قَدْ انْقَضَّ أَشْهَبُ
 فَهَلْ يَطْمَعُ الْبَازِي بِلُقْيَانِ ضَيْعَمٍ؟
 وَلَكِنَّ لِي مِنْ عَفْوِ مَوْلَايَ سَاتِرًا
 فَهِيَ أَنْذَا مِنْهُ بِهِ بَتْ أَحْتَمِي
 أَمَحْمُودُ سَامِي إِنْ يَكُ الدَّهْرُ خَائِنًا
 وَطَالَ عَلَيْكَ الزَّجْرُ طَائِرَ أَشَامٍ
 فَمَا زَالَتِ الْأَيَّامُ بُؤْسًا وَأَنْعَمًا
 وَحَظَّ الشَّقَا بِالْمَكْثِ حَظَّ التَّنْعَمِ
 وَلَوْ لَا الصَّدَى مَا طَابَ وَرْدٌ وَلَا حَالًا
 لَكَ الشَّهْدُ إِلَّا مِنْ مَرَارَةٍ عَلَقَمِ
 عَسَى تُعْتَبَ^(٢) الْأَقْدَارُ وَالْهَمُّ يَنْجَلِي
 وَيَنْصَاحُ صُبْحُ السَّعْدِ فِي ذَيْلِ مُظْلَمِ
 وَأَهْدِيكَ فِي ذَاكَ الْمَقَامِ تَهَانًا
 حَبِيرَةً مَسْدٍ فِي ثَنَاكَ وَمَلْحَمِ

(١) فيه لغتان أشهرهما أنه منقوص كالقاضي والثانية أنه كالباب اهـ مصححه .

(٢) أعتبه : أزال عتبه أي أرضاه .

ثُمَّ كَتَبَ مُحَمَّدٌ سَامِي بَاشَا إِلَى الْأَمِيرِ شَكِيبَ بِهَذِهِ الْقَصِيدَةِ :

[من البسيط]

أَذِي الرِّسَالَةَ يَا عُصْفُورَةَ الْوَادِي
وَبَاكِرِي الْحَيِّ مِنْ قَوْلِي بِإِنْشَادِ
تَرْقِي سِنَةَ الْحِرَّاسِ وَانْطَلَقِي
بَيْنَ الْخُمَائِلِ فِي لُبْنَانَ وَارْتَادِي
لَعَلَّ نَعْمَةً وَدَّ مِنْكَ شَائِقَةً
تَهْزُ عَطْفَ شَكِيبِ كَوْكَبِ النَّادِي
هُوَ الْهَمَامُ الَّذِي أَحْيَا بِمَنْطِقِهِ
لِسَانَ قَوْمٍ أَجَادُوا النُّطْقَ بِالضَّادِ
تَلَقَّى بِهِ أَحْنَفَ الْأَخْلَاقِ مُنْتَدِيًا
وَفِي الْكَرِيهَةِ عُمْرًا وَابْنُ شَدَّادِ
أَخِي وَدَادٍ وَحَسْبِي أَنَّهُ نَسَبُ
خَالِي الصَّحِيفَةِ مِنْ غِلٍّ وَأَحْقَادِ
أَفَادَنِي أَدَبًا مِنْ مَنْطِقٍ شَهِدْتُ
بِفَضْلِهِ النَّاسُ مِنْ قَارٍ وَمِنْ بَادِ
عَذْبُ الشَّرِيعَةِ لَوْ أَنَّ السَّحَابَ هَمَى
بِمِثْلِهِ لَمْ يَدْعُ فِي الْأَرْضِ مِنْ صَادِ
سَرَتْ بِقَلْبِي مِنْهُ نَشْوَةٌ مَلَكَتْ
بِحُسْنِهَا مَسْمَعِي عَنْ نَعْمَةِ الشَّادِ
يَا ابْنَ الْكِرَامِ عَدْتَنِي مِنْكَ عَادِيَةً
كَادَتْ تَسُدُّ عَلَى عَيْنِي بِأَسْدَادِ

فَاعْذُرْ أَخَاكَ فَلَوْلَا مَا بِهِ لَجَرَى
 فِي حَلْبَةِ الشُّكْرِ جَرَى السَّابِقِ الْعَادِي
 وَهَاكُهَا تَحْفَةُ مَنِي وَإِنْ صَغُرَتْ
 فَالِدُرُّ وَهُوَ صَغِيرٌ حَلِيُّ أَجْيَادِ

فأجابه الأمير شبيب:

[من البسيط]

هَلْ تَعْلَمُ الْعَيْسُ إِذْ يَحْدُو بِهَا الْحَادِي
 أَنَّ السُّرَى فَوْقَ أَضْلَاعٍ وَأَكْبَادِ
 وَهَلْ ظَعَائِنُ ذَاكَ الرِّكْبِ عَالِمَةٌ
 أَنَّ النَّوَى بَيْنَ أَرْوَاحٍ وَأَجْسَادِ
 تَحْمَلُوا فَفُؤَادِي مُنْذُ بَيْنَهُمْ
 فِي إِثْرِهِمْ نَضُّو تَأْوِيْبِ^(١) وَإِسَادِ^(٢)
 يَرْتَادُ مَنْزِلَهُمْ فِي كُلِّ قَاصِيَةٍ
 وَحِجْبِهِ لَوْ دَرَى أَحْرَى بِمَرْتَادِ
 بَيْنَ الْجَوَانِحِ مَا لَوْ أَنْتَ جَائِبُهُ
 أَغْنَاكَ عَنْ لَفٍّ أَغْوَارٍ بِأَنْجَادِ
 وَفِي الْفُؤَادِ كَشَطَرِ الْكَفِّ بَادِيَةٌ
 فِي جَنْبِهَا تِيهِ مُوسَى لَيْسَ بِالْبَادِ
 كَمْ بَتُّ أَنْشُدُ أَحْبَابِي وَأُنْشِدُهُمْ
 فِي الْهِنْدِ يَا شَدَّ مَا أَبْعَدْتُ إِنْشَادِي

(١) سير النهار .

(٢) سرى الليل .

ولو أنا جِي ضَمِيرِي كُنْتُ مَسْمَعُهُمْ
 قُولِي كَأَنَّهُمْ فِي الْعَيْبِ أَشْهَادِي
 مَنْ كَانَ دُونَ مِرَامِي الْعَيْسِ مَنْزَعُهُ
 فَلِي هَوَى دُونَ أَمْوَاجٍ وَأَزْبَادٍ
 دُونَ الْخَضَارِمِ إِنْ ضَلَّ الْحَبِيبُ سُرَى
 فَإِنَّ وَجْدِي نِعْمَ الْقَائِفِ الْهَادِي
 هَوَى بِأَرْوَغٍ لَوْ أَنَّ الزَّمَانَ دَرَى
 لَمَا أَحْلَ سِوَاهُ الصَّدْرُ بِالنَّادِي
 سَامِي الْأَرْوْمَةِ فِي أَعْرَاقِهِ نَسَبُ
 فِي الْمَجْدِ لَا يَشْتَكِي مِنْ ضَعْفِ إِسْنَادٍ
 أَرْقَ مِنْ شِمَالِ الْوَادِي شِمَائِلُهُ
 وَعِنْدَ شَدِّ اللَّيَالِي صَخْرَةُ الْوَادِي
 مِنْ مَعْشَرٍ لَوْ يَقِيسُ النَّاسُ شَأْوَهُمْ
 إِلَى الْعُلَى افْتَقَرُوا فِيهِ لِأَرْصَادٍ
 يَا مَنْ لَنَا رَدُّهُ مِنْ فَائِتٍ عَوْضٍ
 يُمَحِّى بِهِ وَزُرُّ أَحْقَابٍ وَأَمَادٍ
 إِنْ يَحْجِبُوكَ فَمَا ضَرَّ النُّجُومَ دَجَى
 وَلَا زَرَى السِّيفَ يَوْمًا طِيَّ أَعْمَادٍ
 لَا بَأْسَ إِنْ طَالَ نَجْزُ السَّعْدِ مَوْعِدُهُ
 فَأَعَذِبِ الْمَاءِ شَرِبًا فِي قَمِ الصَّادِي
 عَسَى لِيَالِيكَ قَدْ سُلَّتْ ضَغِينَتُهَا
 وَقَدْ صَفَّتْ كَأْسُهَا مِنْ سُورٍ أَحْقَادٍ

واستأنف الدهر سلماً لا يكدرها
فالدَّهرُ قد يرتدي حالاتِ أضدادِ
لو كان يُسعدُ قومٌ قدَّرَ فضْلهمُ
ما لاقَ مثلكَ أنْ يحظى بإسعادِ

وكتب محمود سامي إلى الأمير من جزيرة سيلان: [من الكامل]

رُدِّي التحيّةَ يا مهاةَ الأجرعِ
وصلي بحبلِك حبلَ مَنْ لم يقطعِ
وترفّقي بمتيمٍ علقتُ به
نارُ الصّبابَةِ فهو ذاكِ الأضلعِ
طربُ الفؤادِ يكاد يحملُهُ الهوى
شوقاً إليك مع البروقِ اللّمعِ
لا يستنيمُ إلى العزاء ولا يرى
حقاً لصبوته إذا لم يجزعِ
ضمنت^(١) جوانحه إليك رسالة
عنوانها في الخدِّ حُمْرُ الأدْمَعِ
فمتى يبوحُ بما أجنَّ ضميره
إن كنتِ عنه بنجوةٍ لم تسمعي
أصبحتُ بعدك في دياجرِ غربةٍ
ما للصّباحِ بليلها من مَطْلَعِ

(١) كذا في الأصل ولعلها ضمت من الضم، وكتبه مصححه.

لَا يَهْتَدِي فِيهَا لِرَحْلِي طَارِقٌ
 إِلَّا بَأْتَةَ قَلْبِي الْمَتَوَجِّعِ
 أَرْعَى الْكَوَاكِبَ فِي السَّمَاءِ كَأَنَّ لِي
 عِنْدَ النُّجُومِ رَهِيْبَةً لَمْ تُدْفِعِ
 زُهْرٌ تَأَلَّقَ فِي السَّمَاءِ كَأَنَّهَا
 حَبَبٌ تَرَدَّدَ فِي غَدِيرِ مُتَرَعٍ
 وَكَأَنَّهَا حَوْلَ الْمَجَرِّ حَمَائِمٌ
 بِيضٌ عَكْفُنَ عَلَى جَوَانِبِ مَشْرِعٍ
 وَتَرَى الثَّرِيَّا فِي السَّمَاءِ كَأَنَّهَا
 حَلَقَاتُ قَرِطٍ بِالْجُمَانِ مَرْصَعٍ
 بِيضَاءُ نَاصِعَةٌ كَبِيضِ نَعَامَةٍ
 فِي جَوْفٍ أَدْحِيٍّ ^(١) بِأَرْضٍ بَلَقَعِ
 وَكَأَنَّهَا أَكْرَتْ وَقَدْ نَوَّرَهَا
 بِالْكَهْرِبَاءِ فِي سَمَاوَةِ مُصْنَعٍ
 وَاللَّيْلُ مَرْهُوبُ الْحَمِيَّةِ قَائِمٌ
 فِي مَسْحِهِ كَالرَّاهِبِ الْمَتَلَقِّعِ
 مَتَوَشِّحٌ بِالنِّيَّاتِ كِبَاسِلِ
 مِنْ نَسْلِ حَامٍ بِاللَّجَيْنِ مَدْرَعِ
 حَسَبِ النُّجُومِ تَخَلَّفَتْ عَنْ أَمْرِهِ
 فَوَحَى لَهُنَّ مِنَ الْهَلَالِ بِإِصْبَعِ

(١) محل بيض النعام .

ما زلتُ أرقبُ فجره حتى انجلى
 عن مثل شادخة الكُميتِ ^(١) الأتلعِ
 وترنّحتُ فوق الأراكِ حمامةً
 تصفُ الهوى بلسانِ صبٍّ مولعِ
 تدعو الهديلَ ^(٢) وما رآته وتلك من
 شيمِ الحمامِ بدعة لم تسمعِ
 رياء المسالكِ حيث أمت صادفتُ
 ما تشتهي من مجثمٍ أو مرتعِ
 فإذا علتُ سكنتُ مظلة أيكّة
 وإذا هوت ورددت قرارة منبعِ
 أملتُ عليّ قصيدة فجعلتها
 لشبيب تحفة صادق لم يدعِ
 هي من أهازيج الحمام وإئتما
 ضمّنتها مدح الهمام الأروعِ
 هو ذلك الشَّهم الذي بلغت به
 مشكاته حدّ السّماكِ الأرفعِ
 نبراس داجية وعقله شارد
 وخطيب أنديّة وفارس مجمعِ

(١) الكميت من الخيل: ما خالط حمرة سواده؛ والأتلع: الطويل؛ والشادخة: الغرة.

(٢) صوت الحمام، والهديل: هو ذكر الحمام أيضاً.

صِدْقُ الْبَيَانِ أَعْضُ جَزُولُ بِاسِمِهِ ^(١)
وثنى جريراً بالجَرِيرِ ^(٢) الأَطْوَعِ
لَمْ يَتَّخِذْ بَذَرَ الْمَقْنَعِ آيَةً
بَلْ جَاءَ خَاطِرُهُ بِآيَةِ يَوْشَعَ
أُخِيَا رَمِيمَ الشَّعْرِ بَعْدَ هُمُودِهِ
وَأَعَادَ لِلْأَيَّامِ عَصَرَ الْأَصْمَعِيِّ
كَلِمٌ لَهَا فِي السَّمْعِ أَطْرَبُ نَغْمَةٍ
وَبِحَجَرَةِ الْأَسْرَارِ أَحْسَنُ مَوْقِعِ
كَالزَّهْرِ خَامِرُهُ النَّدى فَتَأَرَّجَتْ
أَنْفَاسُهُ بِالْعَنْبَرِ الْمُتَضَوِّعِ
يَعْنُو لَهَا الْخَضْمُ الْأَلْدُ وَيَغْتَنِي
بَلْبَابِهَا ذَهْنُ الْخَطِيبِ الْمُضْطَّعِ
هِيَ نَجْعَةُ الْأَدَبِ الَّتِي مَنْ أَمَّهَا
أَلْقَى مَرَاثِيَهُ بِوَادٍ مَمْرَعِ
مَلَكَتْ هَوَى نَفْسِي وَأَحْيَتْ خَاطِرِي
وَرَوَتْ صَدَى قَلْبِي وَلَدَّتْ مَسْمَعِي
فَاسْلَمْ شَكِيبٌ وَلَا بَرَحَتْ بِنِعْمَةٍ
تَحْنُو إِلَيْكَ بِأَيْكِهَا الْمُتَفَرِّعِ
فَلَأَنْتَ أَجْدَرُ بِالشَّنَاءِ لِمَنَةٍ
أُولِيَتْهَا وَالْبِرُّ أَفْضَلُ مَا رُعِي

(١) الجبرول: الأرض ذات الحجارة وهو لقب الحطيئة .

(٢) جبل البعير .

أَرَهَفْتُ حَدِّي فَهُوَ غَيْرُ مَفْلَلٍ
وَرَعَيْتَ عَهْدِي فَهُوَ غَيْرُ مُضَيِّعٍ
وَبَثَّقْتُ لِي مِنْ فَيْضِ بَحْرِكَ جَدُولاً
عَمَّرَ الْبَحَارِ بِسَيْلِهِ الْمَتَدْفِعِ
عَذَبْتُ مَوَارِدَهُ فَلَوْ أَلْقَتْ بِهِ
هَيْمُ السَّحَابِ دِلَاءً هَالِمٌ تَقْلَعِ
وَزَهَتْ فَرَائِدُهُ فَصَارَتْ غَرَّةً
لَجَبِينِ كُلِّ مَتَوَجِّعٍ وَمَقْنَعِ
هُوَ ذَلِكَ النَّظْمُ الَّذِي شَهِدْتُ لَهُ
أَهْلُ الْبِرَاعَةِ بِالْمَقَالِ الْمُبْدِعِ
أَبْصَرْتُ مِنْهُ أَخَا إِيَادٍ خَاطِباً
وَسَمِعْتُ عَنْتَرَةَ الْفَوَارِسِ يَدَّعِي
وَحَلِمْتُ أَنِّي فِي خُمَائِلِ جَنَّةٍ
وَمِنْ الْعَجَائِبِ حَالِمٌ لَمْ يَهْجَعِ
فَضْلٌ رَفَعَتْ بِهِ مَنَارَ كِرَامَةٍ
صَرَفُ الْعَيُونِ عَنِ الْمَنَارِ لَتَبَعِ
فَمَتَى أَقُومُ بِشُكْرِ مَا أَوْلَيْتَنِي
وَالنَّجْمُ أَقْرَبُ غَايَةٍ مِنْ مَنْزَعِي
فَاعْذُرْ إِذَا قَصُرَ الثَّنَاءُ فَإِنِّي
رَزْتُ الْمَقَالَ فَلَمْ أَجِدْ مِنْ مَقْنَعِ
لَا زِلْتُ تَرْفُلُ فِي وَشَاءِ سَعَادَةٍ
وَحَبِيرِ عَافِيَةٍ وَعَيْشِ أَمْرِعِ

فأجابه الأمير :

[من الكامل]

أُتْرَى يَحْلُ هَوَاكِ بَيْنَ الْأَضْلَعِ
 وَيَحْلُ لِي بِسَوَاكِ ذَرْفُ الْأَدْمَعِ
 وَأَبَيْتُ أَشْرَكَ فِيكَ فِي دِينِ الْهَوَى
 وَأَكُونُ لِلتَّوْحِيدِ أَوَّلَ مَدْعِ
 وَتَظَلُّ تَشْرُدُ بِي لِغَيْرِكَ صَبُوءَ
 هِيَ مِنْ سُجُوفِكَ فِي الْمَحَلِّ الْأَمْنَعِ
 وَأَسِيمُ فِي رَوْضِ الْحَسَانِ مَوْزِعاً
 قَلْباً وَهَى بِالْحَمَلِ غَيْرَ مَوْزِعِ
 قَلْبٌ عَلَيْكَ تَخْتَمْتُ أَبْوَابَهُ
 مَا نَحْوَهُ لِسَوَاكِ طَرْفَةُ مَطْمَعِ
 إِنِّي طَوَيْتُ عَنِ النَّسِيمِ شِعَاْفَهُ
 أَنْ جَاءَنِي مِنْ غَيْرِ تِلْكَ الْأَرْبَعِ
 وَحَجَبْتُ عَنْ كُلِّ الْعَوَاطِفِ حُجْبَهُ
 إِلَّا الْحَنِينَ لِبَدْرِ ذَاكَ الْمَطْلَعِ
 وَأَبَحْتُ إِلَّا فِي الْعَرَامِ هَوَادَةً
 وَمَنْعْتُ إِلَّا أَنَّهُ الْمَتَوَجَّعِ
 أَضَحْتُ تَغَايِرَ فِي هَوَاكِ جَوَارِحِي
 حَتَّى لِيغْضِبُ نَازِرِي مِنْ مَسْمَعِي
 وَأَغَارُ مِنْ طَرْفِي لِغَيْرِكَ نَازِراً
 لِمَحَا وَلَوْ شِئِمَ الْبُرُوقُ اللَّمَعِ

ولو اسْتَطَعْتُ الشَّمْسَ ذُذْتُ لِعَابِهَا
 عن وَجَنَتَيْكَ ولو سَعَتْ فِي بُرْقَعِ
 ولقد أَغَارَ الهَاجِسُ مِنْ خَاطِرِ
 مِنْ سِرِّ مُهْجَةِ رَاهِبٍ مَتَوَرِّعِ
 يَمْشِي إِلَيْكَ وَلَوْ بِأَعْمَقِ قَلْبِهِ
 وَيَشِيرُ بِالْأَفْكَارِ لَا بِالْأَصْبَعِ
 دَرَّعْتُ حَسَنَكَ بِالْكَمَالِ وَفَتِيَّةِ
 مِنْ حَوْلِ خِذْرِكَ حَاسِرِينَ وَدَرَّعِ
 فِي كُلِّهِ تَذَرُّ الضَّرَاغِمُ عِنْدَهَا
 مِنْ ذَلَّةِ أَمْثَالِ عُفْرِ الْأَجْرَعِ ^(١)
 مَا لِلْمَطَامِعِ فِي الْوِصَالِ وَدُونِهِ
 خُفِرُ الشَّرِيعَةِ وَالرِّمَاحُ الشَّرِيعِ
 نَفْسِي الْفِدَا لِمَقْتَنَعِ ^(٢) هَجَرَتْ لَهُ
 أَجْفَانُهُنَّ شَفَارُ كُلِّ مَقْنَعِ ^(٣)
 تَتَهَافَتُ الْأَوْهَامُ عَنْ حُجْرَاتِهِ
 وَيَرِدُ خَاطِرُهُ الْمَتَيِّمَ إِذْ يَعِي
 ذَاكَ الْحِمَى إِلَّا عَلَى مَنْ أَمَّهُ
 مِنْ بِي مِمْتَنَعِ الْوَجِيبِ مَشِيعِ ^(٤)

(١) الأجرع: الرمل المستوي لا ينبت شيئاً، والأعفر: الذي يعلو حمرة بياض.

(٢) أي ذات القناع.

(٣) الذي عليه بيضة الحديد.

(٤) القلب الشجاع.

أَكْنَهْتُ بِالْإِقْدَامِ سِرَّ ضَمِيرِهِ
 وَحَلَلْتُ بِالْأَقْدَامِ قَلْبَ الْمُصْنَعِ
 هِيَ زُورَةٌ تَحْتَ الظَّلَامِ وَرَدَّتْهَا
 فَرْدًا بَلَا عَضْدٍ، بَلَى قَلْبِي مَعِيَ!
 فَنَظَرْتُ مِنْ ذَاكَ الْهَالِلِ لِنَيِّرِ
 وَعَلَقْتُ مِنْ ذَاكَ الْغَزَالِ بِأَتْلَعِ
 وَأَسْغَتْ فِي نَهْلِ الشِّفَاءِ وَعَلَّهَا
 مَا لَيْسَ يَعْذُوبُ بَعْدَهُ مِنْ مَكْرِعِ
 بِنَا كَأَنَّا خَطْرَةٌ فِي خَاطِرِ
 أَوْ وَهْلَةٌ حَلَّتْ فِرَّادَ مَرْوَعِ
 نَبَّهْتُ بِالْأَغْزَالِ هَاجِعَ حَبِّهَا
 وَحَمَاتِهَا مِنْ غَافِلِينَ وَهَجَّعِ
 وَسَقَيْتُهَا كَأْسَ الْهُوَى دَهْقًا وَلَمْ
 يَحُلْ الْهُوَى إِلَّا بِكَأْسٍ مُثْرَعِ
 مَتَمَلِّينَ مِنَ الْعِنَاقِ كَأَنَّا
 قَوْسٌ خَلَا لَزِيَادَةَ مَنْ مَنَزَعِ
 أَرَوِي غَرِيبَ حَدِيثِ أَحْوَالِ الْجَوَى
 وَالرَّاحُ لَيْسَ يَطِيبُ غَيْرَ مَشْعَشَعِ
 وَصَلْ أَعَادَ الشَّمْلَ أَيَّ مَوْصَلِ
 لَكِنْ أَعَادَ الْقَلْبَ أَيَّ مَقْطَعِ
 عَاطَيْتُهَا صَرْفَ الْهُوَى وَعَفَافُنَا
 طُولَ التَّلَازِمِ لَمْ يُشَبَّ مِنْ مَوْضِعِ

كَانَتْ مُضَاجِعُنَا تَنْتُ كَمَالِنَا
 لو كَانَ يَوْجَدُ مَنْطِقٌ لِلْمُضْجِعِ
 وَاللَّيْلُ يَكْتُمُ مَا يَنْمُ بِسَرِّهِ
 أَرْجُ النَّسِيمِ سَرَى بِمِسْكِ أَضْوَعِ
 وَتَرَى الْمَجْرَّةَ فِي السَّمَاءِ كَأَنَّهَا
 دُرٌّ تَنْأَثِرُ مِنْ سَمَاءٍ مُضْرِعِ ^(١)
 حَتَّى إِذَا شَقَّ الدَّجَنَّةَ شَوْقُهَا
 لِقَاءِ ذُكَاءٍ وَشَابَ فَوْدُ الْأَسْفَعِ
 وَرَأَيْتُ أَسْرَابَ النُّجُومِ تَتَابَعَتْ
 بِفِرَارِهَا مَضْعَ ^(٢) النَّعَامِ الْأَمْزَعِ ^(٣)
 مَا كَانَ أَحْوَجُنَا بِذَلِكَ لَآيَةٍ
 تَأْتِي لَنَا فِي عَكْسِ آيَةٍ يُوشَعِ
 زَحْزَحَتْ عَنْهَا سَاعِدِي وَتَرَكَتُهَا
 دُونَ الْكَرَى مِنْ تَحْتِ عَبٍّ مُضْلَعِ
 وَطَلَعْتُ أَغْثُرُ بِالسَّيُوفِ وَلَوْ دَرَى
 أَهْلُ السَّيُوفِ مَقَامَتِي لَمْ أَفْزِعِ
 أَيْغُولُ مَهْجَتِي الْكِمَاءُ وَمَا لَهُمْ
 فَخْرٌ سِوَايَ إِذَا اغْتَدَوْا فِي مَجْمَعِ
 وَتُرَى تَخُونُ الْخَيْلُ فَارِسَهَا وَهَلْ
 يُزْدَى الْحَسِينُ عَلَى يَدِ الْمُتَشَيِّعِ؟

(٢) مرّ خفيفاً.

(١) أي ذات ضروع.

(٣) المسرع من مزع.

أَوْ مَنْ لَهُمْ مِثْلِي إِذَا عَبَسَ الْوَعَى
 وَتَضَاكَتْ أَنْيَابُ تَغْرِ الْمَصْرِعِ
 وَتَشَاوَرَتْ سُمْرُ الْقَنَا وَتَجَاذَبَتْ
 بِذَوَائِبِ وَالسَّيْفِ شِبْهَ الْأَصْلَعِ
 وَلَقَدْ بَذَذْتُ السَّابِقِينَ فَمَنْ لَهُمْ
 (١) بِوَقُوفٍ سِيرٍ بِالْمَكَارِمِ مُوَضِعٍ
 وَبَلَغْتُ مِنْ سَامِي الْفَخَارِ وَجَاءَنِي التَّ
 قَرِيظُ مِنْ «مَحْمُودِ سَامِي» الْأَرْفَعِ
 خَنْذِيدٍ (٢) هَذَا الدَّهْرُ وَاحِدُ أَهْلِهِ
 مِقْدَامُ حَلَبَتِهِ الْأَغْرَّ الْأَبْتَعِ
 الْقَائِلِ الْفُصْحِ الَّتِي عَنْ مِثْلِهَا
 يُثْنِي الْمَقْفَعُ فِي بَنَانٍ مَقْفَعِ
 لَوْ جَاءَ فِي الْعَصْرِ الْقَدِيمِ لَمَا رَوَى
 إِلَّا اقْصَائِدَهُ لِسَانُ الْأَصْمَعِيِّ
 قَدْ قَادَ مَمْلَكَةَ الْكَلَامِ وَحَازَهَا
 أَخَذَ الْأَعَزَّةَ لِلذَّلِيلِ الْأَضْرَعِ
 إِنْ يَعْصِيهِ قَوْلٌ فَلَمْ يَكُ لِفَتَّةٍ
 (٣) حَتَّى يَذَلَّ مُسْتَقِيمَ الْأَخْدَعِ

(١) أَوْضَعُ : أَسْرَعُ .

(٢) الشَّاعِرُ الْمَفْلُوقُ وَالْخَطِيبُ الْمَفْوَّهِ وَالسَّيِّدُ الْحَلِيمُ وَالشُّجَاعُ الْبَهِيمَةُ وَالرَّجُلُ الْجَوَادُ .

(٣) عَرِقَ فِي صَفْحَةِ الْعَنْقِ ، يُقَالُ : رَجُلٌ شَدِيدُ الْأَخْدَعِ أَيْ ذُو عَتْوٍ وَشَدَّةٍ .

سَهْلُ الْبَيَانِ عَصِيَّةٌ لِّلْمَحْتَذِي
 فَلَأَنْتَ مِنْهُ بَيْنَ عَاصٍ طَيِّعٍ
 خُلِقْتَ لَهُ عَلَيَا اللِّغَاتِ فَلَوْ هَفَا
 نَحْوَ الرِّكَاکَةِ جَاءَ كَالْمَتَصَّنِعِ
 تَغْدُو الْمَعَانِي حُومًا حَتَّى إِذَا
 سَامِينَ فِكْرَتَهُ هَبَطْنَ بِمَوْقِعِ
 مَا زَالَ يُبْدِعُ قَائِلًا حَتَّى يَرَى
 بِدْعًا عَلَى الْأَيَّامِ إِنْ لَمْ يَبْدَعْ
 إِنْ أَجْدَبْتَ أَرْضَ الْخَلَائِقِ بِالشَّنَا
 فَخِلَالَهُ لِلْحَمْدِ أَمْجَدُ مَرْتَعِ
 أَوْ حَارَ قَوْمٌ فِي الشَّعَابِ فَإِنَّهُ
 رَبُّ الْمَضِيِّ عَلَى الْمَضِيِّ الْمُهَيِّعِ
 أَضْحَى يُطَارِحُنِي الْفَرِيضَ وَهَلْ تَرَى
 مِنْ أَضْبَعِ يَوْمًا يُقَاسُ بِأُذْرَعِ
 أَمْلَى إِلَيَّ قَصِيدَةً فَأَذَابَنِي
 خَجَلًا وَهَيْبَةً خَاشِعٍ مَتَصَدِّعِ
 يَا ابْنَ الْغَطَارِفَةِ الْأَلَى لَمْ يَنْتَمُوا
 إِلَّا بِأَزْهَرِ فِي النَّدِيِّ سَمِيدِعِ^(١)
 لَا عَرَوْا إِنْ يُرْتَجَّ عَلَيَّ بِحَضْرَةِ
 إِنْ قَابَلْتُ شَمْسُ الضُّحَى لَمْ تَسْطِعِ

(١) السيد الكريم الموطأ الأكناف .

فَلَوْ أَنَّ سُحْبَانَ الْفَصَاحَةِ قَائِمٌ
 فِي بَابِهَا مَا قَالَ غَيْرَ مُتَعَتِّعٍ
 فَهُنَاكَ مَا بَهَرَ الْخَوَاطِرَ هَيْبَةً
 وَزَرَى بِعَارِضَةِ الْخَطِيبِ الْمَصْقَعِ
 كُلُّ الْعَقَائِلِ فِي حِمَاكَ وَصَائِفُ
 وَالْمُنَشَّاتُ ^(١) مِنَ الْجَوَارِي الْخُضْعِ
 فَاسْلَمَ رَعَاكَ اللَّهُ سَابِعَ نِعْمَةٍ
 وَأَعَادَ عَيْشَكَ لِلزَّمَانِ الْأَمْرِعِ
 وَاعْذُرْ إِذَا قَصَّرْتُ عَنْ حَقِّ فُلُو
 أَمْلَيْتُ أَسْوَدَ مَقْلَتِي لَمْ أَقْنَعِ
 (انتهى النقل عن مختارات الزهور)



وكنت سنة ١٩٠٨ شاتياً في طبرية عند ابن عمي الأمير أمين
 المصطفى أرسلان حيث كان قائماً في تلك البلدة فأرسلت إلى
 محمود سامي باشا في مصر قصيدة ميمية من بحر الخفيف فقدت
 من بين أوراقه وكان قد فقد إحدى كرائمه فكان موضوع القصيدة
 التعزية والتسلية وإني أتذكر منها بعض أبيات:

[من الخفيف]

لَا تَخَلْ كُنْتَ فِي الْفَجِيعَةِ فَرْدًا
 كُلُّ قَلْبٍ لَجْرَحٍ قَلْبِكَ دَامَ

(١) استخدام بديعي لأن الجواري المنشآت هي السفن وقد نقلت هنا لمعنى
 الإنشاء في الأدب.

ومنها في المديح:

إِنْ أَزَالُوكَ عَنْ رَأْسَةِ حُكْمٍ
لَمْ تَزَلْ صَدَرَ دَوْلَةِ الْأَفْهَامِ
ومما أتذكره من هذه القصيدة وصف طبرية وغورها:
فِي ضَفَافِ الْأَرْدُنِّ يَجْرِي عَلَى الْعَوِّ
رِ كَسَاقِ يُدِيرُ كَأْسَ الْمَدَامِ
وَتَبَاشِيرِ لِلرَّبِّيعِ أَضَاءَتْ
فِي عِرَارٍ مِنْ زَهْرِهِ وَبِشَامِ
ومنها:

وَسَلَامِي عَلَى الْخَلِيلِ وَشَوْقِي
وَعَلَى حَافِظِ بَدِيعِ النَّظَامِ
الْثَرِيَّا الَّتِي قَدِمْتُ عَلَيْهَا
بِضَائِلِ السُّهَى وَشِبْهِ الْقَتَامِ

[من الخفيف]

فأجاني محمود باشا سامي بهذه القصيدة:

حَيِّ مَعْنَى الْهَوَى بَوَادِي الشَّامِ
وَادِعُ بِاسْمِي تُجِبْكَ وَرُقُ الْحَمَامِ
هُنَّ يَعْرِفْنَنِي بِطُولِ حَنِينِي
بَيْنَ تِلْكَ السُّهُولِ وَالْآكَامِ
فَلَقَدْ طَالَمَا هَتَفْنَ بِشَدْوِي
وَتَنَاقَلْنَ مَا خَلَا مِنْ هِيَامِي

وَلَكُمْ سِرْتُ كالتَّسِيمِ عَلِيلاً
 أَتَقَرَّى مَلَأَ عِبَ الآرَامِ
 فِي شِعَارٍ مِنَ الضَّنَى نَسَجْتُهُ
 بِخِيوطِ الدَّمُوعِ أَيْدِي الْعَرَامِ
 كُلَّمَا شَمْتُ بَارِقاً خِلْتُ ثَغْراً
 بِاسْمٍ مِنْ خِلَالِ تِلْكَ الْخِيَامِ
 وَالْهَوَى يَجْعَلُ الْخِلَاجَ يَقِيناً
 وَيَغْرِ الْحَلِيمَ بِالْأَوْهَامِ
 خَطَرَاتٌ لَهَا بِمِرَاقِ قَلْبِي
 صَوْرٌ لَا تَزُولُ كَالْأَحْلَامِ
 مَا تَجَلَّتْ عَلَى الْمَخِيلَةِ إِلَّا
 أَذْكَرْتَنِي مَا كَانَ مِنْ أَيَّامِي
 ذَاكَ عَصْرٌ خَلَا وَأَبْقَى حَدِيثاً
 نَتَعَاطَاهُ بَيْنَنَا كَالْمَدَامِ
 كُلَّمَا زَحَزَحْتُ بِنَانَةَ فِكْرِي
 عَنْهُ سَتَرُ الْخِيَالِ لَاحَ أَمَامِي
 يَا نَسِيمَ الصَّبَا فِدَيْتُكَ بَلَّغْ
 أَهْلَ ذَاكَ الْحِمَى عَبِيرَ سَلَامِي
 وَاقْضِ عَنِّي حَقَّ الزِّيَارَةِ وَادْكُرْ
 فَرَطٌ وَجَدِي بِهِمْ وَطُولَ سَقَامِي
 أَنَا رَاضٍ مِنْهُمْ بِذِكْرَةٍ وَدٍّ
 أَوْ كِتَابٍ إِنْ لَمْ أَفْزُ بِلَمَامِ

هم أباحوا الهوى حريم فؤادي
 وأذلوا للعاذلين خطامي
 أتمنّاهم ودون التلاقي
 قذفات من لُجّ أخضر طام
 صائل الموج كالبحول تراعى^(١)
 من هياج وترتمي باللغام
 وترى السفن كالجبال تهدى
 خافقات البؤود والأعلام
 تعتلي تارة وتهبط أخرى
 في فضاء بين الشها والرغام
 هي كالدُّهم جامحات ولكن
 ليس يثني جماحها بلجام
 كل أرجوحة ترى القوم فيها
 خُشعاً بين رُكع وقِيام
 لا يفيقون من دُوارِ فهاوٍ
 ليدّيه وراعف الأنفِ دام
 يستغيثون فالقلوبُ هوافٍ
 حذر الموت والعيون سوام
 في دعاءٍ يحذنه بدعاءٍ
 لجلال المهيمين العلام

(١) أي تتراعى أمواجه في صيالتها كالبحول إذا رعى واحد من هنا وواحد من هناك وحذفت إحدى التاءين للتخفيف.

ذَاكَ بَحْرٌ يَلِيهِ بَرٌّ تَرَامِي
 فِيهِ خَوْضُ الْمَطِيِّ مِثْلَ النَّعَامِ
 فَسَوَادِي بِمَضْرَ ثَاوٍ وَقَلْبِي
 فِي أَسَارِ الْهَوَى بِأَرْضِ الشَّامِ
 أَخْدَعُ النَّفْسَ بِالْمُنَى وَهِيَ تَأْبَى
 وَخُدَاعُ الْمُنَى غِذَاءُ الْأَنَامِ
 فَمَتَى يَسْمَحُ الزَّمَانُ فَأَلْقَى
 بِشَكِيبٍ مَا فَاتَنِي مِنْ مُرَامِ
 هُوَ خِلٌّ لِبَسْتُ مِنْهُ خِلَالاً
 عِبَقَاتٍ كَالنَّوْرِ فِي الْأَكْمَامِ
 صَادِقُ الْوَدِّ لَا يَخِيْسُ بَعْدِي
 وَقَلِيلٌ فِي النَّاسِ رَغِي الذَّمَامِ
 جَمَعَتْنَا الْآدَابُ قَبْلَ التَّلَاقِي
 بِنَسِيمِ الْأَرْوَاحِ لَا الْأَجْسَامِ
 وَبَلَّغْنَا بِالْوَدِّ مَا لَمْ يَنْلُهُ
 بِحَنَانِ الْقُرْبَى دَوُو الْأَرْحَامِ
 فَلَيْنَ لَمْ نَكُنْ بِأَرْضِ فِلَانَا
 لَا تَصَالِ الْهَوَى بِدَارِ مَقَامِ
 وَائْتِلَافِ الثُّفُوسِ أَصْدَقُ عَهْدَا
 مِنْ لِقَاءٍ لَمْ يَفْتَرِنْ بِدَوَامِ
 أَلْمَعِيُّ لَهُ بَدَاهَةُ رَأْيِ
 تَدْرِكُ الْغَيْبَ مِنْ وَرَاءِ لِثَامِ

وَقَرِيضٌ كَمَا وَشَتْ نَسَمَاتُ
 بَضْمِيرِ الْأَزْهَارِ إِثْرَ الْعُمَامِ
 هَزَنِي شِعْرُهُ فَأَيَّقَظْ مِنِّي
 فِكْرَةً كَانَ حَظُّهَا فِي الْمَنَامِ
 سِمَتَهَا الْقَوْلُ بَعْدَ لَايٍ فَبَضَّتْ
 بَيْسِيرٍ لَمْ يَرَوْا عُودَ ثُمَامِ
 فَارَضَ مِنِّي بِمَا تَيْسَّرَ مِنْهَا
 رُبَّ ثَمَدٍ فِيهِ غَنَى عَنْ جَمَامِ
 وَلَوْ أَنِّي أَرَدْتُ شَرْحَ وَدَادِي
 وَاشْتِيَاقِي لَضَاقَ وَشْعُ الْكَلَامِ
 أَنَا أَهْوَاكَ فَطَرَةً لَيْسَ فِيهَا
 مِنْ مَسَاغٍ لِلنَّقْضِ وَالْإِبْرَامِ
 وَإِذَا الْحُبُّ لَمْ يَكُنْ ذَا دَوَاعِ
 كَانَ أَرْسَى قَوَاعِدًا مِنْ شَمَامِ
 فَتَقَبَّلْ شُكْرِي عَلَى حُسْنِ وَدِّ
 رُحْتَ مِنْهُ مَقْلَدًا بِوَسَامِ
 أَتْبَاهِي بِهِ إِذَا كَانَ غَيْرِي
 يَتْبَاهِي بِزِينَةِ الْأَنْعَامِ
 دُمْتُ فِي نِعْمَةٍ يَرْفُ حَلَاهَا
 فَوْقَ فَرْعٍ مِنْ طَيْبِ أَصْلِكَ نَامِ

القسم الثاني

(في مساجلات شعرية،
ومفاكهاآت أدبية)

Σ.

Σ.

(في مساجلات شعرية، ومفاكهاات أدبية)

لما طبعت ديواني المسمى بالباكورة وأنا إذ ذاك ابن سبع عشرة
سنة بعثت به من بيروت إلى المرحوم عبد الله باشا فكري بإشارة
الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وكان في بيروت؛ وذلك مع كتاب
مني مصدر أبيات ما عدت أتذكرها جيداً وإنما أذكر منها الآن ما
يلي:

[من الوافر]

إذا ما رُمْتُ مِنْ مَهْدِيكَ كَفْوَاً
لَقَدْ أَنْفَدْتُ لَوْلَوْ كُلَّ بَحْرِ
فَكَيْفَ يَقُومُ عِنْدَكَ نَزْرُ شَعْرِ
يَذِيبُ الرَّعْبَ مِنْهُ كُلَّ شَطْرِ؟

ومنها:

جَعَلْتُ الْقَوْلَ فِي سَيْفٍ وَرُمْحٍ
وَعَفْتُ النَّظْمَ فِي قَدْ وَخْضَرٍ
فَإِنِّي عَاشِقُ غُرَرِ الْمَعَالِي
وَلِي نَفْسٌ فِدَاؤُكَ نَفْسُ حُرٍّ
إِذَا فَكَّرْتُ يَوْمًا فِي كَلَامٍ
يَكُونُ بِمَدْحِ (عَبْدِ اللَّهِ فَكْرِي)

فأجابني على ذلك بما يلي وهي في (الآثار الفكرية): [من الوافر]

أَتَتْ تَخْتَالُ فِي حَبَرٍ وَحَبْرٍ
 عَلَى الْعِشَاقِ لَا كِبَرٍ وَكِبَرٍ
 مَنْعَمَةُ الشَّبِيبَةِ لَمْ يَرْغُهَا
 مَشِيبٌ فِي الْعِذَارِ أَقَامَ عِذْرِي
 سَعَتْ نَحْوِي عَلَى سَحَرٍ تَرِينِي
 بِدَائِعَ نَظْمِهَا نَفَثَاتُ سَحَرٍ
 إِلَى أَنْ صِيرْتَنِي فِي هَوَاهَا
 أَسِيرَ الْقَلْبِ مَبْتَهَجاً بِأَسْرِي
 سَرَتْ لِي مِنْ رُبَى بِيروَتَ تَهْدِي
 شَذَى لِبْنَانٍ مَعْلَنَةً بِسْرِي
 تَخْبَّرْنِي وَقَدْ أَلْفَتْ خَبيراً
 قَرِيبَ الْعَهْدِ مِنْ خَبَرٍ وَخُبْرٍ
 بَانَ ذَوِي هَوَايَ بِهَا عَلَى مَا
 عَهْدَتْ مَبْرَةً وَكَمَالَ بِرٍ
 أَلَا حَيَا رُبَى بِيروَتَ عَنِي
 وَلِبْنَانِ الْحَيَا مِنْهَلٌ قَطْرٍ
 بِدَرٍّ يَمْلَأُ الْأَرْجَاءَ دُرّاً
 وَيَمزُجُ تُرْبَ أَرْضِيهَا بِتَبْرِ
 وَحَيَّامَنْ بِهَا رَبِّي وَحَيَّ
 زَمَاناً مَرَّ فِيهَا غَيْرُ مُرٍّ

وَحَيَّا حَيِّ وَافِدَةً أَتَتْنِي
 بَرِيَّاهَا تَضَوَّعَ بِنَفْحِ عُطْرِ
 وَسَرَّتْ بِالتَّحِيَّةِ مِنْ سَرِيِّ
 حَرِيِّ بِالْوَدَادِ عَلَيَّ قَدْرِ
 سَلِيلِ كَرَامَةٍ وَرَبِيبُ عَزْ
 وَنَسْلُ صَيَانَةٍ وَرَضِيعُ طَهْرِ
 وَفَرُغَ نَجَابَةٍ مِنْ عُدُودِ مَجْدِ
 أَثِيلُ الْأَصْلِ مِنْ أَثْلَافِ فَخْرِ
 كَمِيٍّ مِنْ سُلَالَةٍ أَرْسَلَانِ^(١)
 ذَوَابَةُ قَوْمِهِ الْأَسَدُ الْهَزْنَرِ
 فَتَى خَطَبِ الْعُلَى وَصَبَا إِلَيْهَا
 فَكَانَ لَهَا صِبَاهُ خَيْرُ مُهْرِ
 وَمَنْ خَطَبَ الْحَسَانَ فَلَا شَفِيعَ
 لَهُنَّ سِوَى الصَّبَا مَقْبُولِ أَمْرِ
 تَعَلَّقَ قَلْبُهُ مِنْ عَهْدِ مَهْدِ
 بِكَسْبِ الْمَجْدِ مَجْتَنِبًا لَخْسَرِ
 وَأَوَّلَعَ بِالْمَعَالِي وَالْمَعَانِي
 وَنَظَّمَ الشَّعْرَ لَا لَطَلَابٍ وَفَرِ^(٢)

(١) يشير إلى معنى أرسلان وهو الأسد وهي لفظة صار يسمى بها العرب مثل العجم.

(٢) أي عانى الشعر تأدباً لا تكسباً.

وَلَا لَصَّبَابَةٍ فِي وَرْدٍ خَدٍّ
 وَلَا لَصُّبَابَةٍ^(١) مِنْ خَمْرِ ثَغْرِ
 وَلَا مُسْتَبْطِئًا وَغَدًا لِدَعْدٍ
 وَلَا مُسْتَبْطِنًا أَمْرًا لِعَمْرِ
 وَلَكِنْ لَا قِتْنَاصَ شُرُودٍ مَعْنَى
 يَعْنٍ وَحِكْمَةٍ تَبْدُو وَسْرٍ
 وَإِنْ يَلْعَبُ فَمَا لِعِبٍّ بَعِيبٍ
 لِعَهْدٍ صَبَاً وَشَرْخٍ شَبَابٍ عَمْرِ
 وَلَكِنْ تَأْنِفُ الِهْمُّ الْعَوَالِي
 عَلَى رَغَمِ الصَّبَا سَفْسَافٍ أَمْرِ
 تَحْرَمُ قَرَبَ أَمْرٍ فِيهِ إِمْرٍ
 وَتَوْجِبُ هَجْرَ كُلِّ مَقَالٍ هُجْرٍ^(٢)

وكتبت للشاعر المشهور المرحوم إسماعيل باشا صبري يوم كان
 محافظاً لثغر الإسكندرية. وهذا منذ أربعين سنة: [من الكامل المرفل]

دَعَّ عَنْكَ مَا قَالَ الْعَذُولُ وَلَاكَأ
 هِيَهَاتَ أَضْبُو عَنْ حَنِيبٍ وَلَاكَأ
 قَالُوا لَكَ اخْتَارَ السَّلُو وَإِنَّمَا
 أَسْلُوا إِذَا كَانَ الْحَبِيبُ سِوَاكَ

(١) الصبابة بالفتح الشوق، وبالضم البقية من الماء.

(٢) الأمر بالفتح الشأن وبالكسر المنكر. والهجر بالفتح مصدر هجر وبالضم
 القبيح من الكلام.

أَمَّا هَوَاكَ فَذَاكَ غَيْرُ مُفَارِقِي
وَنَعِيمٌ رُوحِي أَنْ تَكُونَ فِذَاكَ
فِي كُلِّ يَوْمٍ لَوْعَةً قَدْ غَادَرْتُ
جَسْمِي لِقَاءَ دَنْفَاءٍ لِأَجْلِ لُقَاكَ
وَحَنِينِ نَفْسٍ لَا هَنَاءَ لَهَا سِوَى
تَذْكَارِ شَخْصِكَ أَوْ شَذَى ذِكْرَاكَ
تَهْفُؤُ لَتَعْتَنِقَ النَّسِيمَ لَعَلَّهُ
قَدْ مَرَّ مِنْ جِهَةٍ بِهَا مَثْوَاكَ
وَتَوَدَّ مِنْ فَرْطِ الْغَرَامِ جَوَانِحِي
لَوْ كُنَّ أَجْنَحَةً إِلَى مَرَاكَ
قَدْ حَلَّ حَبِّكَ فِي الْفُؤَادِ فَمَا جَلَا
عَنْهُ فَلَا مَلِكَ سِوَاكَ هَنَاكَ
وَيَلُومَنِي الْعَدَاْلُ فِيكَ وَلَوْ رَأَوْا
مَا قَدْ رَأَيْتُ تَتِيْمُوا بِهِوَكَ
بَلْ لَوْ رَأَى النَّسَاكُ فِي قَتَرَاتِهِمْ
تِلْكَ الشَّمَائِلَ مَا اغْتَدَوْا نُسَاكَ
يَكْفِيهِمْ مِنْكَ الْمَحِيَا طُلْعَةً
الْبَدْرِ فِيهَا لَوْ سَفَرْتُ وَرَاكَ
قَسَمًا بِمَنْ بَرَأَ الْحَسَانَ وَمَنْ بَرَأَ
عَقْدَ الْقُلُوبِ عَلَى الْحَسَانِ رَكَكَ
إِنِّي لِأَحْيَا أَنْ تَجُودَ بِطُلْعَةٍ
مَتَبَذَلًا وَأَمُوتَ عِنْدَ حَيَاكَ

وأبيتُ أرعى البذرَ في غسقِ الدُّجَى
 إن لم أصبِكَ فقد أصبتُ أحَاكَ
 لا تحسبنَّ البعدَ مالَ بصبوتي
 بل زاد في التعذيبُ بُعدَ مَدَاكَ
 واللَّه لا يدري البعادَ ولا النُّوَى
 إلَّا الذي قد ذاقَ مُرَّ نَوَاكَ
 كم ليلةٍ حيرانَ أرقبُ نجمَها
 ترد المجرةُ في السماءِ عُراكَ^(١)
 أحييتها حتى إذا رَقَّ الدُّجَى
 باتتَ تهاوى في الصَّفِيحِ دراكَ
 ذعرتُ نُفُورَ الآبداتِ كأنما
 نَصَبَ الصَّبَاحُ لصيدهنَّ شَبَاكَ
 ليلى: أما للشُّهْبِ عِنْدَكَ مَرَبُطٌ
 كي لا تَفِرَّ إذا الصَّبَاحُ أَتَاكَ؟
 كُن لي وحقِّك في المواقِفِ شاهداً
 فلطالما أحييتَ مَنْ أحيَاكَ
 جهلُوا السَّريرةَ جملةً وتحدَّثُوا
 ولأنتَ أَعْلَمُ يا ظَلامُ بذَاكَ
 مَنْ لم يَذُقْ بُعْدَ الأَحَبَّةِ لم يَزَلْ
 أُولَى العجائبِ أنْ يَخَافَ هَلاكَ

(١) يقال: أورد إبله العراك أوردتها جميعاً.

فسَقَى الأَحَبَّةَ والذي حَلَّوْا به
 عَيْثُ هَمَى لَا يَعْرِفُ الإِمْسَاكَ
 وَسَقَى عُهْودَهُمُ العَهَادُ وهَزَّ في
 وادي الأَحَبَّةِ أَيْكَةً وَأَزَاكَ
 وَرَعَى بوادي النُّيلِ عني عُضْبَةً
 أَضْحَى لَهُمْ حِفْظُ الودَادِ مَلَاكَ
 لَا أَنَسَ أَيَّامِي بِأُنْسٍ لِقَائِهِمْ
 كَلَّا وَلَا يَأْنِيْلُ طِيبَ هَوَاكَ
 يَا حَبَّذا واديكَ مِنْ مَتَرَبَّعٍ
 زَاهٍ وَنِعَمَ الحَوْمِ حَوْلَ حِمَاكَ
 وَرَعَى بِأَرْضِكَ سَيِّدًا أَضَحَّتْ به
 الِاسْكَنْدَرِيَّةُ تُغْرِكُ الضَّحَاكَ
 شَهْمٌ لِعَمْرِي مَا أَفْضَتْ بِلَاغَةً
 عَنْهُ قَصُرْتُ عَنِ المَدَى إِدْرَاكَ
 كَالْبَحْرِ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ أَتَيْتُهُ
 لَتَرَى الحَقِيقَةَ جَاءَ مَلَأَ حَجَاكَ
 وَالِ تَوْشَّحَ بِالكَمَالِ فَقُلْ لَهُ
 سُبْحَانَ مَنْ وَلَاكَ بَلْ أَوْلَاكَ
 أَسَرْتُ مُحِبَّتَهُ القُلُوبَ فَقُيِّدْتُ
 فِيهَا وَلَكِنْ لَا تَرِيدُ فِكَاكَ
 قُلْ لِلْمَطَاوِلِ مِثْلَ غَايَةِ فَضْلِهِ
 هِيَهَاتَ تَظْفَرُ بِالنُّجُومِ يَدَاكَ

مَنْ يَزَعُهُ فِي لُطْفِهِ وَوَقَّارِهِ
 يَلْقَى الْمَلَائِكَ فِيهِ وَالْأُمَلَاكَ
 مَهْلًا أَيَا أَسْمَاعِيلَ فِي طُرُقِ الْعُلَى
 وَاسْتَبَقَ فِيهَا فَضْلَهُ لِسَوَاكَ
 لَلَّهِ مَا أَهْدَى فَعَالِكَ لِلثَّنَا
 وَأَضَلَّ فِي لَيْلِ الْمَرِيبِ سَرَكََا
 حَسْبُ الْمَزَاحِمِ مِنْ عُلَاكَ مَنَاصِبًا
 أَنْ يَسْتَظِلَّ بِظِلِّ فَضْلٍ رِدَاكََا
 تَاهَتْ بِكَ الْإِسْكَندَرِيَّةُ بِهَجَةٍ
 بَلَغَتْ نَهَايَةَ حِظِّهَا بِنَهَاكََا
 لَمْ تَدْرِ مِثْلَكَ فِي الْوَلَاةِ وَلَا دَرْتَ
 تِلْكَ الْمَنَارُ الْغُرُّ مِثْلَ هُدَاكََا
 وَإِلَيْكَ يَا مَلِكَ الْقَرِيضِ قَصِيدَةً
 وَقَفْتُ عَلَى خَجَلٍ بَبَابِ عُلَاكََا
 قَدِمْتُ عَلَى إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ عَرِيقَةٌ
 فِي لَحْمِ طَامَعَةٍ بَنِيلٍ رِضَاكََا

بينما أنا ذاهبٌ من سورية إلى الآستانة مبعوثاً عن حوران
 في أيام الحرب العامة، نزلت ضيفاً في طرسوس على سعادة
 الشهم الأمثل محمد بك راسم من كبار أعيان مصر المقيم
 هناك، وكانت حصلت حادثة على فتاة حسنة تشتغل في
 معمله القطني، وضويقت الفتاة لأجل جمالها، والبك
 المشار إليه لا يعلم بالواقع، فلما بلغه الخبر امتعض ومنع

من التعرض لها وجعلها في مأمن من سطوة العاشق ،
وصادف وجودي هناك فقلت على سبيل المداعبة : [من الكامل]

أَقْسَمْتُ إِذْ طَلَعْتُ عَلَيَّ شُمُوسُهَا
وَرَهَتْ بِهَا الْأَرْجَاءُ وَهِيَ عَرُوسُهَا
أَعْلَى مَحَلٍّ فِي الْجَمَالِ مَحَلُّهَا
وَبِهَا فَأَجْمَلُ بِلَدَةِ طَرُوسُهَا
لَمْ أَحْسُدِ الْعِشَّاقَ إِلَّا وَاحِدًا
أَحْظَاهُ رَبُّ الْعَرْشِ فَهُوَ جَلِيسُهَا
فِي مَجْلِسٍ يَدْعُ الْحَلِيمَ مَرْتَحًا
سَيَّانَ فِيهِ لَحَاطُهَا وَكُرُوسُهَا
مَا إِنَّ رَأَتْهَا مَهْجَةً إِلَّا فَدَتْ
ذَاكَ الْمَحْيَا نَفْسَهَا وَنَفِيسُهَا
وَمِنْ الْعَجَائِبِ وَهِيَ رِيْمَةٌ رَامَةٌ
تَعْنُو لَهَا غُلْبُ الرِّجَالِ وَشُوسُهَا
هِيَ جَوْذَرٌ وَلَكُمْ سَبْتٌ مِنْ ضَيِّعٍ
لَا يَسْتَبِيهِ مِنَ الْجِيُوشِ خَمِيسُهَا
جَارَتْ عَلَيْهَا وَهِيَ بَعْدُ ظُبِيَّةٌ
نَكْبَاءُ تَضْطَلِمُ الْأَسْوَدَ ضَرُوسُهَا
فَعَدَا عَلَيْهَا مُذْ نَعُومَةُ ظَفْرِهَا
خَبَبًا نَعِيمُ الْحَادِثَاتِ وَبُوسُهَا
بَعْدَ الْقُصُورِ الْعَالِيَاتِ رَأَيْتَهَا
فِي كَسْرِ بَيْتٍ قَصْرُهَا نَامُوسُهَا

بعد الثَّراءِ الجَمِّ حَلَّةَ صانع
 ولكلِّ حالٍ في الزَّمانِ لبوسُها
 تمضي لها في الغَزَلِ بيضُ أناملٍ
 ظلم الذي هو بالحريرِ يقيسُها
 القطنُ يهزأُ بالدمِّمِفس بكفِّها
 والخزُّ ودَّ لو أنَّه ملموسُها
 في الغزلِ أصبح شُغلُها ولنا به
 متحرِّكاً قِطْعٌ تضيقُ طُرُوسُها
 يرجو الملوكُ نظيرَها لبنيتهم
 فيعودُ ربُّ الملكِ وهو يئسُها
 أحببتُ عيسى والصليبَ لأجلِها
 حتى يكادَ يؤمُّ بي قسيسُها
 وأخالفُ الشيخَ التميميَّ الذي
 ما كان يطربُّ سَمْعَهُ ناقوسُها
 لو كانَ شَاهِدَ وَجْهَها وَعَفَافَها
 مع حُسْنِها ما آدَهْ تَقْدِيسُها
 بَطَشَتْ بنا وهي الضَّعِيفُ بذاتِها
 بَطَشَاتُ أنورَ بالعداةِ يدوسُها
 هو ذلك البَطْلُ الذي في ذِكرِهِ
 أبداً يضيءُ مِنَ الوجُوهِ عبوسُها
 عادتُ به الآمالُ خضراً نُضْراً
 من بَعْدِ ما عمَّ البسيطُ يبيسُها

أبقى الإله سُعوده موصولاً
 فبها تغيبُ عن الديار نُحوسها
 وأراه كلَّ الكاشحين أذلةً
 مخفوضةً بذُرى عُلاه رؤوسها
 وكانت صورة هذه القصيدة وصلت إلى الشام فبعث إليّ الأديب
 الكبير خليل بك مردم بك من سراة دمشق بالأبيات التالية على
 سبيل المداعبة:

[من الكامل]

ما لِلصَّابَةِ منكَ هاجَ رسيُّها
 ولِنَارِ قَلْبِكَ عادَ فيه حسيُّها
 عَهْدِي بِقَلْبِكَ والأَوَانِسُ والدُّمَى
 لا تستبيه سَعَادُهَا ولميُّها
 شَمَسَتْ عن التَّهْيَامِ نَفْسُكَ يافِعاً
 هَلْ رِيضَ بعد الأَرْبَعِينَ شَمُوسُها
 لَلَّه فَاتِنَةٌ تَمَلِّكَ قَلْبُ من
 تحنِّي لديه من الرجال رؤوسها
 فَعَلَّتْ بهِ أَلْحَاطُها ما قَصَّرَتْ
 عن فَعْلِهِ أَقْداحُها وكؤُوسُها
 يا مَنْ سَحِرَتْ بقَوْلِهِ هل ذَاكَ من
 تأثير عَيْنَيْها وأَنْتَ جليُّها؟
 إِنْ كُنْتُ أَحْبَبْتَ الصَّليبَ لِأَجْلِها
 وشَجَا فؤادَكَ قارِعاً نافُوسُها

والرَّوحَ والإنجيلَ حلفَةً صادقٍ
وَيَمِينِ حَقٍّ لَا يَرُدُّ غُمُوسُهَا
إِنِّي لَهَجْتُ بِذِكْرِ يَوْحَنَّا وَمَر
قَسٍ وَأَزْدَهَى فِي نَاضِرِي جِرْجِسُهَا
وَشَرِيْتُ تَكْرِيسَ الْبَتُولِ وَيُوسُفَ
وَحَفِظْتُ مَا قَدْ قَالَه قَدَيْسُهَا
هَذَا وَلَوْلَا حُبُّ دِينَ مُحَمَّدٍ
«مَنْ دُونَ كَادٍ» لَأَمَّ بِي قَسِيْسُهَا
هَامَتْ بِهَا نَفْسِي لَوْضَفِكَ حَسَنَهَا
حَتَّى كَأَنْ مَوْهَوْمَهَا مُحْسُوسُهَا
فَأَجَبْتُهُ بِمَا يَلِي وَهُوَ أَيْضاً مِنْ بَابِ الْمَفَاكِهِةَ :
وَاللَّهِ مُذْ طَلَعَتْ عَلَيَّ شُمُوسُهَا
رِيضَتْ لَهَا نَفْسِي وَزَالَ شُمُوسُهَا
وَالشَّمْسُ مَا طَلَعَتْ عَلَتْ أَنْوَارُهَا
وَعَرَا الْكَوَكِبَ وَالْبَدُورَ خُئُوسُهَا
أَلَقْتُ عَلَى قَلْبِي الْمَتِيْمَ لِحِظَةٍ
خَضَعَتْ لَهَا رُوحِي وَلَآنَ شَرِيْسُهَا
رَقَّ الْفَوَؤُذُ لَهَا فَصَارَ رَقِيْقَهَا
وَحَنَى لَهَا رَأْسُ الْعُلُوِّ رَئِيْسُهَا
تُدْعَى الْأَسِيرَةُ غَيْرَ أَنَّ غَزَاتَهَا
عَادَتْ لَهَا أَسْرَى تَذُوبُ نُفُوسُهَا

[من الكامل]

قد غَيَّبَها في السَّجُونِ فلم يَطلْ
 أن صار ربَّ الحَبْسِ وهو حبيسُها
 خَلَصَتْ تَجَرُّزُ منه ذَيْلَ صِيَانِهِ
 هي منه في لَمَعَانِهِ طاووسُها
 وكذا الجمالُ إذا سَرَتِ أَجْنَادُهُ
 سالتْ بأودية القلوبِ تَجُوسُها
 مُذْ صَوَّبَتْ نحوي سِهَامَ لِحَاظِها
 وهَنَّتْ دُرُوعُ مفاصِلِي وتروُسُها
 نَفَذَتْ لها بين الجوانحِ نظرةً
 فيها يضلُّ الطَّبَّ جالينوسُها
 باتَتْ تَقَلِّبُ في ضَعِيفِ بَنَانِها
 أَسَدًا تَضَيِّقُ به الأسودُ وخيسُها
 هيهاتَ أَطْمَعُ بالثباتِ أمامِها
 بل يجذبُ الصَّوانِ مغناطيسُها
 مَنْ ذا يعارضُها بملكٍ عبيدها
 مُذْ فَوْقَ عَرْشِ الحُسْنِ كان جُلُوسُها؟
 شاهدتُ منها منظرًا تحيا به
 رُوحٌ ولو بلغ الفِصَالُ نسيُسُها
 وسَرَقْتُ نظمًا من مباسمِ ثَغْرِها
 دُررًا يعزُّ بِمِثْلِها قامُوسُها
 قُلْ للخليلِ يتيه في فيحائه
 ويروضُ كل كريمةٍ ويسوسُها

ويروُدُ مرجَّتَها عَشِيَّةَ سبتِها^(١)
 وله بكلِّ محطَةٍ جاسوسُها
 ويصيّدُ عفرَ ظبائِها في كُنُسِها
 وإليه تجبى جَوْبِرُ وكنيسُها^(٢)
 أَظَنَنْتَ شَطَرَ الحَبِّ خَصَّكَ مفرداً
 وسوّاك في أقسامِهِ مبخوسُها؟
 وحسبْتُ ما في الرُكْبِ غير «خليلها»
 و«أديب»^(٣) ذلك وحده نِقْريسُها
 أو إن قطعْتُ الأربعينَ أينبغي
 أن تستويَ غَزْلاًئُها وتيوسُها؟
 أو ما علمتَ الأربعينَ رِجالِها
 نِعَمَ الفوارسُ إذ يفورُ وطيُسُها
 وهُمُ الجهابذَةُ الأساتذَةُ الألى
 ليسوا أَصْيَبِيَّةً تُعَادُ دروسُها
 وهُمُ إذا ضَمَّتْهُمُ أعراسُها
 مثلُ الضُّراغمِ ضَمَّها عَرِيْسُها^(٤)
 أيكونُ مثلي شاعراً وأكونَ مَنْ
 لم يجتذِبْهُ مِنَ الوجوهِ أنيسُها؟

(١) في دمشق عادة هي خروج الناس إلى المرجة للنزهة عصر السبت.

(٢) جوبر قرية من قرى الغوطة لخليل بك فيها بساتين كان يدعونا للنزهة فيها. وفي جوبر كنيس لليهود قديم جداً.

(٣) الحاج أديب خير من إخواننا.

(٤) العريس والعريسة: مأوى الأسد.

ما زالَ سُلطانُ الجمالِ محَكَمًا
تأتيه من كلِّ القلوبِ مُكُوسُها



وبعث لي سنة ١٣٣٤ سعادة خليل مردم بك الشاعر الكبير من
عيون أعيان الشام قصيدة رائية من البحر الطويل يلتبس مني فيها أن
أجيزه فأجبتة بالقصيدة الآتية :
[من الطويل]

أرى جملةً في صفحةِ الكونِ لا تُقرأ
وعاطفةً في النفسِ تدري ولا تُدرى
وناراً بأخناءِ الأضالعِ كلما
تخلَّلها بردُ اليقينِ ذَكَتْ جَمراً
هي النارُ في الأحشاءِ لكنها هُدًى
لمنْ كان لا يَرْضَى بإيمانه الكُفراً
على ضوئِها سار الأئمةُ قبلنا
وهزُّوا على الأملاكِ ألويةَ حُمْرا
وكم شَاهَدُوها بالحجازِ ونُورُها
يضيءُ بأعناقِ الأيانقِ من بُصرى
ولولا سَنَاها ما دَرى ذو بصيرةٍ
أقلباً حوى بين الجوانحِ أم صَخْرا
ولولاهُ لم تعرفْ عن الرُّوحِ سيرةً
ولا أثراً عنها قَصَصْنَا ولا إثْرا
لقد غابَ عنها كُنْهَها ومكانُها
ولكنْ على الأكوانِ آثارها تَثْرى

لها كل آن في البرية مظهر
 يخبر أن الله أودعها سرا
 يقولون خلق كل ما فيه آية
 أجل إنما سر الهوى الآية الكبرى
 دُخان بلا عود وعرف بلا كبا
 وبرق بلا سلك وسرى بلا إسرا
 فمن يتأمل في البعيد يجد لدى
 جوانبه أشياء لا تقبل الحضر
 ومن يترو في دموع يسلها
 يخض عندها من بين أعينه البحر
 رأيت على طرس الوجود صحافاً
 يداول فيها ربها النظم والنثرا
 منظمة حباً مشتتة قلى
 مؤلفة عرفاً مخلّفة نُكرا
 جنود من الأرواح قد أصبح الهوى
 لأشكالها سمطاً وأصاحت الدُرا
 لها في صبابات القلوب مذهب
 فأشرفها حباً بأشرفها مُغرى
 كما هام قلبي بالخليل بن مردم
 هناك الهوى العذري قد صحب العذرا
 أجل سُرّة الشّام بيتاً وإنه
 لأحدثهم سنّاً وأكبرهم قدرا

وَأَرْحَبَهُمْ ذُرْعاً وَأَطْوَلَهُمْ يَدًا
 وَأَكْرَمَهُمْ نَجْرًا وَأَصْدَقَهُمْ فَجْرًا
 وَأَقْسِمُ إِنِّي مَا رَأَيْتُ نَظِيرَهُ
 فَتَى سَبَقَ الْأَشْيَاخَ فِي فُطْرِهِ خُبْرًا
 وَلَوْلَا نُورُ الْمُصْطَفَى فِي نِجَارِهِ ^(١)
 فَعَمَّ عَدِيًّا مَجْدَ نَسْبَتِهِ الزَّهْرَا
 أَتَانِي قَصِيدٌ مِنْهُ يَبْغِي إِجَازَتِي
 وَهَلْ لَضَيْلِ النَّجْمِ أَنْ يُقْبَسَ الْبَدْرَا
 وَكَيْفَ يَجِيزُ الْمَرْءُ مَنْ بَانَ شَأُوهُ
 عَلَيْهِ وَهَلْ لِلْفِتْرِ أَنْ يَعْدُلَ الشُّبْرَا
 وَجَادَ بِشَعْرٍ كَدْتُ عِنْدَ نَشِيدِهِ
 أَشْكُكَ هَلْ بِالشَّعْرِ جَادَ أُمُّ الشَّعْرَى
 يَسَاجِلُنِي حَرَّ الْقَرِيضِ وَهَلْ تَرَى
 يَسَاجِلُ هَذَا التَّرْبُ ذِيَاكَ التَّبْرَا
 إِجَازَةً مِثْلِي مِثْلَهُ خَالِصُ الدَّعَا
 بِتَوْفِيقِهِ وَاللَّهُ يَرْبِي لَهُ الْعُمْرَا
 وَإِنِّي أَرَى فِيهِ مَذَى الْيَوْمِ مَفْرَدًا
 كَذَاكَ يَرْجَى الْبَدْرُ مَنْ شَهِدَ الشُّهْرَا

(١) النجار بالكسر الحسب أشير إلى أن والدته خليل بك من آل حمزة السادة المشهورين .

شهدتُ به في الحُسْنِ بَدْرًا وفي التَّقَى
شهدتُ به سِمْاءَ مَنْ شَهِدُوا بَدْرًا



أما قصيدة خليل مردم بك فهي هذه وهي من أوائل شعره: [من الطويل]

أَحْسُ بِشَيْءٍ فِي الْحَشَا يُشْبِهُ الْجَمْرَا
أَهَذَا غَرَامٌ هِيجَتْهُ لِي الذِّكْرَى؟
أَبَيْتُ وَجَنَبِي لَا يَلَائِمُ مَضْجَعًا
وَدَمْعِي لَا يَرْقَى وَطَرْفِي لَا يَكْرَى
أَصِيخُ لِمَا يُوحِي الْغَرَامُ لِمَسْمَعِي
فَأَنْشُرُهُ طَوْرًا وَأَنْظُمُهُ أُخْرَى
أَأَخْتُ الدُّمَى قَلْبًا خَلَا وَنَعُومَةً
وَأَخْتُ الظُّبَا طَرْفًا كَقَلْبِي أَوْ نَحْرَا
أَتَدْرِينَ فَوْقَ الْحَبِّ مَنْزِلَةً لَكُمْ
تَقَرَّبُنِي فَالْحَبُّ جَرٌّ لِي الْهَجْرَا
فَعِنْدَ هَبُوبِي أَنْتِ أَوَّلُ خَاطِرٍ
وَأَخْرَهُ وَاللَّهِ أَنْتِ إِذَا أَكْرَى
أَمْرٌ عَلَى الصَّخْرِ الْأَصَمِّ تَعَلَّةٌ
فَأَلْثَمَهُ إِذْ قَلْبُهَا يُشْبِهُ الصَّخْرَا
وَمَا كُنْتُ مِمَّنْ يَعْجَمُ الْحَبُّ عُودَهُ
وَلَكِنَّمَا يَصْبُو الْحَلِيمُ لَهَا قَسْرَا
«وَمَا أَنَا مِمَّنْ تَأْسِرُ الْخَمْرُ لَبَهُ»
وَلَكِنْ سَقَتْنِي فِي نَوَاطِرِهَا حَمْرَا

فُتَوِّرُ كَشْعَرَ الصَّبِّ بِالْهَجَرِ رَقَّةً
 إِذَا هَامَ وَجَدًا أَوْ شَعُورَ الشَّجَى الْمَغْرَى
 فَلَوْ كَانَ لِي شَيْءٌ مِنَ الشَّعْرِ بَيْنَ مَنْ
 هُمْ أَوْلِيَاءَ الشَّعْرِ عَرَفَتْهَا الشُّعْرَا
 أَجِزْنِي أَمِيرَ الشَّعْرِ بِالشَّعْرِ إِنِّي
 أَرَانِي لَمْ أَسْلُكْ بِهِ مَسْلَكَ وَغَرَا
 رَدَدْتُ عَلَيْهِ حُسْنَهُ بَعْدَ مَا زَوَى
 قَرُونًا فَأُضْحَى غَصْنُهُ بِكَ مَخْضَرًا
 أَعَدْتُ لَنَا عَصْرَ النَّوَاسِيِّ وَمُسْلِمٍ
 فَبُورَكْتَ يَا عَصْرَ الْقَرِيضِ بِهِ عَصْرَا
 فَمَنْ مَبْلُغُ شَيْخِ الْمَعْرَِّةِ شَيْخَنَا
 وَأَحْمَدُ وَالطَّائِيَّ الْأَلَى نَظَمُوا الدَّرَا
 وَشَيْخُ الْقَرِيضِ الْبَحْتَرِيُّ مَعَ الرُّضَى
 وَمُهَيَّارٌ مَنْ كَانُوا الْأَعْصَرَهُمْ فَخْرَا
 بَأَنَا رَأَيْنَاهُمْ جَمِيعًا بِشَخْصِهِ
 فَقَرُّوا عَيُونًا فَالْقَرِيضُ لَقَدْ قَرَا



إِلَيْكَ أَمِيرَ السِّيفِ وَالْقَلَمِ انْتَهَتْ
 رِئَاسَةُ كُلِّ فَاعْمَلَنَّ لَذَا شُكْرَا
 بِأَكْنَافِكَ الْعُلْيَا تَلُوذُ صِيَانَةً
 لَقَدْ كُنْتَ وَالرَّحْمَنُ فِي صَوْنِهَا أُخْرَى

لَكَ اللَّهُ مِنْ شَهْمٍ قَدْ اجْتَمَعَتْ بِهِ
كَرَامُ خِصَالٍ قَدْ تَجَاوَزَتْ الْحَضْرَا
«عَفَافٌ وَإِقْدَامٌ وَحَزْمٌ» وَمُنْعَةٌ
وَمَجْدٌ تَسَامَى رَدَّ عَيْنَ الْعُلَا حَسْرَى
إِلَى ظِلِّكَ الْعَالِي زَفَفَتْ خَرِيدَةٌ
إِجَازَةٌ شَعِرٍ مِنْكُمْ أَبْتَغِي مَهْرًا

حادثة سياسية استحالت فكاهة أدبية

وفي أيام السلطان عبد الحميد وشى واش بالأساذ العلامة محمد أفندي كرد علي في دمشق فأرسل الوالي ناظم باشا فكبس منزله وعثر على بعض أوراق يُعدّ حفظها يومئذٍ من الجرائم ، فجاء من أخبرني بالقصة ، وأن الكرد علي فرّ وتوارى في الغوطة فذهبت في الحال إلى ناظم باشا وأبدت وأعدت حتى غص النظر عن هذه المسألة وأبلغت الأستاذ أن يعود آمناً؛ فعاد إلى داره . وبعدها جاء هو والأستاذ الكبير الشيخ طاهر الجزائري ليشكراني على ما قمت به من تفريج هذه الأزمة عن الكرد علي ، فصرت أداعبه ببعض أبيات ارتجالية في الموضوع ، فطرب لها الشيخ طاهر واقترح إكمالها قصيدة فأكملتها ثاني يوم ، وانتشرت في كل نادٍ وهي في كتاب خطط الشام تأليف الأستاذ الكرد علي :

[من الطويل]

أَلَا قُلْ لِمَن فِي الدُّجَى لَمْ يَنَمْ
طِلَابُ الْمَعَالِي سَمِيرُ الْأَلَمْ
وَمَنْ أَرْقَتْهُ دَوَاعِي الْهَوَى
فَدُونَ الَّذِي أَرْقَتْهُ الْحِكَمْ
فَكَمْ فِي الزَّوَايا تَخْبَى فَتَى
طَرِيدَ الْكِتَابِ شَرِيدَ الْقَلَمِ

يُري الأرض ضيقاً كَشِقِّ الْيَرَاعِ
ويَهْوِي على ذا الوجودِ الْعَدَمِ
وكم ذا بجسرين^(١) من ليلةٍ
على مثل جَمْرِ الْعُضَا في الضرمِ
تمنَّى الأديبُ بها نُدْحَةً
ولو بات يرعى هناك الغنمِ
وكم سَرُوءٍ تحت جَنَحِ الظَّلامِ
كَسِرَّ بِصَدْرِ الأديبِ انْكَتَمِ
يخافُ بها حركاتِ الغصونِ
ويخشى التَّسِيمَ إذا ما نَسَمِ
وإن تَشَدُّ وَرَقَاءُ في أَيْكَةٍ
تُورِّقُهُ في صوتِها والنَّعَمِ
وكم بات للنجمِ يرعى إذا
أديمُ السَّما بالنجومِ اتَّسَمِ
وطال به الليلُ حتى غداً
يظنَّ عمودَ الصَّباحِ انْحَطَمِ
ومن دُغْرِهِ خال أنَّ النُّجومَ
لتَهْدِي إلى مِسْكِهِ عَنْ أَمَمِ
إذا ما السَّمَاكُ بَدَا رَامِحاً
توهمه نَحْوُهُ قَدْ هَجَمِ

(١) قرية في الغوطة للكرد علي بها ملك .

ولولا الدُّجَى لم يتمَّ النَّجَا
وقَدْ أَمَكْنَ الظُّلُمَ لولا الظُّلُمَ
ولِلَّهِ دُرُّ الْقَرَى إِذْ خِفْتَهُ^(١)
فما بالسُّهُولةِ يَخْفَى الْعَلَمُ
فَجِسْرَيْنِ زَبْدَيْنِ والأشْعَرِي^(٢)
ديارٌ بها قد أَوَى واغْتَصَمَ
وَنَحْوَ الْمَلِيحَةِ^(٣) رَامَ الْخَفَا
وَكَمْ بِالْمَلِيحَةِ مِنْ مُتَّهَمٍ
ديارٌ أبى أهلُها عَدْرُهُ
وأواه مِنْهَا الْوَفَا وَالكَرَمُ
ولا شَكَّ رَفُّوا لِأَحْوَالِهِ
طَرِيداً يُعَانِي الْجَوَى وَالسَّقَمُ
ليالي كانون في الأربعينَ
وبَرْدُ الْعَشِيَّاتِ أَغْلَى الْفَحْمِ
بأَرْضٍ تُرَاهَا سَمَاءٌ وَمَاءٌ
فَفَوْقَ السَّوَاكِي وَتَحْتَ الدِّيَمِ
يجولُ وقد صارَ مِثْلَ الْخِيَالِ
وَدَقُّ فُلُولَاحٍ لَمْ يَفْتَحِمِ

(١) خفاه مثل أخفاه .

(٢) أسماء قرى .

(٣) قرية أيضاً كان منها عبد الوهاب الإنكليزي رحمه الله وكان متهماً بمناوأة الحكومة .

وَفَوْقَ الْخُدُودِ كَلَوْنَ الْبَهَارِ
 وَتَحْتَ الْمَاقِي كَلَوْنَ الْعَنَمِ
 وَفِي كُلِّ يَوْمٍ سَوَالٌ وَبَحْثٌ
 وَأَنْى تَوَلَّى وَأَيْنَ انْهَزَمَ؟
 وَقَدْ كَانَ فِي كَبْسِهِمْ بَيْتُهُ
 بِجَلَلٍ قَالُ وَقِيلَ عَمَمٌ
 فَكَانَتْ عَلَى كُتُبِهِ غَارَةٌ
 كَغَارَاتِ عَرَبِ الصِّفَا^(١) بِالنَّعَمِ
 وَقَالُوا سِيُنْفَى إِلَى رُودَسَ
 وَقَالُوا سِيُجْزَى بِمَا قَدْ جَرَمَ
 وَقَالُوا سِيُحْمَلُهُ أَذْهَمٌ
 بِمَرْقَاهُ لَا تَسْتَرِيحُ الْقَدَمُ
 وَبَعْضٌ بِسِجْنٍ عَلَيْهِ قَضَى
 وَبَعْضٌ بِضَرْبٍ عَلَيْهِ حَكَمٌ
 وَكَرَدَ عَلَيَّ غَدَا عُبْرَةٌ
 فَغَاثَ وَمِنْهُ الرِّجَاءُ انْصَرَمَ
 فَيَا كُرْدُ لَا تَحْزَنْتَكَ الْخُطُوبُ
 فَإِنَّ الْهُمُومَ بِقَدْرِ الْهِمَمِ
 وَمَنْ رَامَ أَنْ يَتَعَاطَى الْبَيَا
 نَ تَوَقَّعْ أَنْ يُبْتَلَى بِالنَّقَمِ

(١) عرب الصفا مشهورون بالنهب.

فَذِي حِرْفَةُ الْقَوْلِ حَرِيفَةٌ
وَكَمْ أَدْرَكَتْ مِنْ لَبِيبٍ وَكَمْ
وَكَمْ كَتَبَتْ أَغْقَبَتْ نَكْبَةً
وَكَمْ مِنْ كَلَامٍ لِقَلْبٍ كَلَمٌ
وَمَنْ بِالْكِتَابَةِ أَبْدَى هَوًى
فِيَّ الْكِتَابَةِ مِنْهُ الْقَسَمُ
فِيَا كَرْدُ صَبْرًا عَلَى مِحْنَةٍ
فَكَمْ مِحْنَةٍ شَيَّبَتْ مِنْ لَمَمٍ
وَصَبْرًا عَلَى وَرَقَاتٍ لَهَا
عُيُونُ الْمَعَانِي يَبْكِينَ دَمٌ
وَوَاهَا لِبَاقَاتِ زَهْرِ غَدَوْتِ
لَهَا جَامِعَا يَا أَخِي مِنْ قَدَمٍ
أَزَاهِرُ تَسْهَرُ فِي جَمْعِهَا
فَلَا غَرُّوْا أَنْ فَاحَ عُرْفُ فَنَمٍ
وَمَا نَمَّ إِلَّا بِنَشْرِ ذِكْيٍ
وَطَيْبٍ يَفُوقَ عَرَارَ الْأَكَمِ
فَقُولُوا الْوَاشِ بِكُردِ عَلِيٍّ
نَشَرْتَ الثَّنَا حِينَ حَاوَلْتَ ذَمَّ
فَمَا كَانَ كَرْدٌ سِوَى صَادِقٍ
لِدَوْلَتِهِ طَالَمَا قَدْ خَدَمَ
وَمَا وَجَدُوا عِنْدَهُ رِيْبَةً
تُعَدُّ وَلَوْ فِي صِعَارِ اللَّمَمِ

فَهَلْ يُطْفِئُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ
 مِنَ النُّورِ مَا قَدْ رَأَى الْأُمَمُ
 وَمَا دَامَ نَاطِمٌ فِي شَامِنَا
 فَمَا نُسْتَضَامُ وَلَا نُهْتَضَمُ
 وَلَوْلَا الْعِنايةُ مِنْ نَاطِمِ
 لَمَا كَانَ شَمْلٌ لَنَا مُنْتَظَمُ
 وَقَانَا دَسَائِسَ أَهْلِ النَّفَا
 قِ وَرَدَّ الْوَشَاةِ وَجَلِي الْغِمَمِ
 وَقَدْ أَضَحَتِ السَّامُ فِي عَهْدِهِ
 يَصُوبُ عَلَيْهَا . . عَهْدُ النَّعَمِ
 وَبَاتَتْ مِنَ الزُّورِ فِي مَأْمَنِ
 وَحَقُّ الْأَمَانِ بِبَابِ الْحَرَمِ

وأطلعني في مرسين صديقي المجاهد الأكبر السيد أحمد الشريف
 السنوسي على قصيدة همزية قيلت في عمه السيد محمد المهدي
 رضي الله عنهما فعارضتها قائلاً من البحر والقافية :
 [من الخفيف]

هَلْ تَرَى يَنْتَهِي عَلَيْهِ الثَّنَاءُ
 سَيِّدُ يَنْتَهِي إِلَيْهِ السَّنَاءُ
 وَتُؤَدِّي لَهُ الْبَلَاغَةُ حَقًّا
 وَيُوقِّي أَخْبَارَهُ الْإِنْشَاءُ
 وَيُجَلِّي الْقَرِيضُ صُورَةَ مَعْنَا
 هُوَ وَلَوْ بِالشَّعَرَى أَتَى الشَّعْرَاءُ

قد كفانا من وصفه أنه الـ
 مهديّ مذ قد تجلّت الأسماء
 نجل قطب قد كان في الـ
 شرق والغرب سراجاً بنوره يُستضاء
 هو بحر الشريعة ابن السنوسي
 الذي عنه سارت الأنباء
 لم يدع في العلوم علماً ولم يق
 تله والعلم قتلُه إحياء
 جمع العلم والولاية فائتم
 به العالمون والأولياء
 استفاض لديه نوراً على نو
 ر وكل على الوري لألاء
 فيه لاقي العلم اللدني علماً
 سهر الليل أصله والعناء
 لا يرى العلم في سوى العمل الصا
 لح فالعلم آله ووعاء
 فلهذا ترى الطريق السنوس
 ي على الفعل قام منه البناء
 بات فعلاً هدى مريد السنوس
 ي وأن ليس بالكلام اكتفاء
 كلهم عامل لذلك فيهم
 تتبارى العقول والأعضاء

كَمْ تَوَلَّى بِالْكَفِّ سِكَّةَ حَرْثٍ
 حَبْرُ عِلْمٍ حَقَّتْ بِهِ الْقُرَاءُ
 حَقَّقُوا سِنَّةَ الْمَعْلَمِ لِلْخَيْرِ
 الرِّسُولِ الَّذِي بِهِ الْاِفْتِدَاءُ
 بَثَّ مَا بَيْنَ مَطْلَعِ الشَّمْسِ وَالْمَغْرِبِ
 رُشْدًا ضَاءَتْ بِهِ الْأَرْجَاءُ
 وَزَوَايَا فِي كُلِّ غَوْرٍ وَنَجْدٍ
 لَيْسَ يَسْتَطِيعُ حَضْرَهَا الْإِحْصَاءُ
 وَبَدَأَ بِالْبِنَاءِ فِي الْجَبَلِ الْأَخْضَرِ
 حَيْثُ الْبُنْيَةُ الْبَيْضَاءُ^(١)
 فِي ذُرَى السَّيِّدِ الْجَلِيلِ الصَّحَابِيِّ
 سَيِّدِي رَافِعٌ عَلَيْهِ الرِّضَاءُ
 حَيْثُ قَدْ لَاحَ ذَلِكَ السَّيِّدُ الْمَهْمُ
 مَدِيٌّ بِذُرَا ضَاءَتْ بِهِ الظُّلُمَاءُ
 أَيُّ فَرْعٍ لِأَيِّ أَصْلٍ لَعَمْرِي
 قَدْ تَحَاكَى الْأَبَاءُ وَالْأَبْنَاءُ
 لَا بَلَّ الْاِبْنُ جَاءَ أَوْفَى عُلُوءًا
 وَلَئِنْ فَاقَ مَنْ أَبِيهِ الْعَلَاءُ
 الْهُمَامُ الْمَهْدِيُّ وَالسَّيِّدُ الصَّا
 دُعُ بِالْحَقِّ وَالسَّحَابُ الرِّوَاءُ

(١) زاوية البراعة المسماة بالبيضاء وفيها ولد السيد المهدي وبقرها مقام سيدي رويغ الأنصاري .

أَزْهَرُ الْوَجْهِ نَاصِعُ الْلَوْنِ لَمْ تُنْـ
 حَبِّ بِأَبْهَى مِنْ شَخْصِهِ الزَّهْرَاءُ
 أَكْهَلُ الطَّرْفِ مُسْتَدِيرُ الْمُحْيَا
 لَاحَ فِيهِ الْهُدَى وَجَالَ الْحَيَاءُ
 أَبْيَضُ الْخَدِّ وَالْتِنَاءُ وَفِي أَيِّ
 مَنْ خَدَّيْهِ شَامَةٌ سَمُرَاءُ
 أَرْوَعِي صَلَّتِ الْجَبِينِ إِذَا قَابَلَ
 تَهُ قُلْتُ كَوَكَبٌ وَضَاءُ
 رُبْعَةٌ قَدُهُ قَوِيٌّ عَرِيضُ
 مِنْكَبَاهُ وَأَذْرَعُ فَتْلَاءُ
 وَاسِعُ الثَّغْرِ بِاسِمٍ عَنْهُ دَرًا
 وَالثَّنَايَا فِي ثَغْرِهِ فَلَجَاءُ
 شَتْنُ كَفٍّ لَكِنْ أَيْدِيهِ الشَّثْ
 نَةُ بِالْجُودِ سَبْطَةٌ سَمَحَاءُ
 هَاشِمِيٌّ أَشْمُ أَنْفٍ كَذَا مَعَ
 شَمِّمِ الْأَنْفِ هِمَّةٌ شَمَاءُ
 يَتَجَلَّى كَمَالُهُ فِي عَيُونِ
 زَيْنَتِهَا حَوَاجِبُ وَطْفَاءُ
 يَمْلَأُ الْعَيْنَ هَيْبَةً وَجَلَالًا
 وَهُوَ مَعَ ذَاكَ لَحْظُهُ إِغْضَاءُ
 مَنْ رَأَاهُ يَقُولُ هَذَا هُوَ الْمَهْـ
 لِدِي حَقًّا وَلِلْهُدَى سِيَمَاءُ

أشبه النَّاسَ بالنَّبِيِّ وَمَنْ يُشْـ
 بهُ أَبَاهُ فَلَيْسَ مِنْهُ اعْتِدَاءُ
 نَشَرَ الدِّينَ فِي بِلَادِ السَّوَا
 دَيْنَ جَمِيعاً فَعَمَّهَا الْاهْتِدَاءُ
 وبِأَسْيَافِهِ طَرَأُلسَ الْعَرْبِ
 أَجِيرْتُ وَبَرْقَةُ الْحَمْرَاءِ
 سَوْفَ يَدْرِي الطُّلَيَانُ أَنَّ فِي السَّوِيـ
 دَاءِ رَجَالاً حُرُوبُهُمْ سَوْدَاءُ
 فِي مَجَالِ الطَّعَانِ أُسْدٌ مُحَارِبِ
 بُ وَلَكِنْ عِنْدَ الْمَحَارِبِ شَاءُ
 يَنْصُرُونَ الْإِسْلَامَ بِالسَّيْفِ وَالْمَضِـ
 حَفِ فَالْقَوَّتَانِ فِيهِمْ سَوَاءُ
 يَعْمُرُونَ الْأَرْضَ الَّتِي أَوْثَرَ اللَّهُ عِبـ
 َاداً لَهُ هُمْ الصُّلَحَاءُ
 لَمْ يَحْلَوْا قَفْراً مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا أَهـ
 تَزَمَّنْ مِنْهُ حَدِيقَةٌ غَنَاءُ
 فَاسْأَلِ الْقُرُوءَ وَالْجَغَابِيَّ وَالْكَفْـ
 رَةَ^(١) يَنْطِقُ عُمُرَانُهَا وَالنَّمَاءُ
 وَاسْأَلِ الْوَاخَ كُلَّهَا كَيْفَ عَاشَتْ
 بِالسَّنُوسِيِّ تَلَكُمُ الصَّحْرَاءُ

(١) القرو: واحة في الصحراء ومثلها الكفرة ومثلها الجغبوب وقد عمرها كلها السادة السنوسية .

ليس يَخْشَى الْاَفْرَنْجَ مِثْلُ السَّنُوسِ
 يِّ وَمَا هُمْ فِي خَوْفِهِمْ أَغْبِيَاءُ
 عَرَفُوا قَدْرَهُ وَبُعْدَ مَرَامِيهِ
 فَأَشْهَادُ فَضْلِهِ الْأَعْدَاءُ
 كَمْ غَدَتْ مِنْ سَطَاهُ تَرْجَفُ رُغْبًا
 دَوْلَةٌ مَلَأَتْ أَنْفَهَا الْكِبْرِيَاءُ
 رَدَّ إِزْرُ الْإِسْلَامِ صُلْبًا سَوِيًّا
 بَعْدَ أَنْ كَانَ شَفَّهُ الْاِنْحِنَاءُ
 وَأَعَادَ الْإِسْلَامَ غَضًّا كَمَا كَانَ عَدُوًّا
 لِيهِ الْأَسْلَافُ وَالْقُدَمَاءُ
 لَمْ يَقُمْ مِثْلُهُ لِإِرْشَادِ خَلْقٍ
 ذَلِكَ الْحَقُّ لَيْسَ فِيهِ مِرَاءُ

مدحتي لسمو الخديوي توفيق باشا

أول مرة خرجت فيها من سورية كانت رحلتي إلى مصر؛ وكنت
 في الواحدة والعشرين من العمر، وأقيمت بالقاهرة أكثر من شهرين
 وأنا ملازم أستاذنا الإمام الشيخ محمد عبده وتلك الحلقة التي كانت
 تجتمع بالقرب من قصر عابدين في بيت المرحوم سعد أفندي
 زغلول الذي صار فيما بعد زعيم مصر، ثم برحت مصر قاصداً
 الآستانة ومررت على الاسكندرية وذهبت إلى سراي رأس التين
 حيث أكرمني الجناب الخديوي يومئذ محمد توفيق باشا بمقابلته،
 وكنت هيأت قصيدة لسموه لكنني لم أقرأها بحضرته بل سلمتها عند
 خروجي منها لرجال المعية السنية، ففي اليوم التالي نشرتها المعية

في جريدة الوقائع المصرية، وكان محرر الوقائع المرحوم الشيخ
عبد الكريم سلمان فكتب فوقها تقريراً جميلاً. وليست جريدة
الوقائع الآن تحت يدي لأنقل القصيدة برمتها وإنما أتذكر منها
الآيات التالية :

[من الطويل]

أَقُولُ لِتُطْقِي الْيَوْمَ إِنْ كُنْتَ مُسْعِدِي
إِذَا أَرَقَّ أَسْبَابُ السَّمَاءِ بِمُصْعِدِ
وَأَنْظِمُ مِنَ الْقَوْلِ الْنَفِيسِ فَرَائِدًا
تَنْزِلُ شِعْرَى الْأَفْقِ فِي شِعْرِ مُنْشِدِ
إِذَا أَنَا لَمْ أُؤَفِّ الْمَكَارِمَ حَقَّهَا
مِنَ الشُّكْرِ فِي سِلْكِ الْقَرِيضِ الْمَنْصُدِ
فَلَا شَعَفْتُ لِي بِالْمَكَارِمِ مَهْجَةً
وَلَا عَزَّ أَبَائِي وَلَا طَابَ مَحْتِدِي
وَلَا بَلَغْتُ بِي رَتْبَةً مِنْ مَكَانَةٍ
أَنَالُ بِهَا لُقْيَا الْعَزِيزِ مُحَمَّدِ
وَأَذْكُرُ عَلَيْهِ وَذُكْرَ مُحَمَّدِ
أَلَذَّ كَلَامٍ قِيلَ بَعْدَ التَّشْهُدِ
عَزِيزٌ حَمَدَتِ الدَّهْرَ عِنْدَ لِقَائِهِ
وَمَنْ لَقِيَ التَّوْفِيقَ لِلْسَّيْرِ يُحْمَدِ
وَلَا غَرَوُ أَنْ حُنْتُ لِتَقْبِيلِ كَفِّهِ
عَلَى الْبُعْدِ نَفْسٌ تَلْمَسُ النَّجْمَ بِالْيَدِ
وَشَاقَتْ لَهُ رَبَّ الرِّقَائِقِ طَلْعَةً
لِعَمْرِكَ تَذَكِّي الشَّوْقُ فِي قَلْبِ جَلْمِدِ

ومنها :

قدونكها يا غرّة الملكِ غادةً
تميسُ كغصنِ البانةِ المُتَأَوِّدِ
وإني إذا أهدى العزيز مدائحي
أبوء بصدقِ القولِ غير مُفَنِّدِ
ومَنْ رَامَ مِنْ إدراكِ كُنْهكَ غايةً
يجدُ غايةً ما تُدْنُ لِلْوَصْلِ تَبْعِدِ
وإلاّ فما حاولت إدراكِ غايةٍ
بشعري ولا نظمِ القصائدِ مقصدي

ولي من عبث الشباب تقليداً للشعراء :

[من الطويل]

أرى في غزالِ الدوّ منه شمائلًا
فأهفُو إليه كلما مرَّ سَانِحُهُ
وتخطرُ قضبانُ العذيبِ فتتنثني
معاطِفُهُ في خَاطِري وجَوَانِحُهُ
أكادُ لمرأى كلِّ غُصْنٍ أراكيةً
أعَانِقُهُ مِنْ أَجْلِهِ وَأَصَافِحُهُ
وأعشَقُ نورَ البدرِ ليلةَ تَمِّهِ
لأنّ قد بَدَتْ مِنْهُ عَلَيْهِ مَلامِحُهُ
يقولُ عَذُولِي شَفَّ مِسْكُتُكَ الْهَوَى
فأنتَ لِعَمْرِي ذَاهِبُ الْفِكْرِ سَائِحُهُ
فقلتُ جميعُ الرشدِ في سُبُلِ حَبِّهِ
إذا لاح لي من ذلك الْوَجْهَ لَائِحُهُ

وقالوا أضعتَ العُمَرَ في حبٍّ أغيدٍ
 وَمَنْ عَلِقَ العُزْلَانِ ضَاعَتْ مَصَالِحُهُ
 فقلتُ لهم يا حبّذا ما أضعُتُهُ
 بمن حُبُّهُ كنزٌ تنوءُ مفاتيحُهُ
 فِدَى كُلِّ ظَنِي بينَ سَلْعٍ وحاجرٍ
 لِمُهِجَةِ ظَنِي في الفؤادِ مَسَارِحُهُ
 وَمَهْمَا يَعَذُّبُنِي فعَذْبٌ مَذَاقُهُ
 وَمَهْمَا يُوَرِّقُنِي فَإِنِّي مُسَامِحُهُ
 وما أَسْعَدَ الليلَ الذي أنا سَاهِرٌ
 وما أَقْدَسَ الدَّمْعَ الذي أنا سَافِحُهُ
 وقالوا قَطَعْتَ الأربعينَ فما الهوى
 وَقَدْ صَاحَ في فُودَيْكَ للشَّيْبِ صَائِحُهُ
 ولم يَعْلَمُوا أَنَّ المَهَارَ وَإِنْ زَكَتْ
 لتعجزُ عما طال في الجَرْيِ قَارِحُهُ
 بَلَى أَنَا سُلْطَانُ الغَرَامِ وهذه
 صَحَائِفُهُ في راحتي وَصَفَائِحُهُ
 إِذَا فِي كِتَابِ الحَبِّ طَالَعٌ مغرمٍ
 فقلبي مملِيهِ وَدَمْعِي شَارِحُهُ
 أَنَا الصَّبُّ متبولاً بِذِكْرِ حبيبِهِ
 وشرطُ المعنَى أَنْ تغيبَ جَوَارِحُهُ
 خَلِيَّ إِذَا رَامَ الصَّلَاةَ تَدَاخَلَتْ
 تحيَّاتُهُ مَعَ ذِكْرِهِ وَفَوَاتِحُهُ

وامتدحني بعض الشعراء المفلقين في جريدة الفتح فأجبتهم
بالآيات الآتية :

[من الطويل]

يقرّظني قومي بأني مدحتهم
كما يمدح الروض الذكي على النفع
ولو أنهم قد أنصفوني لما رأوا
بمعرفتي لحق عارفه المنع
إذا رأوا آثارهم شاهداً لهم
يكاد لديها الطير يهتف بالصّح
شهدت بما شاهدت ما من علاقة
ولا صلة تُوهي الشهادة بالجرح
ولكن من شأن الفصاحة أنها
إذا بهرت تعطو إلى خلق سمح
سيوف نضاها الله إذ حُمس الوغى
ونادى منادي الدين للرمي والنضج
تواصل في جيش الضلال قراؤها
فما برحت تشفي الصدور من البرح
تلاً في قطع من الليل مظلم
سناها فكان الليل أضوا من الصبح
فلا تأخذنكم في الغواة هواده
وفلوا جموع الشر بالضرب والطرح
لقد خوضوا في الدين والعرض جهرة
ولجؤا فعاد القرخ ينكأ بالقرح

فليس بغيرِ الكَسْرِ حَسْمٌ لدائِهِم
 وغيرِ العَصَا، والجوزُ يؤكلُ بالشَّقْحِ
 وكلّ ذنوبِ العالمين مصيرُها
 إلى العَفْوِ إلا الشُّرْكُ ممتنعُ الصَّفْحِ
 سينصُرُكم مَنْ تنصرونَ كتابَهُ
 ويؤتيكم الفتحَ القريبُ مِنَ الفتحِ
 ولي هذه الأبيات السينية المنشورة في جريدة الفتح عددها ٢٥٨
 وقد قدمت عليها هذه الجملة :

إلى الشاعر المفلق النجمي زاده الله إبداعاً .
 قرأتُ أيها الأخ أبياتك السينية فهاجت بي خواطر الشعر برغم
 كل هذه الشوادي وهذه العوادي، فأخذت القلم وسالت القريحة
 بالأبيات الآتية والله يشهد أنها وليدة بضع دقائق، إلا أنني لا أخالني
 إذا أطرقت ونمقت آتي بأحسن منها فخذها على علّاتها : [من البسيط]

ما أدهشتنا من النجمي قافية
 كأنها الغادة الحسناء في العرُسِ
 لها سوابقٌ قد جاءتْ مسلسلةً
 على أطرادِ كعوبِ الذُّبَلِ الدُّعسِ
 قلُ في حبيبٍ وبشّارٍ ورهطِهما
 والبحتريّ ولا تضننّ به وقسِ
 هيهات أفرقُ إعجابي بأيهما
 من تَلُكُمُ النَّفْسِ أم من ذلك النَّفْسِ

شِعْرُ به تسكُرُ الألبابُ سائحةً
 كما تسافر بنت أَلحانِ الجُلُوسِ
 لا يعرفُ السَّامِعُ الولهَانُ نشوْتَه
 من سَبَكِه الجَزَلِ أم من نسجِه السَّلسِ
 رَوِيَه العَذْبُ في تحكيمِ موقعِه
 مِنْ أولِ الشَّطْرِ يدْرِ غيرِ ملتبسِ
 لا يحرمُ اللّهُ حزبَ الحقِّ طائفةً
 إِنْ تَنَصَّلْتُ في مجالِ الكرِّ تَفْتَرِسِ
 قد آن للظلم أن ينجابَ عَنْ فرجِ
 لم يبرحِ الفجرُ مشتقاً مِنَ الغَلَسِ

تاريخ مولود عزيز

وكنْتُ في أوائل سنة ١٩٢٠ ميلادية في جبل سان مورتز
 بسويسرة وكان هناك الشهم المفضلال عزيز عزت باشا من عيون
 أعيان المصريين وصهره الأمير محمد علي حسن من العائلة الملكية
 المصرية فولد للأمير مولود سماه (عزت حسن) فنظمت له التاريخ
 الآتي :

[من البسيط]

قُلْ للعزیزِ أَدَامَ اللّهُ بَهْجَتَه
 وباتَ يخدمُ سامي بابِه الزَمَنُ
 إهْنَأْ بِسِبْطِ به مَنَ الإلهِ ولا
 زَالَتْ تِلَازِمُكَ الآلَاءُ وَالْمَنَنُ
 وَلِيَهْنَأَنَّ الأميرُ الشَّهْمُ والدُه
 أَنْعَمَ بغصنِ نضيرِ جاءه غُصْنُ

لما تطايرت البُشرى بمولده
وقرّت العينُ مما تسمعُ الأذنُ
أهدى محبّك تاريخاً وقال به
بعزةٍ قد تجلّى وجهه الحسنُ
تاريخ لزفاف محمد بك ناجي نجل صديقنا المرحوم حنفي بك
ناجي من أعيان مصر :

[من الكامل]

يا أيّها الحنفيّ الذي لو أنني
كاتبتّه بسوادِ عينيّ ما كفى
هَيِّهَاتَ أقدرُ أن أوفي واجباً
لثَنَّاكَ يا سُلطانَ أربابِ الوفا
ما زلتُ أضربُ في البلادِ ولم يزلْ
بِحَشَاكَ قَلْبُ أَخٍ عليّ مُرْفِراً
أهديتَ لي البُشرى بعقدِ محمّد
تلك البشارةُ ما ألدّ وألطفَا
أسعدُ بها من ليلةٍ فيها جرى
ذاك الزّفافُ على سميّ المصطَفَى
يا أيّها الخِلُ الذي شوقي له
بعد البعادِ أجلّ من أن يُوصَفَا
يدعوك اليوم المؤرّخ شاعراً
لزفافِ نَجْلِكَ بالبنين وبالرّفا

جواب عالم في بوسنه

وكتبت إلى حضرة الفاضل شاكراً أفندي مسيحو قتش الهرسكي
من أعضاء مجلس العلماء بسراي بوسنة وذلك في جواب كتاب
منه : [من مجزوء الكامل]

لَمَّا حَلَلْتُ بِأَرْضِ بُوسْنَا
وَانَجَلَّتْ تِلْكَ الْمَنَائِرُ
أَيَقَنْتُ أَنِّي وَسْطَ رُبْعٍ
بَاتَ بِالْإِسْلَامِ عَامِرُ
وَلَقَيْتُ مِنَ الطَّافِكُمْ
مَا تَسْتَبِينُ بِهِ السَّرَائِرُ
مَا نَالَ مَا قَدْ نَلْتُهُ
مِنْكُمْ لِعَمْرِي أَيُّ زَائِرُ
فَأَنَا الْحَقِيقُ بِأَنْ أَتِي—
ه إِذَا أَرَدْتُ وَأَنْ أَفْـاخِرُ
قَدْ كُنْتُ طَوَّلَ إِقَامَتِي
ضَيْفًا تَحَفَّ بِهِ الْجُمَاهِرُ
أَلْقَى الْحَنُوءَ عَلَى الْوُجُوهِ
عَلَيَّ مِثْلَ الشَّمْسِ ظَاهِرُ
إِنْ الْوُجُوهُ مِنَ الرَّجَالِ
لَنِعْمَ عُنْوَانُ الضَّمَائِرُ
وَرَأَيْتُ وَجْهَكَ كَيْفَمَا
أَقْبَلْتُ يَنْظُرُ وَهُوَ سَافِرُ

والعطفُ إن حلَّ الفؤادَ
عَدْتُ تُؤَكِّدُهُ النَّوَاطِرُ
فأنا مُجِبُّكَ مَا حَيَّيْتُ
وَشَاكِرُ أَبَدًا لَشَاكِرُ

ذكرى شاعر الألمان الحكيم

ولما زرت في فرانكفورت بيت غوته شاعر ألمانيا الأكبر وقدموا
لي الدفتر المعتاد أن تكتب فيه أسماء الزائرين كتبت الأبيات الآتية
ارتجالاً مع تضمين البيت الأخير:

[من الكامل]

مُذْ قِيلَ هَذَا بَيْتُ (غوته) زَرْتَهُ
إِذْ كَانَ لِلشُّعْرَاءِ كَعْبَةً قَاصِدِ
هَذَا أَمِيرُ الشُّعْرِ عِنْدَ قَبِيلِهِ
مِنْهُ لِحِيدِ الدَّهْرِ عَقْدَ فَرَائِدِ
طَاطَأْتُ رَأْسَ قَرِيحَتِي فِي بَابِهِ
وَلَكُمْ رَأَتْ عَتَبَاتُهُ مِنْ سَاجِدِ
إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أُمَّتِي وَعَشِيرَتِي
فَالنَّاسُ فِي الْآدَابِ أُمَّةٌ وَاحِدِ
(أَوْ فَاتَنَا نَسَبٌ، يُوْلَفُ بَيْنَنَا
أَدَبٌ أَقْمَنَاهُ مَقَامَ الْوَالِدِ)

وبعد أن ذهبت من فرانكفورت استدعت البلدية الأستاذ المستشرق
هوروفيتس الذي كان يدرس العربية نفسها في كلية عليكر في الهند وله
ترجمة إلى الألمانية لديوان الكميت فيما أتذكر وغيره فترجم هذه

الآبيات ونشر الترجمة في جرائد ألمانيا ومهد لها بمقدمة جاء فيها بالإطراء الزائد وقال : هذا إكرام شاعر الشرق لشاعر الغرب :

زيارة قبر سيف الله ورسوله وقائد جيوش العرب والإسلام الأكبر

ولما زرت مقام سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه في مدينة حمص وذلك منذ ثلاثين سنة فأكثر كتبت على حائط المقام هذين البيتين :

[من الطويل]

مَغِيْبُكَ سَيْفَ اللَّهِ فِي غَمْدِكَ الثَّرَى
دَلِيلٌ بَأَنَّ اللَّهَ لَا شَكَّ وَاحِدُ
فَلَوْ أَنَّ فَذَا خَلَدَتْهُ فُتُوْحُهُ
لَمَا كَانَ فِي الْأَقْوَامِ إِلَّا كَخَالِدُ

ما أنشد في حفلات تكريم كبار الشعراء

منذ نحو من ثلاثين سنة قام بعض أدباء مصر بحفلة تكريمية لحافظ إبراهيم الشاعر المشهور، وكتب لي بعض الأخوان من مصر إلى سورية يقترحون علي إرسال بعض أبيات لتقرأ في الحفل، ومن جملة ما ذكروا لي من محاسن حافظ أنه يحب السوريين، وكان ذلك قبيل عيد الأضحى، فأرسلت أبياتاً ليست عندي نسختها الآن وإنما أنا أُملي منها ما أتذكره وهو :

[من الطويل]

وَرَهْطٍ دَعَوْنِي أَنْ أَجِيبَ نِدَاءَهُمْ
فَلَمَّا دَعَوْنِي لَمْ يَرُونِي بِقُعْدُدٍ^(١)

(١) الفعدد: الجبان .

إِخْوَانَنَا الدَّاعِينَ بِي لِأَجِيبَهُمْ
 إِلَيْكُمْ تَرَوْا مِنِّي اهْتِزَازَ الْمُهَنَّدِ
 حَلَفْتُ بِمَا بَيْنَ الْحَطِيمِ وَزَمْزَمَ
 وَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ الْمَشِيدِ
 وَبِالطَّائِفِينَ ^(١) الْعَاكِفِينَ بِهَذِهِ اللَّيْلِ
 أَلِي تَرَاهُمْ مِنْ رُكُوعٍ وَسُجُودٍ
 يَوْمُونَ مَثْوًى لِلْخَلِيلِ وَمَرْقَدًا
 تَلَأْلَأَ نُورًا بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
 مَشَاءً وَرُكْبَانًا عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ
 وَمَنْ فَوْقَ قُضْبَانِ الْحَدِيدِ الْمَمْدَدِ
 فَمَا فِي حَدِيثِ الْحَجِّ لَيْنٌ وَقَدْ غَدَا
 يَجِيءُ عَلَى شَرْطِ الْبَخَارِيِّ بِمَسْنَدِ
 لَعْمَرِي لَقَدْ أَحْيَيْتُ قَرِيحَةً «حَافِظُ»
 عَهودَ أَغَانٍ لِلْسُّرَيْجِ وَمَعْبِدِ ^(٢)
 يَقُولُونَ لِي شَيْدٌ عَنِ الشَّامِ ذِكْرُهُ
 أَلَمْ يَكْ وَلِيَّ الشَّامِ شَطْرَ التَّوَدَّدِ؟
 فَقُلْتُ لَهُمْ أَتُنِي عَلَيْهِ بِصَالِحِ
 عَنِ الْعُرْبِ طَرًّا ذَاكَ أَصْلِي وَمَحْتَدِي

(١) اختلف في جواز القسم بغير الله تعالى، ونقل بعضهم عن ابن عباس جوازه، وأنه استشهد على ذلك بقوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ أَنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [سورة الحجر، الآية: ٧٢].

(٢) ابن سريج ومعبد مغنيان مشهوران ترجمهما صاحب الأغاني.

وما عربيّ بَيْنَ الضَادِّ نُطْقُهُ
 بشاميّ لا مُضْريّ ولا متبغديّ
 ومنها خطاباً لحافظ :

وقبلي قد أَوْلَاكَ «سامي»^(١) شهادة
 ومثلي بمحمود السجّية يَفْتَدِي
 فأنت إمام النثر غير مُدَافِع
 وأنت أمير الشعر من بعد أحمد^(٢)



وأقيمت حفلةٌ لشاعر القطرين خليل بك المطران فأرسلت إلى
 الحفلة بالأبيات الآتية . وذلك سنة ١٩١٢ :
 [من الكامل]

لَكَ يَا خَلِيلُ مِنَ الْقُلُوبِ مَكَانٌ
 هو فوق ما بسمائه كِيَوَانُ
 لم يختلف أحدٌ عليك كأنما
 لك كلّ أرباب النُهي خِلَانُ
 كلّ الخواطر في وِلَائِكَ خَاطِرُ
 وجميعُ ألسن عارفيكَ لِسَانُ
 ويرى التَّكَلُّفَ فِي سِوَاكَ وَإِنَّمَا
 شَرُّعٌ عَلَيْكَ السَّرُّ وَالْإِعْلَانُ

(١) أي محمود باشا سامي البارودي الذي قرظ حافظاً في تلك الحفلة .
 (٢) من شاء يفهم أن حافظاً هو أمير الشعراء بعد المتنبي ، ومن شاء يفهم أنه ثانٍ
 لشوقي .

يكفيك ما بين العناصر أنك الـ
 وطني لا بُغض ولا شَنَانُ
 عجباً له جَمَعَ القلوبَ على الولا
 قَلَمٌ بكفك ساحرُ فتانُ
 وإذا تجرّد للنضال فإنه
 لأعزّ ما نُصِرْتُ به الأوطانُ
 هيهات يبلغُ شأوَ فتِكَ بالعدي
 مَنْ في يديه صارمٌ وسِنَانُ
 قد زيّن الأدبُ الذي أوتيتهُ
 جمّاً أن الأخلاقُ فيك حَسَانُ
 ووفاء طبعٍ ما تخلفَ عن أخٍ
 ورَمَانُنَا إخوانه خُوَّانُ
 تالّله في الأجياد منك قلائدُ
 غرّ وفي الآذان منك جُمانُ
 لو جئت في عصر القريض لما علّت
 يوماً بنابغة لها دُبيانُ
 ولئن عدّاك موازنوك فكم فتى
 مذ خف عنك علّاً به الميزان
 أو كانت الدنيا قسوسَ فصاحةٍ
 بحذا عكاظٍ فإنك المطرانُ

القصيدة التي بعثت بها من أمريكا إلى المهرجان الذي أقيم

لأحمد شوقي أمير الشعراء سنة ١٩٢٧ ميلادية وتلاها في المحفل
شاعر القطرين خليل المطران، وكان نظمي هذه القصيدة في البحر
قبل وصولي إلى نيويورك:

[من الكامل]

نادِ القريحة ما استطعت نداءها
إِنَّ الحقوقَ لَتَفْتَضِيكَ أَدَاءَهَا
مَهْمَا يَنْلُ مِنْهَا الْجَمُودُ فَإِنَّ مِنْ
إِعْجَازِ أَحْمَدَ مَا يَفْجُرُ مَاءَهَا
مهما تراكمتِ الغيومُ بأفقها
فاليومَ عندك ما يُعيدُ جَلَاءَهَا
لا تعتذرُ عنها بكرُّ نوائِبِ
سَدَّتْ عَلَيْهَا نَهْجَهَا وَسَوَاءَهَا
فَأَهْمُ مَا هَمَّتِ السَّحَابُ إِذَا مَرَّتْ
هَوُجُ الْعَوَاصِفِ دَرَّهَا وَسَخَاءَهَا
وَالْحَكُّ يَسْتُورِي الزِّنَادَ وَإِنَّمَا
تُرْبِي الصَّوَارِمُ بِالصِّقَالِ مَضَاءَهَا
وَالرَّمْحُ يَكْسِبُ بِالثَّقَافِ مِتَانَةً
وَالْخَيْلُ يُظْهِرُ عَدُوَّهَا خِيَلَاءَهَا
حَاشَا الْقَرَائِحَ أَنْ تَضْنَ بَوْدَقَهَا
مَا دَامَ شَوْقِي كَافِلًا أَنْوَاءَهَا
الشَّاعِرُ الْفَذُّ الَّذِي كَلِمَاتُهُ
ضَمِنَ النُّبُوغُ عَلَى الزَّمَانِ بَقَاءَهَا

أَنْسَتْ فَصَاحْتُهُ أَوَائِلَ وَائِلٍ
 وَغَدَتْ هَوَازِنُ مَعَ ثَقِيفَ فِدَاءِهَا
 فِي كُلِّ كَائِنَةٍ يَزْفُ قَصِيدَةً
 تُوتِي جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ بِهَاءِهَا
 غَدَتْ الْمَعَانِي كُلَّهَا مُلْكَالَهُ
 فَأَصَابَ مِنْهَا كُلُّ بَكْرٍ شَاءَهَا
 وَكَسَا اللِّسَانَ الْيَعْرَبِيَّ مَطَارِفًا
 هِيَهَاتَ يَنْتَظِرُ الزَّمَانُ فَنَاءَهَا
 سَتُخَلِّدُ الْأَوْطَانَ مِنْ تَكْرِيمِهِ
 ذِكْرِي تَطْبِقُ أَرْضَهَا وَسَمَاءَهَا
 لَوْ أَنْصَفْتُ لُغَةً الْأَعَارِبَ قَدْرَهُ
 صَلَّتْ عَلَيْهِ صَبَاحُهَا وَمَسَاءُهَا
 مِنْ كُلِّ مَوْضُوعٍ أَصَابَ شَوَاكِلًا^(١)
 بَلَّغْتُ بِمَقْتَلِهَا الصَّدُورُ شِفَاءَهَا
 يَبْكِي «شَكْسَبِير» عَلَى أَمْثَالِهَا
 وَيَبِيتُ «غُوتَهُ» حَاسِدًا عَلِيَاءَهَا
 وَلَوْ أَنَّ إِلَهَةَ الْفَصَاحَةِ عِنْدَهُمْ
 أَدْرَكْنَ شَوْقِي خَفَّفَتْ غُلُوءَهَا
 صَنَّاجَةُ الشَّرْقِ الَّذِي نَبْرَاتُهُ
 تَجْلُو الْمَشَارِقَ عِنْدَهَا غَمَّاءَهَا

(١) يقال أصاب شاكلة الرمية أي خاصرتها.

في كلِّ حرفٍ من حُرُوفٍ يَرَاعه
 وتَرُ يثير سُرورها وبُكَّاءها
 ما حلَّ بالإسلام بأُسِّ مِلَّةٍ
 إلَّا وَرَجَّعَ شِعْرُهُ أَصْدَاءَهَا
 يُبدي فظاعتها ويوسعُ هولها
 وصفاً ويذكر داءها ودواءها
 كانت قصائده لبعثِ بلاده
 صُوراً أراد من البلى إحياءها^(١)
 وأرى اللَّيالي لا تَعَزِزُ أُمَّةً
 إن لم يكن سُؤاسُها شِعْراءها
 كم أثبتَ التاريخُ في صَفَحَاتِهِ
 أمماً غداً إنشادها إنشائها
 ضلَّتْ لعمري في الحياةِ قبيلةٌ
 لم تَضْطَحِبْ أفعالها أسماءها
 والعُربُ لا تَبْدَأُ بِجُمُوعِهَا
 إلَّا سَمِعَتْ نَشِيدَهَا وَحِدَاءَهَا
 أَكْرِمَ بِأَحْمَدَ شاعراً وافى لنا
 في رُوحِ أَحْمَدَ^(٢) حاملاً سيماءها

(١) كررت هذا المعنى في رثائه رحمه الله :

بعثت به روح الحياة كأنها هي صور إسرافيل في زعقانه

(٢) أحمد بن الحسين المتنبّي .

أَتْلُو قِصَائِدَهُ فِتْمَلًا مُهْجَتِي
 فَرَحًا يُزِلُّ هَمَّوَمَهَا وَعَنَاءَهَا
 وَأَظِلُّ مَفْتِخِرًا بِهَا فَكَأَنَّ لِي
 دُونَ الْأَنَامِ ثَنَاءَهَا وَسَنَاءَهَا
 نَخَلْتُ لَهُ نَفْسِي مُودَّةً وَآمِقِ
 وَفَى عَهْدًا^(١) عَهْدَهَا إِنَّمَاءَهَا
 نَعَزُّو إِلَى لَحْمٍ مِتَانَةً أَصْلَهَا
 وَتَمَزُّ مِنْ مَاءِ السَّمَاءِ صَفَاءَهَا^(٢)
 لَا تَرْتَجِي مِنْهَا النَّمَائِمُ ثَلَمَةً
 كَلًّا وَلَا تَوْهِي الْهِنَاتُ بَنَاءَهَا
 نَاشَدْتُ شَعْرِي أَنْ يَفِي بِمُودَّتِي
 وَأَرَاهُ يَعِجْزُ أَنْ يَجِيءَ كَفَاءَهَا
 قَدْ صَارَ عَهْدِي بِالْقَرِيضِ كَأَنَّهُ
 دِمْنٌ تَقَاضَتْهَا الرِّيحُ عَفَاءَهَا
 أَدْعُو فَلَا يَأْتِي الَّذِي أَرْضَى بِهِ
 وَالشُّعْرُ أَنْ تَجِدَ النُّفُوسُ رِضَاءَهَا
 وَالشُّعْرُ مَا رَسَمَ الضَّمَائِرَ نَاشِلًا
 مِنْهَا الْكَنَائِنَ نَافِجًا أَحْنَاءَهَا

(١) العهد أول مطر الوسمي .

(٢) إشارة إلى القبيلة التي ننتمي إليها وهي لحم وآل ماء السماء ، ومزّ الماء :
 رشفه .

والشعر ما ترك المعاني مُثَلًّا
فتكاد تلمسُ بالأُكُفِّ هَبَاءَهَا
والشعر حيث يُقَالُ مَنْ ذَا قَالَهَا
ما الشعر حيث يُقَالُ مَنْ ذَا قَاءَهَا
وهناك نفسُ مرّةٍ ما تأتلي
تُملي عليّ مَنْ العُلَى أهواءها
إِنْ لَمْ تَجِدْنِي فِي الْعِجَاجَةِ أَوَّلًا
نَكِرْتُ عَلَيَّ ثَلَاثَهَا وَثَنَاءَهَا
وَفَرْتُ يَا شَوْقِي السِّبَاقَ عَلَى الْوَرَى
بِرِئَاسَةِ بَاتِ السِّبَاقِ وَرَاءَهَا
تَتَقَطَّعُ الْأَعْنَاقُ عَنْ غَايَاتِهَا
حَتَّى الْأَمَانِي لَا تَحُومُ حِذَاءَهَا
تَاللَّهِ أُعْطِيتَ الرِّئَاسَةَ حَقَّهَا
وَعَقَدْتَ حَبُوتَهَا ^(١) وَنَلْتَ حِبَاءَهَا
وَبَذَذْتَ أَهْلَ الْعَبَقَرِيَّةِ كُلَّهُمْ
وَبَزَزْتَ ^(٢) جَنَّةَ عَبَقَرِ أَشْيَاءَهَا
لَمَّا رَأَيْتُكَ قَدْ نَزَحْتَ قَلْبِهَا
أَلْقَيْتَ عَنِّي دَلْوَهَا وَرِشَاءَهَا
فَاسْعِدْ بَعْرَشِ إِمَارَةِ الشَّعْرِ الَّتِي
أَلَقْتُ إِلَيْكَ لَوَاءَهَا وَوَلَاءَهَا

(١) ما يحتبى به المرء من عمامة أو ثوب .

(٢) بذه بالذال غلبه ، وبزه بالزاي سلبه .

وتَهَنَّ وَابْقَ لَأُمَّةٍ عَرَبِيَّةٍ
لَا زِلْتَ قَرَّةَ عَيْنِهَا وَضِيَاءَهَا



وأقيمت حفلة عيد الخمسين سنة لأستاذنا اللغوي العلامة الشيخ
عبد الله البستاني^(١) طاب ذكره وذلك في بيروت فنظمت هذه
القصيدة وبعثت بها من برلين:

[من الطويل]

أَحَقُّ الْأَيَادِي أَنْ تُجَلَّ وَتُعْظَمَا
وَتُسَلِّكَ فِي الْأَعْنَاقِ سِمْطًا وَتَنْظُمَا
وَتَلْبَسُهَا الْأَيَّامُ حَلِيًّا وَكُسُوءَ
وَتَسْنِي لَهَا الْأَحْقَابُ عِيدًا وَمَوْسِمَا
أَيَّادِي الْأُلَى كَانُوا مَصَابِيحَ عَصَرِهِمْ
لِمَدَّرَعٍ لِيلاً مِنَ الْجَهْلِ مُظْلِمًا
وَمَنْ أَوْضَحُوا لِلْحَائِرِينَ مُحِجَّةً
فَسَارُوا بِهِمْ فِي الْعَيْشِ نَهْجًا مَفُومًا
لَعَمْرِي إِذَا الْأَعْلَامُ قَيْسَتْ جُهُودُهَا
وَكُلُّ أَتَى عَمَّا فَرَاهُ مَتَرَجِمَا

(١) كانت وفاة الأستاذ عبد الله البستاني شيخنا منذ بضع سنوات، وقبل وفاته
بيومين سأله الأديب الشيخ خليل تقي الدين بعض أسئلة منها قوله له: أي
تلاميذك أحب إليك؟ فأجابه: أحب تلاميذي إليّ الأمير شكيب أرسلان. ثم
ذكر أشياء لا حاجة إلى نقلها هنا وإنما نقل قوله: وهو لم ينس مع طول
الغربة وأرسل تلك القصيدة التي أرسلها بمناسبة عيد الخمسين سنة لخدمتي
اللغة العربية.

وَجَاءَ الْكَرَامُ الْكَاتِبُونَ فَقَيَّدُوا
 لِكُلِّ عَصَامِيٍّ حِسَاباً مَرْقُماً
 فَمَنْ مِثْلُ عَبْدِ اللَّهِ فِي الشَّرْقِ عَالِمٌ
 لَهُ مِثْلُ مَنْ رَبَّى وَرَقَى وَعَلِّمًا
 تَلَامِيذُهُ عَدُّ الْحَصَى وَتَرَاهُمْ
 بُدُوراً بِأَفَاقِ الْبِلَادِ وَأَنْجُمًا
 أَفَاضَ عَلَى الْأَرْجَاءِ عَيْلَمَ عِلْمِهِ
 فَعَجَّ وَمَنْ لِلْبَحْرِ كَفُوٌّ إِذَا طَمَى
 وَبَثَّ لِسَانَ الْعُرْبِ خَمْسِينَ حِجَّةً
 يَقُومُ مِنْآدَاً وَيُوضِّحُ مُبْهَمًا
 وَسَلَّ سَيُوفاً مِنْ قِرَابِ دِمَاغِهِ
 فَفَلَّ بِهَا لِلْحَنِ جَيْشاً عَرْمَماً
 وَمَنْ يَبْتَذِلُ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ نَفْسَهُ
 فَأَجْدَرُ بَأَنْ يَغْدُوَ عَزِيزاً مَكْرَماً
 رَقَى مِنْ ذُرَى التَّحْقِيقِ فِي النَّحْوِ ذُرَّةً
 يَقْصُرُ عَنْهَا مَنْ مَضَى وَتَقَدَّمَ
 فَلَوْ كَانَ لَأَقَى سَيَبُويَه وَرَهْطَهُ
 لِعَادَ لِعَمْرِي سَيَبُويَه ابْنَ أَعْجَمًا
 وَلَمْ يَكْ ذِيَاكَ الْكِتَابُ مَرْجَبًا
 وَرَائِحَةُ التَّفَاحِ لَمْ تَكْ مَعْنَمًا
 وَلَوْ كَانَ فِي الْعَصْرِ الْقَدِيمِ مَجِيئُهُ
 لَفَتَّ بَعِينَ الْجَا حِظِّ الْعَيْنِ حَضْرَمًا

وَأَصْبَحَ مَعَهُ الْفَارِسِيُّ وَابْنُ فَارِسٍ
 وَقَدْ بَرَّتَ تِلْكَ الْفَرَّاسَةَ مِنْهُمَا
 لِبَاتَتْ بِأَحْشَاءِ الْمُبَرِّدِ غَلَّةٌ
 وَكَادَ ابْنُ جَنِّي يُجِنُّ تَأْلَمَا
 وَصَارَ ابْنُ عَصْفُورٍ مَهِيضاً جَنَاحُهُ
 وَلَوْ كَانَ قَبْلَ الْيَوْمِ طَارَ إِلَى السَّمَاءِ
 وَلَوْ نَظَرُوهُ فِي الْفَرَائِدِ مَرَّةً
 رَأَوْا مِنْ غَلَاهُ مَا يَفُوقُ التَّوَهُُّمَا
 وَأَصْبَحَ مَعَهُ الْمَجْدُ قَدْ قَلَّ مَجْدُهُ
 وَآبَ صِحَاحُ الْجَوْهَرِيِّ مِثْلَمَا
 وَلَوْ كَانَ جَارُ اللَّهِ جَارَاهُ بَدَّهُ
 وَمَا افْتَخَرَتْ مِنْهُ زَمْخَشَرٌ بَانِتِمَا^(١)
 لَقَدْ سَعِدَتْ مِنْهُ الْعُرُوبَةُ بِالَّذِي
 تَوَلَّاهُ فِيهَا مُسْتَهَاماً مُتَيِّمًا
 وَثَارَتْ لَهُ فِي نَضْرِ أَمَةٍ يَعْرُبُ
 عَزَائِمُ شَوْقٍ خَالَطَ اللَّحْمَ وَالْدَّمَ
 قَضَى عَمْرَهُ سَيْفًا يَقْدَّ عِدَاتَهَا
 فَيَرْمِي بِهِمْ شَلُوءًا فَشَلُوءًا مَقْسَمًا
 يَبْلُجُ مِنْ أَنْوَارِهَا كُلَّ سَاطِعٍ
 وَقَدْ يَنْكُرُ الْأَنْوَارُ مَنْ رَزَقَ الْعَمَى

(١) أي وما افتخرت بلدة زمخشري بانتمائيه إليها، مصححه .

ويُكشِفُ عن أسرارها كلَّ غامضٍ
 عليه حِجابُ الجَهْلِ كان مُخَيِّمًا
 فما عنَّ في يومٍ شعوبيّ فرقةٍ
 لَمُنْقَصَةِ إِلَّا وَخَلَاهُ مَلَجَمًا
 وما لاحَ قِرْنُ القَرْنِ إِلَّا انْبَرَى لَهُ
 برمي الذي يَضْمِي لِعَمْرِي إِذَا رَمَى
 فلو شاءتِ الفُضْحَى وفاءَ جِهَادِهِ
 لنصَّتْ له فَوْقَ السَّمَاكِينِ مَجْثَمًا
 فَمَنْ لِّلْأُلَى مثلي ارتَوُوا من معينه
 بأنْ يَنْقَعُوا من ذِكْرِ معروفِ الظُّمَاءِ
 عَرَفْنَا له فَضْلًا عَلَيْنَا وَمِنَّةً
 ولم يَكُ ما نَرَعَاهُ عَهْدًا مُذَمَّمًا
 وما أَنَا إِلَّا من تلقَى بِضَاعَةً
 فنَمَّقَ منها جَهْدَ مُعْيٍ وَنَمْنَمًا
 وما الفَضْلُ إِلَّا لِلْقِسَامِي ^(١) عندما
 يَرَانِي الْوَرَى دَبَّجْتُ بُرْدًا مُسَهَّمًا
 وما هو إِلَّا بَعْضُ مَرْجُوعِ صَوْتِهِ
 وتقليدٍ ما قد كان جَادَ وَأَنْعَمًا
 حَنَائِيكَ أَسْتَاذَ الْأَسَاتِيدِ إِنَّا
 جميعاً نحْيُ فيكَ مَنْ شَرَّفَ الْحِمَى

(١) الذي يطوي الثياب الطيبة الأولى فتتكسر على طيه .

وَلَوْ أَنْصَفْتِكَ الْعُرْبُ لَمْ يَبْقَ مُعَرِّبٌ
 عَلَى سَطْحِهَا إِلَّا أَتَاكَ مَسْلَمًا
 وَلَوْ كَانَ لِبَنَانٍ يُوفِيكَ شُكْرَهُ
 لَأَوْشَكَ فِيهِ الصَّخْرُ أَنْ يَتَكَلَّمَ
 تَقَبَّلْ ثَنَاءً لَوْ غَدَا رَمْلٌ عَالِجٌ
 بكَثْرَتِهِ لَمْ نَوْفِ حَقًّا مُحْتَمًا
 وَقَابِلُ بَغْضِ الطَّرْفِ مَيَسُورٌ وَامِقٌ
 قُضَارَى مُنَاهُ أَنْ تَعِيشَ وَتَسْلَمَا

قصيدة حفلة عبد الحميد بك الرافعي

واحتفل أدباء الشام بعيد الخمسين سنة للشاعر الكبير المرحوم
 السيد عبد الحميد الرافعي في طرابلس الشام، فاقترحوا عليّ إرسال
 شيء وكنت في برلين وذلك سنة ١٩٢٩ ميلادية فبعثت إلى طرابلس
 بهذه الأبيات وتليت في الحفل ونشرت في جريدة الشورى: [من البسيط]

إِيَّاكَ فِي الشَّرْقِ أَنْ تَعْدُو طَرَابُلْسَا
 إِنْ كُنْتَ تَبْغِي كِرَامَ الْأَنْسِ وَالْأَنْسَا
 وَحَجَّ مِنْهَا لِقَصَادِ الْهُدَى حَرَمًا
 أَمْنًا وَجَاوِزَ الْأَرْبَابِ الْتُهَى قَدَسَا
 مَدِينَةُ جَادَهَا الْبَارِي بِرَحْمَتِهِ
 مِنْ الْخَصَائِصِ مَا عَنْ غَيْرِهَا حَبَسَا
 لَمْ يَكْفِهَا بَحْرُهَا الْعِجَاجُ بَلْ جَمَعَتْ
 مِنْ أَهْلِهَا أَبْحَرًا فِي شَطْطِهِ جُلْسَا

أَكَارُمُ بِهِمُ بَاتَتْ طَرَابُلُسُ
مِصْرًا يَقْصُرُ عَنْهَا كُلُّ مَا يَبْسَا
نَاهِيكَ بِالرَافِعِيِّينَ الَّذِينَ لَهُمُ
مِنَ الْمَآثِرِ مَا يَسْتَنْطِقُ الْخَرَسَا
الرَافِعِيْنَ مِنَ الْأَعْلَامِ أَرْفَعَهَا
وَالْخَافِضِينَ مِنَ الْأَعْدَاءِ مَا رَأَسَا
لَقَدْ رَعَوْا تَلْعَاتِ الْمَجْدِ أَجْمَعَهَا
وَجَدَّدُوا مِنْ دُرُوسِ الْعِلْمِ مَا دَرَسَا
وَأَثَرُوا مِنْ أَيَادِي الْفَضْلِ مَا قُرِبَتْ
ثِمَارُهُ وَمِنْ الْعُلِيَاءِ مَا قَعَسَا
سَارُوا عَلَى أَثَرِ الْفَارُوقِ جَدَّهِمْ
وَلَنْ يَضِلَّ الَّذِي مِنْ نُورِهِ اقْتَبَسَا
مِثْلُ السِّیُوفِ الْمَوَاضِي فِي ضَرَائِبِهَا
صَفًّا أُقِيمَتْ لَشَرَعِ الْمُصْطَفَى حُرَّسَا
وَكُلُّ ذِي أَدَبٍ يَبْغِي الْكِمَالَ فَمِنْ
عَبْدِ الْحَمِيدِ يَرُومُ الْإِذْنَ مُلْتَمِسَا
الشَّاعِرُ الْفَذُّ لَوْ جَاءَتْ قَرِيحَتُهُ
تُعَارِضُ الْعَارِضَ الْهَظَالُ مَا انْبَجَسَا
تُعْدُو عَذَارَى الْمَعَانِي قَيْدَ خَاطِرِهِ
وَطَالَمَا امْتَنَعَتْ عَنْ غَيْرِهِ شُمْسَا
مِنْ مَعْدِنِ كُلِّهِ صَافٍ وَلَا عَجَبُ
مِنْ تَلَكُمُ النَّفْسِ نَلْقَى ذَلِكَ النَّفْسَا

إني أقول وخَيْرُ القولِ مجملُه
 لو جاء في عَصْرِه الكِنْدِيُّ ما نَبَسَا
 هذه طَرَابُلُسُ الفيحاء حافِلَةٌ
 تختالُ في حُلَلٍ من عِيدِهِ وكُسا
 عيدُ لخمسين حَوْلًا قد تنجّزها
 في خدمةِ اللّغَةِ الفُضْحى صَبَاحَ مَسَا
 وقد أبْتُ غُرْبَتِي أني أَرى وَطَنِي
 وأن أشاهدَ فيه ذلكَ العُرْسَا

القسم الثالث

في مراثي العلماء
والأدباء والكبراء

في مرثي العلماء والأدباء والكبراء

رثاء إمام اللغة وفارس ميدان الإنشاء الشيخ أحمد فارس الشدياق

لما توفي إمام اللغة وفارس ميدان الإنشاء الشيخ أحمد فارس الشدياق كنت لا أزال في السابعة عشرة من العمر وكنت معجباً بأسلوبه فضلاً عن صداقة قديمة بين الإرسلايين وبين آل الشدياق، فلما جاءوا بتجاليده من الآستانة إلى بيروت وصُلِّي عليه في الجامع العمري الكبير تليت عليه مرثية متعددة لشعراء الوقت ومنها مرثية لي . لم تذكر في ديواني الأول المسمى بالباكورة، لأن الباكورة كانت قد طُبعت قبل وفاة أحمد فارس رحمه الله . وقد فُقدت من بين أوراقه هذه المرثية إلى أن عثرت عليها هذه السنة في رسالة نشرها الفاضل الدكتور فيليب الشدياق تتضمن ترجمة أحمد فارس وهي هذه :

[من الطويل]

تَمَادَتْ عَلَيْنَا بِالْحُطُوبِ الدَّوَامِسِ

لِيَالٍ لَهَا بِالْمَجْدِ عَصْفُ الرَّوَامِسِ^(١)

وَأَصْمَتَ رِجَالاً لِلزَّمَانِ وَإِنَّهُمْ

لَنِعْمَ رِجَالُ الدَّهْرِ شُمُّ الْمَعَاطِسِ

(١) الرياح التي تدفن الآثار .

أحقاً عبادَ الله ذا اليومُ أَنَّهُ
وَجُوماً قَدْ اسْوَدَّتْ وَجُوهُ الْمَدَارِسِ
وَأَصْبَحَ مِضْمَارُ الْبَلَاغَةِ خَالِياً
لَدُنْ غَابَ عَنْهُ الْيَوْمُ «أَحْمَدُ فَارِسٍ»
هُوَ الْفَارِسُ السَّبَّاقُ فِي كُلِّ حَلَبَةٍ
تَجْمَعُ فِيهَا كُلُّ قِرْنٍ مُمَارِسٍ
أَجَلٌ مُجَلٌّ فِي رَهَانِ بَرَاةٍ
وَأَبْتَعُ^(١) فَرَسَانِ الْبَيَانِ الْمَدَاعِيسِ
إِذَا صَالَ لَمْ يَتْرُكْ مَصَالاً لِفَارِسٍ
وَإِنْ قَالَ لَمْ يَتْرُكْ مَقَالاً لِنَابِسٍ
أَقَامَ مَنَاراً هَادِياً كُلُّ حَائِرٍ
وَأَوْقَدَ نَاراً أَمَّهَا كُلُّ قَابِسٍ
غَدَا ذِكْرُهُ مِلءُ الزَّمَانِ وَلَمْ تَكُنْ
لِأَثَارِهِ الْأَيَّامُ غَيْرَ فَهَارِسٍ
وَشَيَّدَ لِلْفُضْحَى قُصُوراً شَوَاهِقاً
عَلَى عَفْوِ هَاتِيكَ الرُّسُومِ الطَّوَامِسِ
لَقَدْ جَابَتِ الدُّنْيَا جَوَائِبُهُ^(٢) الَّتِي
بِإِنْشَائِهِ كَانَتْ طِرَازَ الْمَجَالِسِ

(١) الفارس الأبتع القوي .

(٢) الجواب: الأخبار الطارئة وبها سمى أحمد فارس جريدته التي كانت تصدر في الأستانة وكانت أحسن جريدة عربية في وقتها .

تَبَلَّجَ نَوْرُ الشَّرْقِ عَنْ وَجْهِ سَافِرٍ
 بِهَا وَتَشَّى الْعَصْرُ عَنْ عَظْفِ مَائِسٍ
 فَمَنْ لِفُضُولٍ كَانَ يَكْسُو بَيَانَهَا
 مِنْ الْوَشْيِ وَالْدِيْبَاجِ أَبْهَى الْمَلَابِسِ
 وَآيَاتُ فَضْلِ كَانَ يَمْحُو بِنُورِهَا
 دُجَى الشَّكِّ مَحُو الصُّبْحِ لَيْلَ الْحَنَادِسِ
 فَمَا كُلٌّ مَنْ رَامَ الْعُلَى أَدْرَكَ الْعُلَى
 وَلَا كُلٌّ مَنْ يَغْلُو السُّرُوجَ بِفَارِسِ



وقلت أرثي المرحوم محمود بك نجل المرحوم إبراهيم فخري
 بك وشقيق صاحب السمو أحمد نامي بك :
 [من الكامل]

يَا عَيْنُ مَهْمَا كُنْتَ ذَاتَ جَمُودٍ
 فَلَأُبْكِيَنَّكَ دَمْعاً عَلَى مُحَمَّدٍ
 وَلَأَمْطَرَنَّكَ مِنَ الدَّمْعِ سَحَاباً
 تَرْوِينَهَا عَنْ كَفِّهِ فِي الْجُودِ
 وَلَأَنْتِ يَا كَبْدِي فَمِنْ نَارِ الْأَسَى
 ذُوبِي وَيَا نَارَ الضَّلُوعِ فزِيدِي
 مَا كُنْتَ يَا قَلْبُ الْحَدِيدِ فَإِنْ تَكُنْ
 فَالنَّارُ قَدْ تُلْوِي ^(١) بِكُلِّ حَدِيدٍ
 أَتَعَزَّ فِي مُحَمَّدٍ دَمْعَةً نَاطِرٍ
 لَوْ كَانَ فِيهِ قِسْوَةُ الْجِلْمُودِ

(١) ألوى به : ذهب .

مِنْ بَعْدِ مَا مَلَأَ النُّوَاطِرَ قَرَّةً
 وَغَدَاً مَسْرَةً قَلْبَ كُلِّ وَدُودٍ
 مَا كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّ مِثْلَ جَبِينِهِ
 شَرَحَ الشَّبَابِ يَعُودُ طُعْمَ الدَّوْدِ
 مَا كُنْتُ أَمْلُ أَنَّ شُعْلَةَ دُھْنِهِ
 تَعْدُو عَلَيْهَا الْيَوْمَ كَفَّ خُمُودِ
 مَا كُنْتُ أَمْلُ أَنَّ نَكْبَاءَ الرَّدَى
 تُودِي بِغُضَنِ شَبَابِهِ الْأَمْلُودِ
 وَبِكُلِّ نَفْسٍ مِنْ أُمَائِرِ نُبْلِهِ
 إِيْمَاضُ بَارِقَةٍ وَلَمَحَ شُهُودِ
 سَهَرِ اللَّيَالِي فِي وَصَالِ حَقَائِقِ
 وَالْغَيْرِ يَسْهَرُ فِي وَصَالِ الْغَيْدِ
 مَا غَرَّهُ زَهْوٌ وَلَا حَسِبَ الْعُلَى
 إِلَّا بِمَجْمَعِ طَارِفٍ وَتَلِيدِ
 نَظَمْتُ بِهِ زَهْرَ الْخِلَالِ كَأَنَّهَا
 فِي الْخُودِ عَقْدُ اللَّوْلُؤِ الْمُنْضُودِ
 مَا كَانَ مَنْ يَمْضِي وَهَذَا شَأُوهُ
 فِي السِّتِّ وَالْعَشْرِينَ غَيْرَ شَهِيدِ
 مَا رَاعَ مِثْلَ الْقَصْفِ فِي شَرَحِ الصَّبَا
 وَالْقَطْفُ قَبْلَ حَلَاوَةِ الْعُنُقُودِ^(١)

(١) أخذت هذا من قول عامي كان يقول أمامي لعامي آخر مات أبوه: والدك قد حلا عنقوده. يريد أنه آن أوان موته.

يوم غداً في كلِّ دارٍ مأتماً
 فينا وفي الفِرْدَوْس يومَ العيدِ
 لَيْسَ النهارُ به دجَّةٌ غاسقٍ
 ولقد يكون ضياءَ الليالي السَّودِ
 ولَّى وخلفَ في ذَوِيهِ مِنَ الأَسَى
 حالاً أَشَقَّ مِنَ الحِمامِ المودي
 لو كانَ ينظرُ للحقيقةِ ناظرٌ
 فالموتُ للموجودِ لا المفقودِ
 هذا يموتُ بكلِّ يومٍ حسرةً
 إذ ذاك راحَ بيومِهِ الموعودِ
 يا أيُّها المَحمودُ رفقا بالآلَى
 دَفَنُوكَ بينِ جوانِحٍ وكَبودِ
 قد كنتَ سَباقاً إلى حَوْضِ العُلَى
 فسبقت نحوَ الموردِ المورودِ
 والكلُّ رَكِبَ سائرونَ وإنما
 أَهْلُ النَّبَاهَةِ فوقَ خَيْلٍ بريدِ
 رِفقاً بوالدك الكريمِ فَقَدْ وَفَى
 شَجُوَ الفقيدِ بفرحةِ المولودِ
 غادرتَ بعدك كلَّ باكٍ جفنه
 يمتاح من بحرِ البُكا بمديدِ
 ومضيتَ قاصداً جنةً وترَكْتَنَا
 مِن حُزننا في النَّارِ ذاتَ وقودِ

قد عزّ فيك الصبرُ لولاً أنه
 فَرَضَ وَأَنَّ الحزنَ غير مفيدٍ
 قد كنتَ تفدي في مُقامِ كريهةٍ
 لو أَنَّ ثَمَّةَ موقفاً لجنودِ
 الموتِ حَتَمٌ والمسافةُ بيننا
 نَزَرٌ وما مِنْ قَادمٍ ببعيدٍ
 يتخيّل الإنسانُ أبعدَ مطمعٍ
 والموتُ منه مثلُ حَبْلٍ وريدٍ
 لا تستحقّ من الهُُمومِ حياتنا
 لو أنصفَ الأقوامُ غير زهيدٍ
 ما كان سِفَاحُ الدموعِ لفاجعٍ
 رأياً بمهديٍّ ولا برشيديٍّ
 لَكِنَّ حَقَّ الطبعِ محكومٌ به
 والعقلُ مرتبطٌ ببعضِ قيودٍ
 يا ثاكلَ المحمودِ صبراً بعده
 فبقاءُ أحمدَ سِلْوةَ المفزودِ
 إِنْ جَلَّ خطبك بالذي أَثكلته
 فالركنُ باقٍ ليس بالمهدودِ
 وَمِنْ الإلهِ على الفقيدِ تحيةٌ
 وفراقٌ عاجلةٌ لدارِ خلودِ
 مهما تعاظمتِ الخطوبُ على الفتى
 فعزائمه في العَدْلِ والتوحيدِ

وتوفيت والدته نعوم باشا متصرف جبل لبنان وكان صديقاً لنا
فرثيتها وعزيت ابنها بالقصيدة التالية وقد مضى عليها أكثر من
أربعين سنة :
[من الطويل]

أَلَا هَلْ لَجَفَنِ سَاهِرِ اللَّيْلِ سَاهِدِ
تَأْلُفَ غَمَضٍ مِنْذَ بَيْنِكَ شَارِدِ؟
وَهَلْ لَشُرُونٍ أَنْ يُؤَمَّلَ غِيْضُهَا
وَمِنْ دُونِهَا مَا فَاضَ صُومُ الْجَلَامِدِ؟
وَهَلْ لِفُؤَادٍ أَنْ يُرْجَى شِفَاؤُهُ
بَغَيْرِ لَغَامِ الزَّفَرَةِ الْمُتَصَاعِدِ؟
وَهَلْ لِسَجِيٍّ مِنْ سَلَوٍ وَقَدْ ذَكَتْ
مِنْ الْوُجْدِ فِي جَنْبِيهِ نَارُ الْمَوَاقِدِ؟
تَبَيَّتْ إِذَا دَبَّتْ أَسَاوِدُ لَيْلِهِ
حَشَايَاهُ مِنْ أَنْيَابِ رُقْشِ الْأَسَاوِدِ
وَهَلْ لِرِعَاةِ النَّجْمِ فِي مَهْمِهِ الدُّجَى
مِنْ الْوَدِّ إِلَّا صَحْبَةً لِلْفِرَاقِدِ؟
تَحَدَّرَ سَيْلُ الدَّمْعِ طَلْقاً عَنَانُهُ
وَأَلْقَتْ قُلُوبٌ لِلْأَسَى بِالْمَقَاوِدِ
وَكَيْفَ يُقَاوَى الدَّهْرُ قَلْبٌ مَهْلَهْلٌ
يَشْفُ وَذِي آثَارِهِ فِي الْجَوَامِدِ
أَبَادِ الْخَوَالِي وَالْبَوَاقِي رَهَائِنُ
لَدَيْهِ فَمَا بَاقٍ بِهِ غَيْرُ بَائِدِ

ولم يُبقِ قلباً لم يصبه ولم يكن
 يُصَابُ وما يُرْمَى بكفٍّ وساعدٍ
 تأملُ فما في العُمُرِ غير مصائبٍ
 وما الناسُ إلا بين باكِ وواجدٍ
 ولو سَبَرَ الناسُ الأمورَ لأصبحوا
 بأُسْرِهِم من فيلسوفٍ وزاهدٍ
 وليس الجديدان اللذان تعاقبا
 سوى جَلَمَيَّ^(١) أعمارنا عند ناقدٍ
 وما اليومُ إلا ما ينمُّ على الورى
 ولا الليلُ إلا للفناء بقائدٍ
 أهْلَتْهُ الأسيافُ في كل مفرقٍ
 وما تِلْكُمْ الأسيافُ غير حدائدٍ
 وخطبٍ لَعْمَرِي لو أناخ بيذبلٍ
 لزحزحَ منه كل راسي القواعدِ
 أناخَ بأكنافِ الوزير فصدّه
 من الصّبر جيشٌ مرصدٌ للشدائدِ
 وما كانَ مرزوءاً بذلك وحده
 وقد فتَّ في عُضْدِ الثُّقَيِّ والمحامدِ
 أُصِيبَتْ بأمِّ بَرَّةٍ فمصائبها
 مصابٌ يتيّم قد خَلَا من مساعدٍ

(١) الجلم محرّكة: المقراض.

وقد كان يُسْتَسْقَى العهدُ بِذِكْرِهَا
 إِذَا أَظْمَأَ الوسميُّ أَرْضَ المعاهدِ
 مضَتْ لم يرتق من صفها كدورةٍ
 ولا احتملت إصراراً يجوز لعابد
 ولو لم يكن واللّه من حسناتها
 سواك كَفَّها ذاك دون زوائدِ
 ولم يكُ فضلٌ قد حوته بواحدٍ
 وإن تكُ ضمّت كل فضلٍ لواحدٍ
 لمستوزرٍ من رهطِ عثمان بالغِ
 لعمرك من مولاه أَسْنَى المقاصدِ
 توليت من لبنانَ خطّة شامخِ
 له شعفاتٌ لا تذلّ لماهـدِ
 فأنهجه من عدلٍ حكمك شرعةً
 أعادته أعني من وليدٍ لوالدِ
 وأوردته من عفةٍ ونزاهةٍ
 بإقرار مَنْ يَشْنُوكُ أَصْفَى المواردِ
 فلو كلّفوه أن يبثّك شُكره
 لحيّاك من أغصانه كلّ مائدِ
 لك اليقظةُ العظمى التي باتّباعها
 حللت محلّ النوم من جفنٍ راقـدِ
 فإن كان لبنانُ يشاطركَ الأسي
 فكُم من سُرورِ نحوه بك وافـدِ

تعزّ فكم من موقفٍ لك صالح
 وكم من جميلٍ عن سليلك ذائدٍ
 رأيناك تأتي في أمورك كلّها
 من القصد ما يُعيني على كلّ قاصدٍ
 فعّال امرئٍ يخشى الإله بخُلقه
 ويعلم أنّ المرء ليس بخالدٍ
 فلا زلت محروساً من السوء راقياً
 مراقي تُلقي الشمس بين الحواسدِ
 ولا زلت في كلّ الشؤون مسدّداً
 لخدمة سلطان البلاد المجاهدِ
 مقامك منه ما أردت ولا تزل
 رجاً لصديقٍ أو شجاً لمعانِدِ
 وذكرك في الغبراء أسرى من الضيا
 وأسير في آفاقها من قصائدي



عندما توفي المرحوم عبد الله باشا فكري الشهير كنت في مصر،
 وكانت وفاته يوم عيد الأضحى سنة ١٣٠٧ هـ وهو صديق وفيّ للأستاذ
 الإمام، وكانت سبقت بيني وبينه مراسلة شعرية ذكرت في هذا
 الديوان، فرثيته بقصيدة نشرتها جريدة المؤيد ولكني فقدتها أيضاً من
 بين أوراقِي ثم وجدتُها في كتاب الآثار الفكرية، وهي هذه: [من الطويل]

إلى مثل هذا في الخطوب العظامِ
 أرى منتهى بطش الليالي الغواشمِ

وهل بعد هذا الخطب خطب نعدّه
 مصاباً بعلم أو بلاءٍ بعالمٍ؟
 مصابٌ لما قد فات أنسي، وماتٌ
 به خُتِمَتْ ألامُ سُودِ المآتمِ
 ولا غرؤ فيه فاجعاً عمّ رزؤه
 فموتُ رجالِ العلمِ موتُ العوالمِ
 مصابيحُ في الدنيا إذا هي أطفئتُ
 دجا الناسُ في ليلٍ من الجهلِ قاتمِ
 وأعلامُ رشدي البريةِ يهتدي
 بها كل سارٍ في المجاهلِ هائمِ
 ولكنها الدنيا لعمري أولعتُ
 بنكبِ العلى من عهدِها المتقادمِ
 يرجي التهابُ النارَ بالماءِ عندها
 وليس يُرجي صَفْوُها كلَّ حازمِ
 أحقاً عباد الله ذا اليومِ قد خبا
 شهابُ العلى واندكَّ طودُ المكارمِ؟
 وأنَّ المعالي والمعاني فجِعتُ
 بخطبِ لُسْمَرِ الخطِّ والبيضِ ثالمِ
 وما لشؤون العلمِ سألتُ شؤونها
 على وجناتِ الفضلِ سحَّ الغمامِ؟
 أجل . ماتَ مَنْ قَدْ كَانَ للفضلِ سيّداً
 بفاجيءِ خطبِ داهمٍ أيّ داهمِ

قَضَى الْيَوْمَ عَبْدُ اللَّهِ فِكْرِي الَّذِي سَعَى
 لِنَيْلِ الْمَعَالِي مِنْذُ نَوَاطِ التَّمَائِمِ
 وَخُلِّفَتِ الْأَقْلَامُ وَالصَّحُفُ بَعْدَهُ
 بِحُزْنٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ دَائِمِ
 وَأُضْحَى بِهِ أَضْحَى وَقَدْ كَانَ يَوْمُهُ
 وَلِذَاتِهِ قَدْ نَعَّصَتْ بِالْعَلَاقِمِ
 وَبَاتَتْ تُغَوِّرُ كُنَّ فِيهِ بِوَأَسْمَاءِ
 وَغَادَرَهَا ذَا النَّعْيِ غَيْرَ بِوَأَسْمِ
 نَعْيٍ سَرَى مَلَأَ الْمَسَامِعَ وَقَعُهُ
 إِذَا لَصَحَا مِنْ غَفْلَةٍ كُلِّ نَائِمِ
 كَذَا فليكن غُورُ الْكَوَاكِبِ فِي الثَّرَى
 كَذَا فليكن غِيْضُ الْبِحَارِ الْخَضَارِمِ
 مَصِيبَةُ مَجْدٍ أَسْكَرَتْ بِسَمَاعِهَا
 نُهَى النَّاسِ حَتَّى أَقْعَدَتْ كُلَّ قَائِمِ
 فَقَدْ نَا أَمِيرًا كَانَ غُرَّةَ عَصْرِنَا
 وَحَلِيَّةَ أَجْيَادِ الْعُلَى وَالْمَعَاصِمِ
 فَقَدْ نَا أَمِيرَ النَّظْمِ وَالنُّثْرِ رَاقِيًا
 مِنَ الْأَمْرِ أَعْلَى مَا ارْتَجَتْ نَفْسُ رَائِمِ
 فَوَاهَا لِأَقْوَالٍ لَهُ قَدْ أَعَارَهَا
 سَلَا سَتَهُ وَاللِّطْفَ مَرَّ النَّسَائِمِ
 وَرَقَّةُ أَلْفَاظٍ صَحَّاحِ أَعَارِبِ
 كَسَاهَا بِتَفْوِيفِ طِرَازِ الْأَعَاجِمِ

نظامُ مبانٍ يخجلُ الروضُ بهجةً
وصيدُ معانٍ في شرودِ النعائمِ
محاسنُ روحٍ ما ابتغت في زمانها
سوى الخيرِ والمعروفِ يوماً لأدمي
ولا وردت غيرُ الشَّهامةِ مورداً
ولا عرَفت من أين بابُ المآثمِ
خلائقُ أمثالِ الرياضِ نواضِرُ
تضوُّعُ منها عرفُ زَهرِ الكمائمِ
وقد كان أذكى من سنا النارِ ربّها
وأقطع رأياً من شِفَارِ الصّوارمِ
فلمّا ثوى تحت الرِّغامِ وذَلَّتْ
بمصرعه للعِلمِ شمّ المراغمِ
بكتّه عيونُ المَكْرُماتِ وأعلمتْ
عليه المعالي كيف نُوحُ الحمائمِ
ولم أرَ خطباً مثله أوَهَنَ القَوَى
به وقد انحَلَّتْ عقودُ العزائمِ
سأندبُه لا زاخراً درّ مدمعِ
ولا سامعاً في الحزنِ لومةٍ لائمِ
ولا أنسٍ عندي من نفائسٍ لفظه
قلائدُ أغلى من لآلي العيالمِ
وكنْتُ مللتُ الشَّعرَ حتى كَرِهْتُه
وأصبحَ عندي في عِدادِ المحارمِ

إِلَى أَنْ قَضَيْتُ أَوْصَافَهُ بِرِثَائِهِ
فَأَصْبَحَ عِنْدِي الْيَوْمَ ضَرْبَةً لَازِمٍ
عَلَى أَتْنِي إِنْ لَمْ أَكُنْ قَبْلُ نَازِمًا
أَعَدَّ وَلِنَطْقِي فِيهِ مَهْجَةً نَازِمٍ
فَمِنْ وَصْفِهِ دَرَّ الْمُحَامِدُ وَالْثَنَا
وَمِنْ نَوْحِهِ دَرَّ الدَّمُوعُ السَّوَاجِمُ
أَيَّا رَاحِلًا عَنَّا إِلَى الْمَلِكِ الَّذِي
دَعَاهُ إِلَى عَيْشٍ مِنَ الْخُلْدِ نَاعِمٍ
لَعَمْرُكَ هَذِهِ غَايَةُ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ
وَلَوْ عَمَّرَ الْمَخْلُوقُ عُمَرَ الْقَشَاعِمِ
حَبَاكَ إِلَهِي كُلَّ رَوْحٍ وَرَاحَةٍ
وَجَادَتْ ثُرَى مَثْوَاكَ سُحْبُ الْمَرَاحِمِ
وَإِنْ لَنَا فِي نَجْلِكَ الْيَوْمَ سَلْوَةٌ
وَتَعْزِيَةٌ يُوَسِّى بِهَا قَلْبٌ وَاجِمٍ
يَدُومُ لَنَا الشَّهْمُ الْأَمِينُ مُؤَيَّدًا
وَنَسْأَلُ رَبَّ الْعَرْشِ حُسْنَ الْخَوَاتِمِ



ثم رثيت صديقي المرحوم أمين بك فكري نجل العلامة المرحوم
عبد الله باشا فكري بهذه القصيدة وكانت وفاته سنة ١٣١٦ هـ. [من الطويل]

(فَسْبَحَانَ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ)

بَقِيَّةٌ مَجْدٍ وَدَّعْتُ يَوْمَ وَدَّعَا
وَأَمَّا عَزَّ أَنْ تَتَقَطَّعَا

وَلَمْ تَنْعِهِ الْأَيَّامُ إِلَّا وَأَذْمَجَتْ
 مِنْ الشَّرْقِ شَطْرًا فِي مَنِيَّتِهِ مَعَا
 لَقَدْ جَادَنَا نَوَاءُ الزَّمَانِ مَصَائِبًا
 يَلُوحُ لَنَا أَنَّ مُزْنَهَا لَيْسَ مُقْلَعًا
 وَسَبْحَانُ مَنْ سَاقَ الرَّدَى بِوَجْهِهِ
 فَلَقِي لَعْمَرِي الْجَمْعَ وَالْفَرْدَ مَصْرَعًا^(١)
 إِذَا شَنَّ جَيْشَ النَّحْسِ فِي الْقَوْمِ غَارَةً
 فَمَا أَجْدُرُ الْأَرْزَاءِ أَنْ تَتَنَوَّعَا
 وَمَا كُنْتُ حَتَّى الْيَوْمِ أَحْسَبُ دَهْرَنَا
 إِذَا سَاءَ لَا يَرْتَادُ لِلْعَذْرِ مَوْضِعًا
 أَلَمْ يَكْفِهِ مَا غَالَ مِنْ كُلِّ غَايَةٍ
 وَأَفْسَدَ مِنْ مَعْنَى وَعَظَلَّ مَرْجَعًا
 وَضَيَّقَ أَرْجَاءَ الرِّجَاءِ فَسَدَّهَا
 وَرَاخَا مَجَالَاتِ الْمَرَاثِي وَأَوْسَعَا
 كَذَا فَلْيَجِلَّ الْخَطْبُ وَلِيُدْحِ الْأَسَى
 وَتَنْقَلِبِ الْعُلْيَا بِمَارِنٍ أَجْدَعَا
 أَجَلٌ وَيُجَلِّي الدَّهْرُ لِلنَّاسِ شَأْوُهُ
 إِذَا شَاءَ فِيهِمْ أَنْ يَصِيبَ وَيَفْجَعَا
 حَلِيفْتُ فَلَا تَمْرِي النُّوَادِبُ عَبْرَتِي
 عَلَى فَائِتٍ وَلِيَنْعَ دَهْرُكَ مَنْ نَعَى

(١) في ذلك الوقت استولى الإنكليز على السودان .

ففهيهاَت ما إن استطارَ لفاجع
 إذا كان من أودَى الأمينِ المشيِّعا
 أحبَّتنا إن قيلَ في الصَّبرِ رُجْلَةٌ
 فإني فتَّى أبغي أنوحَ وأجزعا
 تركتُ لكم فَضْلَ التَّصَبُّرِ صَبْرَةً
 وقُلْتُ لَطَرْفي اليَوْمَ لا تَأُلْ مدمعا
 وشَعْشَعُ كؤُوسِ الدَّمْعِ بالدمِ ساقياً
 فكلَّ شرابٍ زَيْنه أنْ يُشعشعا
 واعتدُّها نحو الأمينِ خيانةً
 إذا أنا لم أَشتَفْ كاسَكَ مُثْرعا
 فما كان وُدِّي للأعزَّةِ ضائعاً
 وما كان قلبي من أخي الودِّ بلقعا
 حملتُ له بين الضَّلُوعِ أمانةً
 لو احتملتها الشَّمُّ مالتْ تصدَّعا
 وأصفيتَه مني إخاء لو أنه
 أعار الليالي صفوهُ رُقْن مَشْرعا
 وما زلتُ أرعاهُ على البُعْدِ صاحباً
 وقبلي نجومُ الأفقِ مثلي مَنْ رَعَى
 فإن يكُ هذا التَّربُّ غَرَبَ بَدْرُهُ
 فلا زَهَرَتْ تلكَ الكواكبُ مَطْلعا
 ولا لَمَعَتْ تلكَ البُرُوقُ وقد خَبَتْ
 بروقُ أمانٍ كنَّ بالأُمسِ لَمَّعا

أما في دُجى الخَطبِ المخيمِ حاجِبُ
لكلِّ منيرٍ أن يضيءَ ويسطعَا
قَضَى اليومَ مَنْ رَاعَ البريَّةَ رزؤُهُ
وليس يُراعُ النَّاسُ إلا لأزوعَا
ولم يأتِ فيه الموتُ مصرعٌ واحدٌ
ولكنه كان المصارعَ أجمعا
أصابَ الحِجَى والعِلْمَ والحِزْمَ والمَضَا
وصدقَ المَبَادِي والذِّمَامَ الممنعَا
وما بقيتُ في المَكْرُمَاتِ سَجِيَّةٌ
ولا خَطَّةٌ إِلَّا تَوَتَّ معه مَضْجَعَا
فلو نَفَعَتْ عِنْدَ المُنُونِ شِفَاعَةٌ
كَفَتُهُ فَرِيدَاتُ الخِصَالِ مشْفَعَا
ودَافَعَ عن حَوْبَائِهِ طَيِّبُ الثَّنَا
وخلَّدهُ لو أنَّ في الخُلْدِ مَطْمَعَا
ولَكِنَّ دَاعِيَ المَوْتِ لَا يَقْبَلُ الرُّشَى
وأنفَسَ منه ليس يَلْقَى وأَرْفَعَا
تصَيَّدهُ عن سَاعِدِ العَدْرِ فجَاءَ
فكانَ كَرَجِ العُطْرِفِ أو كَانَ أَسْرَعَا
مصابٌ له الأَقْطَارُ إذْ شَاعَ زَلْزَلَت
فَلَا رُكْنٌ للعلِيَاءِ إِلَّا تَزَعَزَعَا
أذلَّ إِبَاءَ الدَّمْعِ من كلِّ جامِدٍ
فلم يَبْقَ عاصٍ منه إِلَّا تَطَوَّعَا

ولم أر في الأرزاء أبعد غارة
 ولا من قلوب الخلق أقرب موقعا
 عشيّة لا في الناس مالِكُ عبرة
 ولا زفرات الصدر إلا تصنعا
 عشيّة أب الناس سكرى وإتما
 بما لم يكن يوماً له الكرم منبعا
 عشيّة لم تبق الفجيعة مُسكة
 ولا حزم للمحزون إلا مضيعا
 عشيّة وارى الناس شمساً وأظلمت
 لها الشمس حتى لا تردّ بيوشعا
 وقيل أمين المجد فاجأه الردى
 فلا قلب إلا عاد نهباً موزعا
 فكَم من يد أضحت تدق بأختها
 وكَم شفة باتت تجاوز أضبعا
 فإن يك وادي النيل أشعر فقدّه
 فلا جبل في الشام إلا تَضَعُضعا
 كريم به لفظ الكريم مقصّر
 إذا قيل عن قوم كرام توسعا
 توخى طريق الخير محضاً كأنه
 من المهد حتى اللحد جاء لينفعا
 له خلق سهل ونفس أبيّة
 وحسن خلالٍ دونها الروض ممرعا

وأَقْلَامُ صِدْقٍ رَاجِعٍ فِي وَلَائِهَا
 لِأَكْتَبَ مَنْ أُوتِيَ الْكِتَابَ وَأَبْرَعَا (؟)
 وَمَنْ بَعْدَ عَبْدِ اللَّهِ كَانَ مُؤَمَّلًا
 بَأَنَّ لَمْ يَغِبْ ذَا الْأَصْلُ إِلَّا وَفَرَعَا
 فَمَا زَالَ حَتَّى أَتْبَعَ الْفَرْعَ أَصْلُهُ
 زَمَانٌ لَتَنْقَادَ الْكِرَامُ تَتَبَّعَا
 وَمَا زَالَ فَقَدْ الْبَدْرُ لِلنَّاسِ مُوجِعَا
 وَفِي اللَّيْلَةِ الدَّهْمَاءِ أَنْكَى وَأَوْجَعَا
 فَإِنْ تَطَوَّهَ أَيْدِي الْمَنُونِ فَمَا طَوَى
 كُرُورُ اللَّيَالِي ذِكْرَهُ الْمَتَضَوَّعَا
 وَإِنْ تَكُنِ الْأَكْفَانُ بِيضًا نَوَاصِعَا
 فَإِنَّ لَهُ مِنْ أَبْيَضِ الذِّكْرِ أَنْصَعَا
 أَلَا فِي ذِمَامِ اللَّهِ سَيْرُكَ إِنَّهُ
 مَسِيرُ فِتْنَى مَاضٍ أَغْدَّ وَأَوْضَعَا
 سَبَقْتَ إِلَى حَوْضٍ كَأَنَّكَ نَاهِلٌ
 عَلَى نَكْطٍ (١) خَافِ الرَّحَامُ فَأَهْرَعَا
 وَنَازَلْتَ قَرْنَ الْمَوْتِ لَا مَتَهَيِّبَا
 وَحَسْبُكَ أَلْفَاظُ الشَّهَادَةِ أَدْرَعَا
 أَنْادِيكَ لَا رَاجِيَ الْجَوَابَ فَقَدْ مَضَى
 وَيَا لَهْفَ قَلْبِي أَنْ أَقُولَ وَتَسْمَعَا

(١) النكط محرقة: العجلة.

أَخْلَفْتَ ثَغْرًا بَعْدَ بَعْدِكَ بِاسْمَا
 وَطَرْفًا تَمَنَّى أَنْ يَنَامَ وَيَهْجَعَا
 وَلَوْ سَاكِنَاتُ الْأَيْكَ يَعْلَمَنَّ مَنْ ثَوَى
 لَمَّا نُحْنُ إِلَّا فِي رِثَائِكَ سَجَّعَا
 رَجَوْنَاكَ لِلْأَوْطَانِ أَحْوَجَ مَا غَدَتْ
 إِلَى مَنْ يَرْقِيهَا وَأَوْحَشَ أَرْبُعَا
 فَلَمْ تَسْمَحِ الدُّنْيَا وَلَمْ نَعْلَمْ الْوَفَا
 وَلَمْ تَرَ إِلَّا أَنْ تَغُرَّ وَتَخْدَعَا
 وَمَا هَذِهِ الدَّارُ الَّتِي لِفَنَائِهَا
 يُشَدُّ وَيُهْوَى أَنْ يَمَالَ وَيُنْزَعَا
 مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَى لِحَفْرَةٍ
 فَمَاذَا عَسَى الْإِنْسَانُ أَنْ يَتَمَتَّعَا؟



وقلت أرثي اللغوي العلامة الشيخ إبراهيم اليازجي وتلوتهما في
 محفل كبير في بيروت بعد الوحشة التي وقعت بيني وبينه بسبب
 شوقي (وكانت وفاته سنة ١٣٢٤ هـ ١٩٠٦ م).

[من البسيط]

قُصَارُ^(١) كُلِّ فِتْنٍ مُسْتَكْمِلِ الْخَطَرِ^(٢)
 أَنْ يَنْحَنِي لِقَضَاءِ اللَّهِ وَالْقَدَرِ
 وَأَنْ يُقَابِلَ صَرْفَ الدَّهْرِ كَيْفَ جَرَى
 بِالْخَلْقِ فِي عِبْرَاتِ الْعَيْنِ وَالْعَبْرِ

(١) القصار: الجهد والغاية.

(٢) الخطر هنا: ارتفاع القدر.

وَأَنْ يَرَى غَيْرَهُ مَعَ عَيْنِهِ شَرَعاً^(١)
 فَلَيْسَ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ سِوَى الصُّوَرِ
 فَمَا أَرَى نَاعِيّاً حَيّاً بِمَفْرَدِهِ
 إِلَّا نَعَى لَوْ عَقَلْنَا سَائِرَ الْبَشَرِ
 لَيْسَ الْحَيَاءُ سِوَى تَشْيِيعِ آخِرِنَا
 لِأَوَّلٍ فَهِيَ هَذِهِ فَسَحَةُ الْعُمْرِ
 وَإِنْ تُغِبَّ الْمَنَايَا فِي مَوَارِدِهَا
 فَرَبَّ تَرْكٍ يَلِيهِ أَخْذُ مُقْتَدِرِ
 مَنْ سَامَحَتْهُ بَيُومٌ فِي مَصَارِعِهَا
 فَقَدْ أَحْيَلَ عَلَى أَيَّامِهَا الْآخِرِ
 لَمْ يَبْرَحِ الدَّهْرُ فَتَاكَ الْمَضَارِبِ عَنْ
 أَيَّامِهِ الْبَيْضِ أَوْ لِيَالَتِهِ السَّمْرِ
 كَفَى بَرِيْبِ الْمَنَايَا وَاعْظَافاً وَجِزاً
 رَشْداً لِمَنْ كَانَ مِنْ دُنْيَا عَلَى غَرَرِ
 تَخَالَفَ النَّاسِ فِي الْأَهْوَاءِ حِينَ حَيُّوا
 وَجَمَعَ الْمَوْتُ مِنْهُمْ كُلَّ مُنْتَثِرِ
 وَقَدْ يَلْجُ بِبَعْضٍ كَيْدَ شَانئِهِ
 وَلَوْ دَرَى لَصَفَا صَفْوَاً بِلاَ كَدَرِ
 وَقَدْ يَحَاوُلُ فِي أَعْدَائِهِ ظَفْراً
 وَأَنَّهُ بَيْنَ نَابِ الْمَوْتِ وَالظُّفْرِ

كم وثَّرت قوسَ ضغنٍ كفَّ ذي ترة
 فأذهب الموتُ عزمَ الوترِ والوترِ^(١)
 والدَّمعُ يغسلُ ما بالقلبِ من وَصيرٍ
 كما يزولُ غبارُ الأرضِ بالمطرِ
 لو أنصفَ اليازجي دمعَ لكانَ له
 كعلمه بحر دمعٍ غير مُنحصرٍ
 أو لو درت نَارُ إبراهيمَ مضرَّعُه
 لأضبحت من جوى لقاحة الشرِّ
 أودى الردى حينما أودى بمهجته
 بأكتب الوقت من بدو ومن حضرٍ
 بذى الضياء تكادُ العمي تبصرُه
 وذى البيان الذي يشفي من الحصرِ^(٢)
 من بعد ما خمدت ریحُ البيانِ غدَّتْ
 له به دولةٌ وضاحةُ الغرِّ
 عبارة لا ترى في رصفها قلقاً
 كالعدل لم يشك من طولٍ ولا قصرٍ
 لا تلتقي موضعاً فيها له بدَلٌ
 كأنما جاءت المعنى على قدرٍ

(١) الوتر بالفتح وبالكسر الثَّار، وأما الوتر محرَّكة فهي جمع وتره وهي مجرى السهم من القوس .

(٢) أصدر في مصر مجلة اسمها البيان ثم مجلة أخرى اسمها الضياء .

بَكَتْ لَهُ اللُّغَةُ الْفُضْحَى وَحُقَّ لَهُ
 بُكَاءُ كُلِّ كَلَامٍ جَاءَ عَنْ مُضِرٍ
 يَا رَاحِلًا شَكَّتِ الْأَقْلَامُ غُرْبَتَهُ
 وَلَيْسَ بَعْدَكَ مِنْهَا غَيْرُ مُنْكَسِرٍ
 نَهَجَتْ فِي بُلْغَاءِ الْعَصْرِ وَارِدَةً
 بِالْحَقِّ لَوْلَاكَ لَمْ تَسْفِرْ وَلَمْ تَنْزِرِ
 إِلَيْكَ حَقِّكَ لَا ظُلْمٌ وَلَا سَرَفٌ
 لَا يَنْكُرُ الشَّمْسُ إِلَّا فَاقِدُ الْبَصَرِ
 وَإِنْ يَوْأَخِذَكَ نَقَّادُ بَبَادِرَةٍ
 فَلَيْسَ يَرْجُمُ إِلَّا مَثْمَرُ الشَّجَرِ
 وَقَدْ يُعَابُ الَّذِي فِي الْبَدْرِ مِنْ كَلْفٍ
 وَلَيْسَ يَسْلُبُ مَعْنَى الْحُسْنِ فِي الْقَمَرِ
 إِلَيْكَ مِنِّي تَحِيَّاتٌ بَرَقَتْهَا
 كَسَحْرِ لَفْظِكَ أَوْ كَالنَّفْحِ فِي السَّحْرِ
 فَاذْهَبْ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ مِنْ رَجُلٍ
 مَاضِي الْحُشَّاشَةِ لَكِنْ خَالِدِ الْأَثَرِ

رثائي للمرحوم محمود سامي باشا رئيس نظار مصر قبل
 الاحتلال البريطاني وأمير الشعراء في وقته (توفي سنة ١٣٢٣هـ -
 ١٩٠٤م). [من البسيط]

يَا نَاضِرِي أَلَا يَا تَبْكِيَانِ دَمَا
 أَهَكَذَا عَهْدُنَا أَنْ نَحْفَظَ الذِّمَّامَا

لو صَارَ كُلُّ سَوَادٍ مِنْكُمْ يَقْقَأُ
 عَلَى الصَّدِيقِ لَمَّا أَنْصَفْتُمَاهُ لَمَّا
 وَطَلَمَا ذُبْتُمَا شَوْقاً لِرُؤْيَيْتِهِ
 وَخَلْتُمَاهَا أَمَانِي النَّفْسِ وَالنَّعْمَا
 فَالآنَ شَطَّتْ نَوَى مَا عِنْدَهَا أَمَلٌ
 فِي الْقُرْبِ فَاكْتَحَجَلَا مِنْ بَعْدِهِ الظُّلَمَا
 مَاذَا أَقُولُ لِقَلْبِي فِي الدَّفَاعِ إِذَا
 أَقَامَ قَاضِي الْهَوَى مَا بَيْنَنَا حَكْمَا
 وَيَلْمُهَا حَسْرَةً فِي الْقَلْبِ بَاقِيَةً
 تَظَلُّ تَحْتَ الثَّرَى تَسْتَضْحِبُ النَّدْمَا
 لَوْ أَنَّ لِي طَيْرَ يُمْنٍ مَا صَبَرْتُ لَهَا
 وَلَا تَبَدَّلْتُ مِنْ بِئْزَانِهَا الرَّخْمَا
 وَلَا عَدَانِي عَنِ الْأَحْبَابِ عَادِيَةً
 وَلَا حَثْتُ لَغَيْرِ الصَّفْوَةِ الرُّسْمَا
 وَلَا تَخَلَّفْتُ عَنْ مِضْرٍ وَمُقْدِمِهَا
 وَقَدْ غَدْتُ دَارُهَا مِنْ دَارِنَا أَمْمَا
 أَلُوذُ بِالْدَّمْعِ كِي أَطْفِي اللَّهَيْبَ بِهِ
 فَاسْتَزِيدُ كَأَنِّي نَافِخٌ ضَرَمَا
 الْآنَ حَقٌّ بَأَنَّ أَسْخُوَ بِأَسْخُنِهِ
 إِنَّ الْمَدَامِعَ يَتَلَوَّحُ حَرَّهَا الشَّبَمَا
 وَمَا بُكَائِي لَخَطْبٍ قَدْ فُقِدْتُ بِهِ
 وَحَدِي خَلِيلاً بَرَانِي فَقَدُهُ أَلْمَا

لَكِنْ بُكَائِي عَلَى الْمُبْكِي بِمَضْرَعِهِ
أَهْلَ الْمَشَارِقِ بَلْ مِنْ غَيْرِهِمْ أُمَمًا
وَلَوْ سَبَقْتُ بِهِ الْوَرَقَاءَ مَا لَحِقْتُ
مِنَاحَتِي صَاحِبِيهِ السَّيْفِ وَالْقَلَمِ
وَالْمَجْدَ مَكْتَسِبًا مِنْ كَفِّهِ حِلَالًا
وَالْفَضْلَ مَرْتَقِيًا فِي ظِلِّهِ أَطْمَأ
وَالشَّعْرَ أَذْرَكَ مَا أَغْيَا زُهَيْرًا وَمَا
فَاتَ الْكَرِيمُ عَلَى عِلَاتِهِ هَرِمًا
خَطْبُ هَوَى بِخَبَاءِ الْفَضْلِ فَانْحَطَمَتْ
أَوْتَادُهُ وَعَدَتْ أَطْنَابُهُ رَمَمًا ^(١)
نَبَاً بِمَحْمُودِ سَيْفٍ لَوْ ضَرَبْتُ بِهِ
حَدَّ الزَّمَانِ بِكَفِّ السَّعْدِ لَانْتَلَمَا
مُصِيبَةً أَرْجَفْتُ صَمَّ الْجَمَادِ فَقَلَّ
فِي الشَّارِقِ انْقَضَ أَوْ فِي الشَّاهِقِ انْهَدَمَا
نَتِيجَةُ الْوَقْتِ لَوْ آلَى بِهِ رَجُلٌ
بِأَنَّهُ فَذٌّ هَذَا الدَّهْرِ مَا أَثَمَا
لَوْ أَنْصَفْتُهُ اللَّيَالِي فِي مَقَاسِمِهَا
لَأَوْطَأْتَهُ عَلَى هَامِ السُّهَى قَدَمَا
لَوْ لَمْ يَكُنْ فَضْلُهُ مِنْ حِظِّهِ بَدَلًا
مَا سَامَهُ الدَّهْرُ إِرْهَاقًا وَلَا حُرْمًا

(١) بكسر أوله ويجوز بالضم .

أو كان للحقّ في تلك الأمور يدٌ
 نَجَتْ به الحجة البَيضاء وما اتَّهِمَا
 ما كان يأملُ إلاَّ خَيْرَ أُمَّتِهِ
 ولا يَرْجِي لها إلاَّ عَزِيزُ حِمَى
 فإنَّ يَكُنْ طاشَ سَهْمٌ عن رَمِيَّتِهِ
 فكمْ ملومٌ على رَمِي سِوَاهُ رَمَى
 كمْ سَاءَ أَمْرٌ بِحَمْلِ الجاهِلينَ له
 ورُبَّما حلَّ عقداً بعضُ مَنْ نظماً^(١)
 لا يُحسِنُ الأَمْرَ إلاَّ مَنْ تَعَوَّدَهُ
 ما كُلُّ رَاكِبٍ خَيْلٍ يَحْفَظُ اللَّجْمَا
 وما نَجَّاحُ الْفَتَى كافٍ لِتَزْكِيَةِ
 ولا الحَبوطُ دَلِيلٌ أَنَّهُ وَهْمَا
 والْفَضْلُ والنَّقْصُ محتومٌ لزامهما
 كأنَّ بَيْنَ الرِّزَايَا والتَّهْيِ رَحْمَا
 ما زادَ جَوْهَرُ سامي الحَكِّ غيرَ سَنَى
 ولا عُرَى قَدْرُهُ نَقْصٌ بما اهْتَضَمَا
 وقَلَّما الدَّهْرُ ناوَى مِثْلَهُ أَسَدَاً
 مِمَّنْ رَعَى تَلْعَاتِ المَجْدِ والأَكْمَا
 مَهْدَبٌ لا تَرى في خُلُقِهِ عِوَجاً
 وصاحبٌ ليس يَذْري وَدَّه السَّامَا

(١) أي إن المبدأ كان صحيحاً والحركة مستراداً لمثلها ولكن الذين تولوا كبر
 هذا الأمر لم يحسنوا جميعاً العمل .

لم يَكْفِهِ التَّسَبُّ الْعَالِي فَضَمَّ لَهُ
 أصلاً وَفَضْلاً لَعَمْرِي مَا رَسَا وَسَمَا
 كَانَ الْأَوَائِلُ فِي الْأَنْظَارِ مَزْعَجَةً
 حَتَّى أَتَى فَشَاىَ مَنْ جَدَّ مِنْ قَدُمَا
 وَلَيْسَ مِنْ نَابِتٍ فِي عَصْرِنَا أَدْبَا
 إِلَّا بَغِيْثٌ مَعَانِيهِ زَكَا وَنَمَا
 مَا الْجَاهِلِيُّ وَلَا ذَاكَ الْمَخْضَرُ لَا
 وَلَا الْمَوْلُدُ مَعَهُ حَائِزٌ قَسَمَا
 وَكُلَّ نَابِغَةٍ فِي الشَّعْرِ مِلْتَمَسٌ
 مِنْ كَأْسِهِ رَشَفَاتٍ كِي يَبْلُ ظَمَا
 لَوْ جَاءَ فِي الزَّمَنِ الْمَاضِي وَعَاصِرُهُ
 حَكِيمٌ كِنْدَةٌ^(١) لَمْ يَزْعُمْ بِمَا رَعَمَا
 أَوْ كَانَ أَذْرَكَ عَصراً قَدْ تَقَدَّمَه
 عِيَّ حَبِيبٌ عَنِ الْإِنْشَادِ مُعْتَصِمَا
 يَضْطَاذُ كُلَّ شَرْوَدٍ فِي قَصَائِدِهِ
 فَلَيْسَ بَيْتٌ لَهُ عَنْ صَيْدِهَا حَرَمَا
 أَوْهَتْ فَصَاحَتُهُ الْأَقْوَالَ أَمْتَنَهَا
 حَتَّى تَكَادَ عَلَيْهَا تَوَثَّرَ الْبُكْمَا

(١) أي لو جاء المتنبي في عصره ما ادعى النبوة، وكندة محلة في الكوفة ولد فيها المتنبي فنسب إليها، وقيل الكندي وليس من كندة القبيلة التي منها امرؤ القيس الكندي، والفيلسوف الكندي، فالمتنبي من جهة القبيلة جعفي وهو جعفي بن سعد العشيرة من كهلان.

وردّ فارسها في الجري راجلها
 حتى تساوى أخو جهلٍ ومنَ علما
 فأنعوا لنا الشعرَ والآدابَ قاطبةً
 معه وقولوا الشوقي إنه يتما
 منَ للبدايعِ أو منَ للصنائعِ ^(١) أو
 منَ للوقائعِ إمّا داهمٌ دهما؟
 منَ للصّوارمِ أو منَ للمكارمِ أو
 منَ للمغارمِ يقضيها عنِ الغرما؟
 منَ للكتائبِ منَ للكُتبِ تشبهها؟
 تلكَ المحاسنُ أضحى عقدها انفصما
 يا يومَ محمودٍ ما أبقيتَ حمدةً
 إلّا وأوردتها في نَحبه العَدما
 تلكَ الخلالُ فهلَ آتٍ يجددها
 أو هلَ ترى أملَ العُلّيا بها حلما
 هيهاتَ يسعدُها شَهْمٌ يتأخ لها
 فالذهرُ ألامٌ من هذا النّدى شِيما
 لن يهتدي بعد محمودٍ دليلُ ننا
 ولستَ تبصرُ هذا الجرحَ ملتئما
 واللّه ما عَجَبِي مِنْ قُوتهِ عَجَبِي
 لمثله كيفَ حتى الآنَ قد سلّما

(١) الصنّيعَة: الإحسان والجمع الصنائع.

وطالما قلتُ إذ جادَ الزمانُ به
 من علّم الدّهر هذا الجودَ والكرما
 يا حليّة الشرقِ أضحى بَعْدَها عَظلاً
 وبيضة الدّهرِ عَنْ أمثالِها عَقِما
 إِنْ كَانَ لَمْ تَأْكُ الدُّنْيَا مَعَارِكَةً
 فَلَسْتَ أَوَّلَ حَرٍّ صَادَفَ النِّقْمَا
 مَا شَابَ مِنْكَ بَلَاءٌ نِيَّةً خُلِصَتْ
 وَمَنْ عَزَا لَكَ مِنْ ظُلْمٍ فَقَدْ ظَلَمَا
 كَمْ قَاصِدٍ لَمْ تَعِبْ مَسْعَاهُ خِيْبَتَهُ
 وَقَائِدٍ لَمْ يَنْلُ خَزِيئاً أَنْ انْهَزَمَا
 وَرَبِّ مُسْدِي يَدٍ يَلْقَى الْبَلَاءَ بِهَا
 وَرُبَّ جَانٍ سَعِيدٍ بِالذِي جَرَمَا
 إِنَّ التَّقَادِيرَ إِنْ أَجَرَتْ سَفَائِنَهَا
 الْحَقْنُ مَنْ كَانَ عَمُراً بِالذِي حَزُمَا^(١)
 لَا تَبْعَدَنَّ وَلَا يُبْخَسُ ثَنَاكَ فَلَمْ
 تَجِرْ إِلَّا إِبَاءَ الضَّيْمِ وَالشَّمَمَا
 وَاللَّهِ لَوْ كُنْتَ تَذْرِي مَا بَنَا كَمِداً
 لَكُنْتَ أَنْتَ لَنَا الرَّائِي وَمَنْ رَحِمَا
 لَيْسَ الَّذِي جَاوَرَ الدِّيمَاسَ فِي نَكْدٍ
 كَمَنْ يَزْجِي إِلَيْهِ الْهَمُّ وَالسَّقَمَا

(١) الغمر بفتح أوله الجاهل ، وحزم بضم وسطه صار حازماً .

إِنْ كَانَ حَبْلُ حَيَاةِ الْمَرْءِ أَجْمَعَهُ
أَحْبُولَةً كَانَ خَيْرَ الْحَبْلِ مَا انْصَرَمَا
فَاذْهَبْ عَلَيْكَ تَحِيَّاتُ الْمَهِيْمِينَ مَا
هَمَمِي بِتَرْبِكَ دَمْعُ الْمُزْنِ مُنْسَجِمَا
هَانَتْ بِمَضْرَعِكَ الْأَرْزَاءُ أَجْمَعُهَا
فَلَيْسَ يُجْزَعُ مِنْ رِزْقٍ وَلَوْ عَظُمَا



وقلت أرثي المرحوم محمد بك فريد رئيس الحزب الوطني
المتوفى في ألمانيا سنة ١٣٣٨هـ - ١٩١٩م :
[من الكامل]

قَدْ عَشْتُ فَذًّا فِي الرِّجَالِ فَرِيدَا
فَقَضَيْتَ فَذًّا فِي الْبِلَادِ فَرِيدَا
جَاهَدْتَ عَمْرَكَ ثُمَّ مَتَّ مَغْرَبًا
فَغَدَوْتَ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ شَهِيدَا
كَانَتْ حَيَاتُكَ حِفْظَ مِضْرٍ لِأَهْلِهَا
مَا غَيْرَ ذَلِكَ مَطْلَبًا مِنْشُودَا
جَاهَدْتَ نِصْفَ الْعُمُرِ فِي أَرْجَائِهَا
عِلْمًا وَنِصْفًا فِي الْغُرُوبِ شَرِيدَا
لِلَّهِ وَقِيَّتَ الْأَمَانَةِ حَقَّهَا
وَبَذَلْتَ فِيهَا طَارِفًا وَتَلِيدَا
وَأَذْبَتَ فِي حَسْرَاتِهَا كَبِدًا^(١) بِهَا
أُودِيَتْ تَحْرِقُ مِنْ ذَوِيكَ كُبُودَا

(١) لأنه توفي رحمه الله بمرض الكبد.

لم تَدَّخِرْ في حُبِّ مِصْرَ وَأَهْلِهَا
 وسعاً ولا جهداً هناك جهيدا
 ما عَزَّ عندك أن تَرْكُتَ لأَجْلِهَا
 وطناً وقصراً كالسدير مُشَيِّدا
 ولذائذاً ونفائساً أُوْرثتها
 عنها صرفت وعيلاً ووليدا
 غادرته طفلاً وطال بك النّوى
 فحُرِّمْتَ مَنْظَرُهُ وَصَارَ رَشِيدَا
 لَخَلَاصِ مِصْرَ قَدْ تَرْكُتَ مَآثِرَا
 بيضاً سهرت لها ليلالي سُودَا
 كنتَ المَتَّيِّمَ والعَمِيدَ بِحُبِّهَا
 فلذا لفتيتها غدوتَ عَمِيدَا ^(١)
 كَمْ خَطَاوُكُ وَعَانِدُوكُ وَكُلُّ مَنْ
 يفري فريَّكَ ^(٢) لم يَزَلْ مَحْسُودَا
 حتى تَمْخَضَتِ السَّنُونُ حَقَائِقَا
 خَرُّوا لَدِيهَا رُكْعَاً وَسُجُودَا
 عَلِمُوا بِأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ مَتَهَوِّرَا
 بل كُنْتَ تَنْظُرُ مُذْ نَظَرْتَ بَعِيدَا
 عَمَدُوا الرَّايِكَ فَأَنْقَلَبْتَ وَتِلْكَ مَنْ
 نَعَمَ الْإِلَهَ مَوْيِّدَا تَأْيِيدَا

(١) العميد الأول هو الذي هذه العشق والعميد الثاني هو سيد القوم .

(٢) فريّ الفري بتشديد الياء أتى بالعجب في عمله .

لَمْ تَحْتَضِرْ إِلَّا وَمِصْرُ كُلِّهَا
 لِنَظِيرِ صُنْعِكَ تَسْتَحِثُّ وَفُودَا
 فَلَشَدَّ مَا قَرَّتْ عُيُونُكَ عِنْدَمَا
 حَفَّ الْجَمِيعُ لَوَاءِكَ الْمَعْقُودَا
 فَانْظُرْ إِلَى مِصْرَ الْعَزِيزَةِ بَعْضَهَا
 مِثْلَ الْبَرِيمِ ^(١) بَعْضَهَا مَشْدُودَا
 تَمْشِي إِلَى التَّحْرِيرِ لَا هَيَّابَةَ
 خَطَرًا وَلَا الْمَوْتَ الزَّوَامَ مُبِيدَا
 صَارَتْ جَمِيعًا دَنْشَوَايَ وَإِنَّمَا
 صَارَ الْأَنَامُ عَنِ الْحَمَامِ مَصِيدَا
 حَاشَا وَلَوْ جَارَ الْقَوِيُّ وَلَوْ طَعَى
 أَحْرَارُ مِصْرَ أَنْ تَكُونَ عَبِيدَا
 مَهْمَا اسْتَعَزَّ الْعَالِبُونَ بِجَنْدِهِمْ
 فَالْحَقُّ أَعْظَمُ قُوَّةً وَجُنُودَا
 قَدْ أَقْبَلَ الزَّمَنُ الَّذِي أَبْنَاؤُهُ
 لَا يَحْمِلُونَ سِلَاسِلًا وَقِيُودَا
 نَمْ يَا فَرِيدُ عَلَى يَقِينِكَ إِنَّهُ
 يَوْمَ تَأْذُنُ بِالْخَلَاصِ عَتِيدَا
 لَا بُدَّ مِنْ فَرْجٍ قَرِيبٍ عِنْدَهُ
 مِصْرُ تَوْثَمَ شَخْصِكَ الْمَلْحُودَا

(١) الحبل المبروم .

وَيَبْشُرُونَكَ بِالْخَلَاصِ إِلَى الشَّرَى
 أَنْ قُمْ وَشَاهِدْ يَوْمَكَ الْمَوْعُودَا
 يَبْقَى مَعَ الْأَهْرَامِ ذِكْرُكَ ثَابِتاً
 وَيُظَلُّ قَبْرُكَ مِثْلَهَا مَشْهُودَا
 وَهَنَّاكَ تَنْقَلِبُ الْمَدَامِيعُ قَرَّةً
 وَيَعُودُ مَأْتُمُكَ الْمَفْجَعُ عِيدَا



رثاء نظمناه في جنيف في ١٨ مارس سنة ١٩١٩ وبعثنا به إلى ابن
 عمنا المرحوم الأمير توفيق مجيد أرسلان لدى علمنا بوفاة ولده مُلحم
 وكان نجيباً، وذلك بعد أن رجع من منفاه في الأناضول: [من الطويل]

لَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ تَعُودَ وَتَغْنَمَا
 وَتَنْسَى عَنَاءَ قَدْ مَضَى وَتَصْرَمَا
 وَتَعْتَذِرُ الْأَيَّامَ عَمَّا تَحَامَلْتَ
 عَلَيْكَ وَيَمْحُو الْيَوْمُ مَا الْأَمْسُ قَدَّمَا
 فَمَا رَاعَنِي إِلَّا مَصَابِكَ تَارِكاً
 لِيَالِيَّ أَيَّاماً وَيَوْمِي مُظْلَمَا
 وَسَهْمٌ تَلَقَّاهُ فَوَّادِي وَإِنَّهُ
 لَأَلَمَ مَا لَأَقَى نَبَالاً وَأَسْهَمَا
 أَجَلَ لَمْ تَزَلْ حَتَّى أَصَبْتَ (بِملحم)
 فَتَفْتَأُ حَتَّى الْمَوْتِ تَذَكَّرُ مُلَحْمَا
 مُصَابٌ تَشَاطَرْنَاهُ طَرّاً فَكَلَّنَا
 يَبْكِي عَلَى مَفْقُودِكَ الدَّمْعَ وَالدَّمَا

رأينا عظيماً قبله حادث التوى
 لعمري فجاء البين أذهى وأعظما
 وكنا نرجي فرحة بزفافه
 فواحسرتا اعتضنا من العرس مأتما
 وصارت به تلك التّهاني مراثياً
 وناح الذي قد شاء أن يترنما
 فتى لم يكن إلا بأعوامه فتى
 فقد كان في عقل الرجال وأحلما
 تقبل بالصبر الجميل بلاءه
 وحلى بشهد الطبع ما كان علقما
 تحمل من بلواه وهو مراهق
 لعمري ما لو حل طوداً تهذماً^(١)
 كأن الذي فيه من العقل قد أتى
 لنزداد فيه حسرة وتألما
 فأى فؤاد لا يذوب لمثله
 وأى سرور لا يكون محرماً؟
 أتوفيق ثق ما أنت في الخطب واحداً
 ولكنه حزن علينا تقسماً
 وإن كنت مجروح الفؤاد فكلنا
 غدا لك مجروح الفؤاد مكلما

(١) إشارة إلى مرض أليم أصابه في رأسه وتحمله بصبر الكبار رحمه الله .

تَنَاشَرَ دَمْعِي فَوْقَ طَرَسٍ أَخْطَه
 لَذَاكَ غَدَا نَشْرِي وَنَظْمِي تَوَامَا
 يَخِيلُ لِي مَبْكَاءُ عِنْدَ وَدَاعِهِ
 خِيالاً عَلَى بُعْدِ الدِّيارِ مَجَسِّمًا
 مَضَى وَبَقِيَتِ الْعُمُرُ تَذْكُرُ فَقْدَهُ
 فَيَا لَيْتَ شِعْرِي مَنْ تَرُوحُ مِنْكُمَا
 مَضَى وَلَوْ الْمَاضِي يُهِنَا عَلَى الرَّدَى
 لَقُلْتُ لَهُ اضْحَكْ ضَاحِكًا مَتَبَسِّمًا
 فَمَا هَذِهِ الدَّارُ الْعَزِيزَةُ عِنْدَنَا
 بِأَهْلِ لَعْمُرِي أَنْ تَعَزَّ وَتُكْرَمَا
 إِذَا سَبَرَ النَّاسُ الْأُمُورَ بَدَتْ لَهُمُ
 حَقَائِقُ لَا تُبْقِي فُرَادًا مَتِيْمًا
 فَكَمْ فَرِحَ فِيهَا بِخَيْرٍ أَصَابَهُ
 يَعُودُ عَلَيْهِ حَسْرَةٌ وَتَنْدَمَا
 وَكَمْ نَعِمَةٌ تَبْدُو فَتَرْجِعَ نَقْمَةً
 وَمَغْنَمُ قَوْمٍ عَادَ مِنْ بَعْدِ مَغْرَمَا
 عَزَاءُكَ يَا ابْنَ الْعَمِّ هَلْ ثَمَّ حِيلَةٌ
 تَصَدُّ بِهَا ذَاكَ الْقَضَاءُ الْمُحْتَمَّمَا؟
 وَمِثْلُكَ مَنْ قَدْ غَلَبَ الْعَقْلُ وَالْحَجَى
 عَلَى حَسِّهِ عِنْدَ الْمُصَابِ وَحَكَّمَا
 رَجَوْتَ إِلَهِي فِي بَنِيكَ الْأُلَى بَقَوْا
 بَأَنْ يَسْلَمُوا فِي جَانِبِيكَ وَتَسْلَمَا

ويملاً مرآهم عُيُونَكَ قَرَّةً
ويغدوا بدوراً في البلاد وأنجما

رثاء للمرحوم الأمير عبد القادر نجل جناب الخديوي عباس
حلمي توفاه الله إلى رحمته في ٢٠ أبريل سنة ١٩١٩م وذلك في
برلين وكنا حينئذ في مونترو من سويسرا نازلين في فندق مونترو
بالاس، وكان في الفندق نفسه جناب الأمير محمد علي عم الأمير
الفقيد فعزينا بالأبيات الآتية:

[من الطويل]

أَسْأَلُ^(١) دَمْعِي هَلْ غَدَوْتَ مُجِيبِي
إِذَا شِئْتَ أَطْفِي حَرَقْتِي وَلَهْيَبِي؟
وَهَيْهَاتَ أَنْ يَقْوَى عَلَى النَّارِ صَيِّبُ
وَرِيحِ الرِّزَايَا أَذْنَتْ بِهَبُوبِ
لَنْ بَكَّتِ الْخَنَسَاءُ صَخْرًا فَإِنَّهُ
لَقَدْ بَاتَ يَبْكِي الصَّخْرَ طُولَ نَحْيَبِي
يَقُولُونَ لِي صَبْرًا فَقَدْ ذُبْتُ لَوْعَةً
وَمَا دَوْبٌ مِثْلِي فِي الْأَسَى بِعَجِيبِ
أَأَحْسَبُ قَلْبِي مِنْ حَدِيدٍ وَإِنْ يَكُنْ
فَكَمْ مِنْ شِرَارٍ لِلْحَدِيدِ مَذِيبِ
وَقَالُوا أَلَا مَهْلًا تَأْسَ بِمَنْ مَضَوْا
فَلَيْسَ مُصَابٌ جَارِعٌ بِمُصِيبِ

(١) يجوز أن يكون أسائل بمعنى أسأل، ويجوز أن يكون اسم فاعل من سأل.
وعلى الوجه الأول الفعل المضارع مرفوع، وعلى الوجه الثاني الإسم
المنادى منصوب.

فقلتُ ذروني والأسى ليس مغنياً
 كلام خطيبٍ معِ كلامٍ ^(١) خطوب
 أجلٌ مقامي في المحبة والوفا
 عن اللهو والسَّلوانِ بعد حبيب
 ورُبَّ محبٍّ باتَ يسألُو حبيبَه
 ألا تلكَ أجسامٌ بغيرِ قلوبٍ
 أفي كلِّ يومٍ للمنيّةِ حَدٌّ
 يُسِيلُ مِنَ الْأَجْفَانِ كُلَّ صَبِيبٍ؟
 تعمّدنا رَيْبُ المَنُونِ بضربةٍ
 أبى الدَّهْرُ أَنْ يَأْتِيَ لها بضريبٍ
 أَصَبْنَا (بعبد القادر) اليومَ إذْ عَدَتْ
 تُنَاطُ بِهِ آمَالُ كُلِّ لَبِيبٍ
 هَوَى كوكباً باتت لوقعِ غُروبِه
 جميع المآقي مترعات غروبٍ ^(٢)
 هَوَى كوكباً كالْبَدْرِ تَمّاً وإنْ عَدَا
 قريبَ المَدَى من مَشْرِقٍ لمغيبٍ
 فَقُلْ أَيُّ وَجْدٍ فِي الْجَوَانِحِ محرقٍ
 على أي غُصْنٍ فِي الثُّرَابِ رَطِيبٍ؟

(١) كلام الثانية بكسر أولها جمع كلم وهو الجرح .

(٢) الغروب الأولى جمع غرب ومعناه الحدة: تقول كفكفت من غربه .
 والغروب الثانية غرب وهو الدمع أو هو عرق في العين يسقي ولا ينقطع .

لَيْنُ لَمْ يَجَاوِزْ سِتَّ عَشْرَةَ حِجَّةً
لَقَدْ جَازَ فِي الْإِدْرَاكِ أَهْلَ مَشِيبِ
قَرَأْتُ لَهُ كُتُباً قُبَيْلَ نَعِيَّةِ
بِأَمْثَالِهَا يَخْتَالُ كُلُّ أَدِيبٍ ^(١)
أَبَى نَكَدُ الْأَيَّامِ إِلَّا أَفْوَلَهُ
وَهَلْ تَوَثَّرُ الدُّنْيَا حَيَاةَ نَجِيبِ
وَكَانَ الَّذِي لَوْ عَاشَ أَحْيَا جُدُودَهُ
وَأَمْسَى بِوَادِي التَّيْلِ كُلِّ خَصِيبِ
عَزِيزٌ نَمَاهُ عَرْشُ مِصْرَ وَقَدْ فَضَى
مَنْيَّةَ نَاءٍ فِي الْبِلَادِ غَرِيبِ
مِنْ الْعُلُوِّينَ الْأَعَاطِمَ فَضْلُهُمْ
عَلَى كُلِّ قَاصٍ عَنْهُمْ وَقَرِيبِ
يَرْجِيهِمُ الْإِسْلَامُ فِي كُلِّ مَازِقِ
وَفِي كُلِّ يَوْمٍ لِلزَّمَانِ عَصِيبِ
قَضَى الْعَدْلُ أَنَا فِي الْكَوَارِثِ كُلِّهَا
نُشَاطِرُ مِنْ أَحْزَانِهِمْ بِنَصِيبِ
سَأَلْتُ لَهُمْ طَوْلَ الْبَقَاءِ وَسِيلَةً
لِنَصْرَةِ أَقْوَامٍ لَهُمْ وَشُعُوبِ
وَرَفَعَةُ أَوْطَانٍ وَعِزَّةُ مَلَّةِ
وَكَبْتُ عَدُوَّ كَاشِحٍ وَرَقِيبِ

(١) كان عمه الأمير محمد علي قرأ لي بعض كتب من الشباب الفقيد رحمه الله .

وقلت أرثي المرحوم أحمد مختار بيهم عين أعيان بيروت في
وقته وكانت وفاته سنة ١٩٢٠م. [من الكامل]

هَلَّا وَأَنْتَ الْجَوْهَرُ الْمَخْتَارُ
عَنْ نَيْلٍ مِثْلِكَ تَصْبِرُ الْأَقْدَارُ
وَتَكُونُ عَنْ دَارِ الْعُلَى مُتَأَخَّرًا
وإِلَى الْعَلَاءِ لَكَ السَّبَاقُ شِعَارُ
سَابَقْتَ فِي الدُّنْيَا إِلَى مَا بَعْدَهَا
وَكَذَا الْفَنَاءُ إِلَى الْبَقَا مِضْمَارُ
أَبْقَيْتَ مِنْ غُرَرِ الْفَعَالِ مَآثِرًا
الْيَوْمَ هَنْ بَرَا حَتِيكَ مَنَارُ
وَتَرَكْتَ مِنْ ظُلَمِ الْحَيَاةِ لِيَالِيَا
هِيَ عِنْدَ رَبِّكَ كُلُّهَا أَسْحَارُ
إِلَّا تَكُنْ تِلْكَ الْحَيَاةُ طَوِيلَةً
فَلَقَدْ يَسَاوَى الْعَامَ مِنْكَ نَهَارُ
أَوْ كُنْتَ وَدَّعْتَ الْأَحَبَّةَ عِبْطَةً (١)
بِكْرًا فَعَمْرُكَ وَحْدَهُ أَعْمَارُ
كَمْ فِي الشَّبَابِ الْغَضُّ مِنْكَ كَهَوْلَةً
وَعَلَيْهِ مِنْ دُونَ الْمَشْيِيبِ وَقَارُ
سُرْعَانَ مَا اخْتَرْتَ الرَّحِيلَ أَشَدَّ مَا
اِحْتَاجَتْ لَكَ الْأَوْطَانُ وَالْأَوْطَارُ

(١) أعبطه الموت أخذه شاباً صحيحاً بدون علة .

لو لم نكن نُدري وَفَاكَ وأنه
 أَجَلٌ لَقُلْنَا جَفْوَةً وَنَفَارُ
 لَبَّيْتَ مَنْ مَلَأَ الْمَلَائِكَ دَاعِيَا
 فَوْرًا وَشَأْنِكَ فِي الْأُمُورِ بَدَارُ
 وَجَدُوكَ أَجْدَرَ بِالْجَنَانِ وَشَاقَهُم
 يَوْمَ تَجَاوَرَهُمْ وَنِعْمَ الْجَارُ
 غَارَتْ مِنَ الْأَرْضِ السَّمَاءُ نَفَاسَةً
 بِكَ وَالضَّرَائِرُ بَعْضُهُنَّ يَغَارُ
 فَازَتْ بِكَ الْخَضْرَاءُ لَذَا غَبْرَاؤُنَا
 تَبْكِي نَوَاكٍ وَدَمْعُهَا أَنْهَارُ
 لَا غُرُو أَنْ نَرْزَأَ بِفَقْدِكَ مَا جَدَا
 فَبِكُلِّ مَجْدٍ لِّلْمَنِيَّةِ ثَارُ
 أَوْ أَنْ تَكُونَ لِسَهُمْ دَهْرِكُ مُعْرِضًا
 هَدَفًا فَأَغْرَاضُ الْكِبَارِ كِبَارُ
 مَا كَانَ خَطْبُكَ سَيِّدًا قَدْ غَابَ بَلْ
 جَمْعًا يَضِيعُ وَجَانِبًا يَنْهَارُ
 قَدْ كُنْتَ فِي الْأَوْطَانِ قَبْلَةَ مَعْشَرِ
 يَهْدُونَ هَذِيكَ إِنْ سَرَوْا أَوْ سَارُوا
 كَانُوا إِذَا مَا أَبْصَرُوكَ أَمَامَهُمْ
 رَشَدُوا وَإِنْ ضَلُّوا سَبِيلَكَ حَارُوا
 ذَكَّرُوا مَكَانَ أَبِيكَ فِي أَيَّامِهِ
 عَلَّمَا إِلَيْهِ بِالْبَنَانِ يُشَارُ

فحَذَوْتَ حَذْوَ أَبِيكَ بَلْ جَاوَزْتَهُ
 إِنَّ الْبَنِينَ لِأَهْلِهِمْ أَشْرَارُ
 لَمْ تَجْتَزِءَ بِتَلِيدِ مَجْدِكَ عَالِماً
 أَنَّ الرِّجَالَ إِذَا مَضَتْ أَخْبَارُ
 فَنَهَضَتْ لِلْعَلْيَا بِنَفْسِكَ طَالِعاً
 أَنْجَادَهَا وَالْفَضْلُ لَيْسَ يُعَارُ
 أَمْسَيْتَ فِي الْعُرْبِ الْكِرَامِ مَنَارَةً
 تَعْشُو لَضَوْئِكَ يَعْزُبُ وَنَزَارُ
 بِعِزَائِمٍ مَشْبُوبَةٍ وَمَكَارِمِ
 عَنْهُمْ بِيَعَانُ الْكِرَامِ قِصَارُ
 كَانَتْ خِلَالِكَ فِي الْأَنَامِ فَرِيدَةً
 بِنَظِيرِهَا تُسْتَظَرَفُ الْأَشْعَارُ
 لَمْ يَقْصِرِ الْمَدَاحُ فِيكَ وَرَبِّمَا
 سَكَتَ اللِّسَانُ وَقَالَتِ الْآثَارُ
 الْهَمَّةُ الْقَعْسَاءُ يَرِبُضُ تَحْتَهَا
 جَاشُ بَرْكِنِ ذُرَاهِ لَيْسَ يُطَارُ
 تَلَقَّى الْخُطُوبُ بِقَلْبِ شَهْمٍ عِنْدَهُ
 أَبْدَأُ كِبَارُ الْحَادِثَاتِ صِعَارُ
 حُرِمْتَ بِلَادُكَ فِي مُصَابِكِ وَاحِداً
 هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ جَحْفَلٌ جَرَّارُ
 أَتَخَيَّلُ الْأَرْجَاءَ بَعْدَكَ قَدْ خَلَتْ
 فَكَأَنَّمَا تِلْكَ الرُّبُوعُ قِفَارُ

لا الثَّغْرُ ثَغْرٌ إِذْ غَدَوْتَ بِرَمْلِهِ
 رهن الضَّريح ولا الدِّيار ديارُ
 أعزُّ عليَّ أبا أمينٍ أنه
 أملي بقُربك عاد وهو بَوارُ
 قد كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أراكَ وَإِذْ بِهِ
 ما بعد ذياك العشي عرارُ^(١)
 قد كنت طُول البُعْدِ نَصَبَ نَوَاطِرِي
 وَيَرَى الْفَوَادُ وَلَا تَرَى الْأَبْصَارُ
 أَبْدأَ أَطَارِحُكَ النّجِي^(٢) كَأَنَّا
 رَغَمَ الْمَسَاوِفَ كُلَّهَا سَمَارُ
 ما مرَّ عن بيروتَ سَانِحُ خَاطِرِ
 إِلَّا وَمَثَّلَ شَخْصَكَ التَّذْكَارُ
 أَوْ لَا تَكُونُ كَذَا وَأَنْتَ بِأَرْضِهَا
 قَطَّبَ الرِّحَى وَعَلَى الْقُطُوبِ يَدَارُ
 أعزُّ عليَّ أبا أمينٍ أَنَّنِي
 أرثيكَ نَظْمًا وَالدَّمْعُ نِشَارُ
 سدك^(٣) الْبُكَاءُ بِمَقْلَتِي فَأَدْمَعِي
 بهما غزارُ والرقاد غرارُ^(٤)

(١) إشارة إلى قول الشاعر :

تمنع من شميم عرار نجد فما بعد العشيّة من عرار

(٢) النجي والنجوى واحد . (٣) سدك به : لزمه .

(٤) قليل النوم .

أَغْزَرَ عَلَيَّ بَأْسَ مُضِيَّتَ وَلَمْ تَزَلْ
 تِلْكَ الْمُئْنَى وَفَنِيَقِهَنَّ حِوَارُ^(١)
 وَالنَّاسُ شَائِمَةٌ بِوَارِقُ لَمَّعَا
 تَخْبُو وَتَوْمُضُ وَالْقُلُوبُ حِرَارُ
 يَتَذَكَّرُونَكَ كُلَّ حَزَّةٍ مَا زَقِ
 وَلَدَى الْحَنَادِسِ تُنْشِدُ الْأَقْمَارُ
 إِذْ سَيْفُ رَأْيِكَ فِي الْحَوَادِثِ فَيُصَلُّ
 وَنَدَى يَمِينِكَ دِيمَةً مِذْرَارُ
 وَمِنْ الْقُلُوبِ مَعَاصِمٌ وَمَعَاقِلُ
 وَمِنْ الْعُقُولِ أَسِنَّةٌ وَشِفَارُ
 قَدْ كَانَ عَهْدُكَ لِلرِّقَاقِ : تَذَكَّرُوا
 حَقَّ الْبِلَادِ وَإِنَّكُمْ أَحْرَارُ
 حَقُّ الْبِلَادِ بَأْسَ تَكُونَ لِأَهْلِهَا
 مُلْكاً صَرِيحاً مَا عَلَيْهِ غِبَارُ
 أَوْطَانُنَا فِي الْأَرْضِ خَالِصَةٌ لَنَا
 نَحْنُ الطَّيُورُ وَهَذِهِ الْأَوْكَارُ
 لَا تَبْعَدَنَّ فَإِنْ تَغِبَّ يَا أَحْمَدُ
 تَحْتَ الثَّرَى فَلْأَحْمَدِ أَنْصَارُ
 لَاحَتْ تَبَاشِيرُ الْخَلَاصِ وَإِنَّمَا
 يَبْدُو الصَّبَاحُ وَقَبْلَهُ الْإِسْفَارُ

(١) الفنيق وزان أمير الجمل المكرم لا يركب، والحوار ولد الناقة مذ يولد إلى أن يفطم.

ضَلَّ الْأُلَى حَسِبُوا الْبِلَادَ غَنَائِمًا
 تَلَكُ الْجَنَانُ جِنَانٌ جَلَّتْ نَارُ
 وَالطَّامِحُونَ إِلَى الْفُرَاتِ وَدَجَلَةٌ
 مَجْرَى الْفُرَاتِ وَدَجَلَةٌ تَيَّارُ
 وَالْبَائِعُونَ الْقُدْسَ رَهْطَ صَيَارِفِ
 مَا لِلصَّيَارِفِ عِنْدَنَا دِينَارُ
 قَدْ كَانَ أُمَّ بِلَادَنَا آبَاؤُهُمْ
 أُمَمًا فَلَا قَى رِيحُهُمْ إِعْصَارُ
 لَوْ يَذْكُرُونَ مِنَ الْحَوَادِثِ مَاضِيًا
 مَا غَرَّهُمْ لِمَقَامِنَا اسْتِحْقَارُ
 لَكِنَّهُمْ أَمِنُوا الزَّمَانَ كَأَنَّمَا
 بَيْنَ الزَّمَانِ وَبَيْنَهُمْ آصَارُ
 وَتَوَهَّمُوا تِلْكَ الْعُصُورَ وَقَدْ خَلَتْ
 لَيْسَتْ تُعَادُ وَمَا لَهَا تَكْرَارُ
 كَلَّا وَرَبِّكَ مَا أَصَابَ حِسَابُهُمْ
 وَلِكُلِّ قَوْمٍ نَهْضَةٌ وَعِثَارُ
 إِنَّ الزَّمَانَ هُوَ الزَّمَانُ تَقَلُّبًا
 مَا دَامَ إِلَّا الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ



مرثيتي للأخ الأبر والأستاذ الأشهر الشيخ عبد العزيز جاويز
 أرسلتها من لوزان إلى مصر وتليت في حفلة الأربعين لوفاته رحمه
 الله سنة ١٣٤٧ هـ.

[من الكامل]

لم تُبقِ بعدك في الخطوب جليلاً
 مُدْشِئَتَ يا عَبْدَ العزيزِ رَحِيلاً
 خَلَفْتَ للإسلامِ أيَّ مناحيةٍ
 طَمَتِ وعَمَّتِ عَرْضُهُ والطُّولا
 في كلِّ أَرْضٍ نصَّ فيها منبرٌ
 يَتَذَكَّرُنكَ بُكْرَةً وأصيلاً
 يَتَذَكَّرُونَ مواقفاً مشهورةً
 لك ليس تترك للمراءِ سبيلاً
 ومآثراً في الخافقين حديثها
 ومعالياً رُنْتَ حُلًى وحجولا
 ما العبقريةُ والتي يصفونها
 إلا حياتك مثلت تمثيلاً
 الخاطرُ الوقادُ إن يَبْدُرَ مَضَى
 في الحادثاتِ أسِنَّةٌ ونُصُولا
 والمنطقُ الفيّاضُ إن يهدرُ غداً
 يتدفقُ الإبداعُ منه سيولا
 لا فَرْقَ بين السّامعيك وقد وَعَوْا
 ما قَلتِه والشاربين شُمُولا
 وإذا جَرَزْتَ على الطُّروسِ يراعةً
 بات الصَّريْرُ براحتيك صليلاً
 تلك اليَراعةُ ودَّ أكبر قائدٍ
 لو أنها في كَفِّه ليصولا

تتجاوبُ الآفاق عن أضدائها
ويرتّلون فُصولها ترتيلاً
هيهات يا عبد العزيز أخو على
من دَرَك شأوك يبلغ المأمولا
لم يعلم الخلق الكريم ولا الحيا
مَنْ ليس يَعْلَم خُلقك المعسولا
لم يَعْلَم الآداب كيف تجسّمت
بشراً فتى لم يصطحبك طويلاً
فكأن ربك عن خُلقك قد أبى
أن لا تكون مكملاً تكميلاً
تغدو أرق من النسيم فإن عرا
خُطب غدوت الصّارم المسلولا
في نعمة الحمل الوديع فإن عدا
عاد ترى أسداً يفارق غيلاً
أسد متى يزأر لأمة أحمد
ملاً الفرات زئيره والنّيلا
شبحان لم يبصر عليها ذلّة
إلاً ومَدّ ذراعهُ المفتولا
رضي المصائب والنوائب والتوى
والحبس حتى لا يعيش ذليلاً
يعفّو الجرائر نحوه طراً ولا
يعفّو إذا الإسلام غَضّ فتياً

جَعَلَ الْجِهَادَ نَصِيبَهُ عَنْ قَوْمِهِ
 فَقَضَى الْحَيَاةَ مَغْرَبًا مَجْفُولًا^(١)
 لَا تَعْظُمُ الْأَخْطَارُ فِي أَبْصَارِهِ
 مَا دَامَ يَبْصُرُ حَقَّهُمْ مَأْكُولًا
 يَا رَاحِلًا أَبْقَى فِرَاقًا هَائِلًا
 هِيَهَاتَ تَمْلَأُهُ الرَّجَالُ فَحَوْلًا
 أَلَيْتُ لَا أَنْفَكُ عَهْدَكَ رَاعِيًا
 حَتَّى أُغْرِبَ فِي التَّرَابِ مَهِيلًا
 غَادَرْتَ لِي قَلْبًا عَلَيْكَ مَقْطَعًا
 دَامِي الصَّمِيمِ وَمَدْمَعًا مَوْصُولًا
 وَسَأَلْتُ دَمْعِي أَنْ يَجِيبَ جَوَانِحِي
 فَانْبَاعَ يَجْرِي سَائِلًا مَسْؤُولًا
 أَنْسَى لِعَمْرِي وَالْدَيَّ وَعِثْرَتِي
 إِنْ كُنْتُ أَنْسَى فَضْلَكَ الْمَسْجُولًا^(٢)
 إِذْ أَنْتَ بَرٌّ بِي كَمَا نَفْسِي وَإِذْ
 تَغْدُو عَلِيلًا أَنْ أَكُونَ عَلِيلًا
 إِنِّي أَحْنُ إِلَى اجْتِمَاعِ الشَّمْلِ فِي الْأَخْ
 رَى كَأَنَّا فِي الْحَيَاةِ الْأُولَى
 رَبِّ الْوَفَاءِ وَصَفْوَةِ الْخَلَانِ قُلْ
 أَتْرَكْتَ مِثْلَكَ يَاسِرًا فَيَجِيلًا؟

(١) جفله : نفره .

(٢) سجل الماء : صبه .

أَبَقْتُ عَلَيْكَ الْحَادِثَاتُ كُلَّومَهَا
 وَالسَّيْفُ يُكْسِبُ بِالْجَلَادِ فَلَوْلَا
 شَقَّتْ وَجُودُكَ هِمَّةَ جِبَارَةٍ
 تَجِدُ الصَّعُودَ إِلَى السَّمَاءِ نَزُولَا
 أَتَظُنُّ أَنَّ تَمْضِي وَأَبْقَى وَافِرًا
 هِيَهَاتَ قَدْ صَارَ الْبَقَاءُ قَلِيلَا
 يَا أَيُّهَا الْمَوْلَى بِحَبِّكَ قَدْ مَضَى
 (عبد العزيز) مَتِيْمًا مَتَبُولَا
 أَمْطَرَ عَلَى ذَاكَ الثَّرَى غَيْثَ الرِّضَى
 وَاجْعَلْهُ رَبِّ لَدَى عُلَاكَ نَزِيلَا
 قَدْ كَانَ فَعَّالَ الْجَمِيلِ حَيَاتِهِ
 فَأَثْبُهُ فِي دَارِ الْمَعَادِ جَمِيلَا



ولما اطلعت على مرثية شوقي للشيخ جاويز أعجبت بها،
 فارتجلت هذه الأبيات وقد نشرت في جريدة الشورى: [من المتقارب]

تَفَوَّقَ شَوْقِي بِأَشْعَارِهِ
 جَمِيعًا فَكُلُّ يَتِيمٍ فَرِيدُ
 وَمَا دَمَتَ تَجْتَازُ أَرْجَاءَهَا
 تَعُودُ بِكُلِّ طَرِيفٍ جَدِيدُ
 تَوَالَى الْهَتَافُ لَدَى كُلِّ بَيْتٍ
 أَلَا إِنَّ ذَلِكَ بَيْتُ الْقَصِيدِ

إِذَا هُوَ أَبْكَى فَزَادُ الْمَعَادِ
 وَإِنْ هُوَ عَنَّى فَأَنْسُ الْوَجُودَ
 وَلَكِنْ قَصَائِدُ شَوْقِي الْلَوَاتِي
 لَهُنَّ سَجَلٌ بَلَوُحِ الْخُلُودِ
 فِدَاءً لِمَرَثِيَةٍ قَالَهَا
 بَعْدَ الْعَزِيزِ : الْعَزِيزُ الشَّهِيدُ
 أَعَارَ الرِّثَاءَ جَلَالَ الْفَقِيدِ
 فَأَصْبَحَ هَذَا لِهَذَا نَدِيدُ
 وَقَدْ كَانَ مِنْ قَبْلُ هَذَا مَبِيناً
 بِشَأْوِ مَحَالٍ عَلَيْهِ الْمَزِيدُ
 تَكَادُ لِإِخْرَازِ أَقْوَالِ شَوْقِي
 تَكُونُ الْمَنَايَا أَمَانِي الْفَقِيدِ



ورثيت صديقي عين أعيان جبل عاملة ومبعوث بيروت في
 مجلس النواب حاتم عصره كامل بك الأسعد رئيس آل علي الصغير
 وكانت وفاته رحمه الله سنة ١٣٤٣ هـ.

[من البسيط]

هَوَى لِفَقْدِكَ رُكْنُ الشَّرْقِ وَاحْرَبَا
 يَا كَامِلَ مَنْ يَسْلِي بَعْدَكَ الْعَرَبَا
 كُلَّ الْمَصَائِبِ يَفْنِي الدَّهْرُ شِرَّتَهَا
 إِلَّا رَدَاكَ فِيَفْنِي الدَّهْرُ وَالْحَقْبَا
 كُنَّا نَرْجِيكَ لِلْجَلَّى تَذَلُّلَهَا
 فَالْيَوْمَ مَنْ يَنْبِرِي لِلْخُطْبِ إِنْ وَثَبَا

تلقى النوازل بالأفعال صادقة
 والناس في الخطب تُسدي القول والخطبا
 ردت مصيبتك الأرزاء هينة
 من بعدها وغدت أكبادنا صُلبا
 هيهات تدخر الآفاق سائلة
 من المدامع تبغي بعدك الصِّبا
 لو كنت مع حاتم الطائي في زمن
 ما نال في الكرم الاسم الذي كسبا
 نذاك بالعين مشهود ونائله
 هيهات نعلم منه الصدق والكذبا
 قد كنت تهوى من الأخلاق أسمىها
 لقاصدٍ ومن العلياء ما صعبا
 لله درك سباقاً لمكرمة
 كالسيف منصلتاً والسيل قد زعبا
 يا أمة سكنت أكناف عاملة
 وأوطنت شعفات العز والهضبا
 هل عندكم قومنا عن كامل خبر
 فقد أتانا نبا أن قد نأى ونبا
 اللامع الرأي إن يدج الزمان بكم
 والخالف الغيث إن تستبطئوا السحبا
 كانت عيالا عليه منكم زمراً
 من كان منهم يتيماً راء^(١) فيه أبا

(١) راء مثل رأى ومنه: بك راء نفسك لم يقل لك هاتها.

كَانَتْ بِكَامِلِكُمْ أَرْجَاءَ عَامِلِكُمْ
 تَتِيهِ عَجَباً عَلَى الدُّنْيَا وَلَا عَجَباً
 قَالُوا عَمِيدَ بَنِي النَّصَارِ قُلْتُ لَهُمْ
 بَلْ رُكُنُ كُلِّ أَمْرٍ فِي يَعْزُبِ انْتَسَبَا
 لَوْ أَنْصَفْتَ حَقَّهُ أَفْنَاءُ عَامِلَةٍ
 مِّنَ الْبُكَارِ فِيهَا الصَّخْرُ وَانْتَحَبَا
 لَهْفِي عَلَى كَامِلِ الْأَوْصَافِ كَيْفَ ثَوَى
 ذَاكَ الْمَحْيَا ظِلَامَ الرُّمُسِ وَاحْتَجَبَا
 لَهْفِي عَلَى الْبَدْرِ قَدْ غَابَتْ مَطَالِعُهُ
 لَهْفِي عَلَى الْبَحْرِ ذِي الْأَمْوَاجِ قَدْ نَضَبَا
 لَهْفِي عَلَى السَّيِّدِ الْغُطْرِيفِ تُحَرَّمُهُ
 طَوَائِفُ طَالَمَا اسْتَكْفَفَتْ بِهِ النُّوْبَا
 لَهْفِي عَلَى الْكَامِلِ الْفَدِّ الَّذِي فَقَدْتُ
 بِهِ الْوَرَى الْمَثَلَ الْأَعْلَى لِمَنْ وَهَبَا
 عَلَى الَّذِي لَوْ قُضِيَتِ الدَّهْرُ تَضَحَّبُهُ
 لَمْ تَلْقَ إِلَّا الْوَفَا وَالصَّدَقَ وَالْأَدْبَا
 تَقْرَأُ عَلَى وَجْهِهِ آيَاتِ شَيْمَتِهِ
 وَتَنْشِي قَائِلاً سُبْحَانُ مَنْ كَتَبَا
 أَخْ أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي لِنَائِبَةٍ
 وَلَا أَعَزُّ عَلَيْهِ إِخْوَتِي نَسَبَا
 فِي كُلِّ يَوْمٍ أَرَى مِنْهُ أَخَا ثِقَةٍ
 إِذْ مَنْ سِوَاهُ أَرَى الْحَسَادَ وَالرَّقْبَا

كم كُنْتُ أَمَلُ أَنْ أَحْظَى بِطَلْعَتِهِ
 يوماً وَأُطْفِئَ مِنْ أَشْوَاقِي اللَّهْبَا
 كم كُنْتُ أَذْكَرُ فِي غَرْبَتِي كَلْفًا
 أَحْدُو إِلَى وَجْهِهِ الْوَضَّاحَ رِيحَ صَبَا
 حَتَّى أَتَانِي نَعْيٌ غَيْرُ مُنْتَظَرٍ
 أَلْفَيْتُ نَاضِرَ آمَالِي بِهِ حَطْبَا
 وَيَلَمُّهَا جَمَلَةٌ لَمَّا بَصُرْتُ بِهَا
 خِلْتُ الْمَنَايَا أَمَانِي وَالْحَيَاةَ هَبَا
 مِنْ لِي بِأَنْ أَمْسَكَ الدَّمَعَ الْهَثُونَ عَلَى
 خَدِّي وَأَنْ أَدْرِكَ النَّوْمَ الَّذِي هَرَبَا
 مَهْلًا بَنِي الْأَسْعَدِ الْأَمْجَادِ خَطْبُكُمْ
 خَطْبٌ بِهِ الْوَطَنُ الْمَحْبُوبُ قَدْ نُكِبَا
 تَبْكِي لَهُ الْعُرْبُ الْعَرَبَاءُ أَجْمَعُهَا
 مِنْ سَاكِنٍ مَدْرًا أَوْ ضَارِبٍ طُنْبَا
 وَلَوْ عَقَدْنَا عَلَيْهِ كُلَّ شَارِقَةٍ
 مَنَاحَةً مَا قَضَيْنَا بَعْضَ مَا وَجَبَا
 لَكِنَّمَا الْمَوْتُ حَتَمٌ لَا يَحْيِيكَ بِهِ
 حُزْنٌ وَلَا عَارِضٌ لِلدَّمَعِ مُنْسَكِبَا
 زَعَمْتُ أَتَى أَعَزِّيَكُمْ بِمَوْعِظَتِي
 فَيَا تَرَى مَنْ يَعَزِّينِي بِمَنْ ذَهَبَا
 وَإِنَّمَا نَحْنُ طَرًّا رَكْبُ قَافِلَةٍ
 وَكَلْنَا شَارِبُ الْكَأْسِ الَّذِي شَرَبَا

يا ربَّ أَمْطِرْ ثَرَاهُ كُلَّ غَادِيَةٍ
تَخْضَلُ مِنْهَا بَقَاعُ حَوْلِهِ وَرُبَى
آتَيْتَهُ كَرَمَ الْأَخْلَاقِ مِنْقَبَةً
فَكُنْ كَرِيماً عَلَيْهِ رَبَّنَا حَدِيبَا



رثائي للمرحوم أخي نسيب المتوفى في ١٠ جمادى الآخرة سنة
١٣٤٦ هـ .

[من البسيط]

نَسِيبٌ قَدْ كَانَ سَارِي الطَّيْفِ أَبَدَى لِي
رُؤْيَا تَنَاهَى بِهَا دُعْرِي وَإِجْفَالِي
رَأَيْتُ فِي دَارِنَا الْأَفْوَاجَ أَشْبَهَ بِالْأَ
مُوجِ مَا بَيْنَ إِدْبَارِ وَإِقْبَالِ ^(١)
فَقُمْتُ وَالْبَالُ مِنِّي كَاسِفٌ قَلْقَاً
مُسْتَقْبَلًا مِنْ حَيَاتِي كُلِّ ذِي بَالٍ
وَمَا مَضَتْ سَاعَةٌ إِلَّا أَذِنْتُ بِهَا
مَصِيبَةً حَقَّقْتُ خَوْفِي وَأَوْجَالِي
غَدْتُ عَلَيَّ سُلُوكُ الْبَرْقِ نَاقِلَةً
نَبَأً يَقْطَعُ أَسْلَاقِي وَأَوْصَالِي
تِلْكَ التَّعَازِي الَّتِي الْإِخْوَانُ تَبْرِقُهَا ^(٢)
وَذِي الْمَدَامِعِ مِنْهَا كُلِّ هَطَّالٍ

(١) رأيت هذه الرؤيا قبل أن جاءني نعيه بليلة .

(٢) أول برقية جاءتني هي من شيخ العروبة أحمد زكي باشا رحمه الله .

أيقنتُ حقاً بأنّي قد فَقَدْتُ أخي
وَمَنْ أَرْجَى لأهوالي وأوهالي
أيقنتُ أنّك بعدَ اليومِ مغتربٌ
عني ولستَ مجيباً بعدُ تسالي
شعرتُ إذ ذاك أن لا أزرَ ينهضُ بي
وأنني رازحٌ من تحتِ أثقالي
كأنني في فلاةٍ لا أنيسَ بها
والأرضُ صارتُ جميعاً ربُعها الخالي
نسيبُ غادرَتني مِنْ بعدِ بُعدك في
عيشٍ تبدّل آلامي بآمالي
لكَ الخَلاصُ مِنَ الدارِ التي طبعَتْ
على الشَّقَاءِ، ولي حزني وإعوالي
قد كنتَ أطمعُ أن ألقاكَ والهفي
ولو تَطَاوَلَ بي حَلِّي وترحالي
حتى أتاني نبأٌ قد رَدَّ لي أملي
واحسرتي أَمَلُ الظمآنِ في الآلِ
لم يبقَ لي بعدَ ذاك النعيِّ مِنْ أَمَلٍ
إِلَّا بدمعِ طَوَالَ اللَّيْلِ سَيَّالٍ
أبكيكَ في غربتي مضئى نَوَى وتَوَى
بالْبُعدِ والموتِ فانظُرْ أيَّ إِذْلالٍ
أبكيكَ حينَ أَلقي الناسَ مجمعةً
تبكي بكائي مِنْ دانٍ ومن عالٍ

هم يَعْرِفُونَكَ مَنْ قَدْ كُنْتَ مَعْرِفَتِي
 فما يَزْكِيكَ إِلَّا شَاهِدُ الْحَالِ
 ما كُنْتَ تَعْدُو وَلَا تَبْغِي عَلَى أَحَدٍ
 وَلَا تُغَيِّرُ عَلَى عَرَضٍ وَلَا مَالٍ
 وَلَا ذَكَرْتَ امْرَأً يَوْمًا بِمَنْقَصَةٍ
 يا أَبْعَدَ النَّاسِ عَنْ قِيلٍ وَعَنْ قَالٍ
 لَمْ تَعْرِفِ الْكِبَرَ فِي قَوْلٍ وَلَا عَمَلٍ
 كَلًّا وَلَا سِرًّا يَوْمًا سَيْرَ مُخْتَالٍ
 فَبِكَ التَّوَاضُّعُ خُلِقَ لَا تَكَلَّفُهُ
 وَأَنْتَ تَلْبَسُ مِنْهُ ثَوْبَ إِجْلَالٍ
 وَلَمْ تَكُنْ لِجَمِيعِ النَّاسِ مَتَضَعًا
 إِلَّا عَلَى ثِقَةٍ فِي النَّفْسِ وَالْآلِ
 لَكَ الْمَزَايَا الَّتِي الْأَقْوَامُ تَحْسُدُهَا
 وَمَا اشْتَغَلْتَ بِحَسَادٍ وَعَذَائِلٍ
 لَوْ كَانَتْ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا نَظِيرَكَ لَمْ
 تَحْتَجْ لِعَمْرِي لِحُكَّامٍ وَعَمَالٍ
 مَا كُنْتَ تَنْشُدُ فِي الْأَعْمَالِ مُحَمَّدَةً
 وَلَا تَبَالِي بِالْقَابِ وَإِبْجَالٍ ^(١)
 بَلْ تَلِكْ عَاطِفَةُ النَّفْسِ الَّتِي طُبِعَتْ
 عَلَى الْجَمِيلِ لِغَيْرِ الْجَاهِ وَالْمَالِ

(١) أبجله الشيء إذا فرح به .

وكنْتَ في الشَّعْرِ فذًّا لا يشقُّ له
 أدنى عُبارٍ وتعيى ناره الصالي
 لك القَوَافي التي أعيَتْ نظائرها
 نوابغ الشَّعْرِ أهل الشَّيخ والضَّالِ
 كم من شُرودٍ لعمري قد جرَّت بها
 على جرير القوافي فضل أذيالِ
 لها من الحَضَرِ الأكياس رقتهم
 في لفظٍ باديةٍ رَوادِ أطلالِ
 أدركت في اللِّغة العرباء منزلةً
 لها على كلِّ فحلٍ كلِّ إدلالِ
 كم يدَّعي الشَّعْرَ قَوْمٌ لو وُزِنَتْ بهم
 هَدَرَتْ بحرًا وساحوا سيح أوْشالِ
 قد يفقدُ الناسُ حقًّا في تَواضِعِهِم
 ويَحسبُ الصَّمْتُ عِيًّا عند جهَّالِ
 وكم مجالٍ به بان السَّكَيْتُ على
 شأوِ المجلى وبذِّ العاقلِ الحالي ^(١)
 يعطيك حقَّك دَهْرٌ لَنْ تضيعَ به
 إنَّ الحَقائِقَ فيه غيرُ أغفالِ
 ما مرَّ ذِكْرُكَ في نادٍ وحاضره
 لم يتَّبِعوك ثناءً غير بُخَالِ

(١) أي لجهل الناس بحقيقة الفضل .

ذِكْرَاكَ بَاقِيَةً فِي النَّاسِ سَائِرَةً
 كَمَا تَضَوَّعَ عُرْفُ الْمَنْدَلِ الْغَالِي
 إِنْ طَالَمَا كَانَتْ الْأَحْزَانُ زَائِلَةً
 مَعَ الزَّمَانِ فَحُزْنِي غَيْرَ زِيَالٍ
 جُرْحٌ أَتَى حِينَ شَمْسُ الْعُمُرِ قَدْ دَلَفَتْ
 إِلَى الْغُرُوبِ وَدَانَتْ بَيْنَ آجَالٍ
 وَلَوْعَةُ الْبَيْنِ لَا تَنْفَكُ تَسْفَعُ فِي
 قَلْبِي عَلَى مَرِّ أَسْحَارِي وَأَصَالِي
 يَا غَرْبَ لَبْنَانَ أَلْقِ السَّمْعَ وَابْكِ عَلَى
 بُكََا غَرِيبٍ بِأَقْصَى الْغَرْبِ نَزَالٍ ^(١)
 فَلَمْ يَعُدْ فِي أَنْدِمَالِ الْجُرْحِ مِنْ أَمَلٍ
 وَمَا بَقِيَ مَهْلَةٌ يَسْأَلُ بِهَا السَّالِي



رثائي لفقيه العلم والوجاهة اللغوي العلامة أحمد باشا تيمور
 رحمه الله وكانت وفاته سنة ١٣٤٩ هـ. [من الطويل]

يُسَاوِرُنِي طُولُ الدُّجَى وَأُسَاوِرُهُ
 مُلَالٍ ^(٢) وَطَرْفِي سَاهِدُ اللَّيْلِ سَاهِرُهُ
 وَلَوْلَا التَّقَى نَادَيْتُ يَا حَبَّذَا الرَّدَى
 وَقُلْتُ مَتَى تُلْقَى إِلَيَّ بِشَائِرُهُ؟

(١) غرب لبنان الناحية التي تسكنها أسرتنا والغرب الثانية أوروبا التي أسكنها الآن.

(٢) بالضم التغلب من المرض أو الوجع .

لَعَمْرُكَ مَا بِالْعَيْشِ إِرْبٌ لِعَاقِلٍ
تَوَعَّلَ فِي عِلْمِ الْحَقِيقَةِ خَاطِرُهُ
تَسْلُسُلُ آلَامٍ وَتِرْدَادُ مَحَنَةٍ
تُرَاوِحُهُ فِي كَرْبِهَا وَتُبَاكِرُهُ
وَخَيْبَةُ آمَالٍ وَفَقْدُ أَعْزَةٍ
وَبَعْدُ طَوَالِ السَّجْنِ فَالْمَوْتُ آخِرُهُ
لِيَهْنِكَ يَا تَيْمُورُ أَنْكَ جُزَّتْهَا
إِلَى مَلٍّ لَا يَعْرِفُ الْمَوْتَ زَائِرُهُ
وَفَارَقَتْ دَاراً لَا يَزَالُ قَطِئُهَا
يَفْكُرُ فِي الْهَوْلِ الَّذِي هُوَ غَامِرُهُ
فَإِنَّ تَكَ عُقْبَى الدَّارِ قِسْمَةٌ فَاضِلٍ
فَأَقْصَى أَمَانِكَ الَّذِي أَنْتَ صَائِرُهُ
تَخْطُتُكَ فِي ذَا الْخَطْبِ دَاعِيَةُ الرِّثَا
وَلَكِنَّهَا صَارَتْ إِلَى مَنْ تُعَادِرُهُ
جَدِيرٌ بَأَنْ يُرْثَى الَّذِينَ تَرَكَتْهُمْ
يَصَابِرُ كُلُّ مَنْهُمْ مَا يُصَابِرُهُ
يُسَائِلُ بَعْضاً بَعْضَهُمْ: أَيْنَ أَحْمَدُ؟
وَأَحْمَدُ قَدْ ضُمَّتْ عَلَيْهِ حَفَائِرُهُ
فَأَنْتَى لَهُمْ تِلْكَ الْخَلَائِقُ بَعْدَهُ
وَأَنْتَى لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْوَجْهِ نَاضِرُهُ؟
وَأَنْتَى لَهُمْ تِلْكَ السَّكِينَةُ وَالنُّهَى
إِذَا عَصَفَتْ مِنْ أَيِّ خَطْبٍ أَعَاصِرُهُ

يريدون في ذا العصر ندًا لأحمد
وأحمد فذ مفرد الخلق نادره
يُنوحون نوح الشاكلات فكلهم
تدقق عن مثل السيول محاجرُه
على سيّد: في جنبه كل سيّد
يظل ضئيلاً باديات مفاقره
على ملك في صورة بشرية
تعدّته من هذا الوجود صغائرُه
إذا ما جرى في أي ناد حديثه
تقول فتيت المسك شبت مجامرُه
حريّ بأن الشرق يظلم أفقه
لمنعاه والإسلام تبكي منابرُه
وتنكس رايات الفضائل كلّها
عليه وترخي للكمال ستائرُه
فمن بعده للعلم تنشق حجبُه
ويُسلس عاصيه ويسهل واعرُه؟
وللغة الفصحى يَصُون ذمارها
وتملأ فيها الخافقين مآثرُه؟
صباباته في حُسْنِها وسُهادُه
ومن كُتِبَها أَعْلَاقه وذخائرُه
وذوق جناها غبّقه وصبوحه
وجوب فلاحها رَوْضه وأزاهرُه

أَوَابِدُهَا طَرًّا لَدَيْهِ أَوَانِسُ
 وَشُرْدَهَا مِنْ كُلِّ فَنٍ مُعَاشِرُهُ
 أَقَامَ لِسَانَ الْعُرْبِ مِمَّا هَوَى بِهِ
 وَلَوْلَاهُ حَاتِمًا مَا أُقِيلَتْ عَوَائِرُهُ^(١)
 وَلَوْ كَانَ فِي عَصْرِ الْمُؤَلَّفِ لَمْ يَكُنْ
 لَدَيْهِ ابْنُ مَنْظُورٍ بِكَفٍّ يُنَازِرُهُ
 وَلَوْ أَنَّهُ وَافَى الصَّحَّاحَ مَصْحَحًا
 غَلَّتْ فَوْقَ عَهْدِ الْجَوْهَرِيِّ جَوَاهِرُهُ
 وَكَانَ كِتَابُ الْعَيْنِ قَدْ غَابَ جَمْلَةً
 عَنِ الْعَيْنِ لَوْ أَنَّ الْخَلِيلَ مُعَاصِرُهُ
 وَلَوْ كَانَ فِي الْقَامُوسِ لَجَجَ^(٢) مَا طَمَا
 وَمَا كَانَ إِلَّا كَالرَّقَارِقِ^(٣) زَاخِرُهُ
 وَلَوْ أَنَّ رَبَّ التَّاجِ^(٤) عَاشَ بِعَصْرِهِ
 لَحَلَّ مِنَ التَّاجِ الَّذِي هُوَ ضَافِرُهُ
 وَلَوْ شَمَلَ الْمَصْبَاحُ^(٥) يَوْمًا بِنَقْدِهِ
 لَخَلَّاهُ مَلَقَى لَيْسَ يَزْهَرُ زَاهِرُهُ
 مَدَى لَيْسَ فِيهِ مَنْ يَشَقُّ غُبَارَهُ
 وَطَائِلُهُ مَا إِنْ بَهَا مَنْ يُجَاوِرُهُ

(١) إشارة إلى استدراقات تيمور باشا على لسان العرب لابن منظور .

(٢) لَجَجَ فِي الْبَحْرِ خَاضَ فِي لَجَّتِهِ .

(٣) الْمَاءُ الرَّقِيقُ فِي الْبَحْرِ وَهُوَ بَضْمُ الْأَوَّلِ .

(٤) أَيُّ تَاجِ الْعُرُوسِ فِي شَرْحِ الْقَامُوسِ .

(٥) الْمَعْجَمُ الْمَشْهُورُ فِي اللُّغَةِ .

فقد غُيِّبَتْ تلكَ الفَضَائِلُ كُلُّهَا
وَدَارَتْ عَلَى ذَاكَ التُّبُوغِ دَوَائِرُهُ
وَبَاتَ يَبْكِي كُلَّ صَابٍ إِلَى الْعُلَى
وَكَانَ حَرَى أَنْ لَا تَجِفَّ بَوَادِرُهُ
أَأَحْمَدُ لَا تَبْعُدْ فَنِي كُلِّ مُهْجَةٍ
وَلَاؤُكَ عَقْدٌ مُحْكَمَاتٌ أَوَاصِرُهُ
لَنْ بِنْتَ عَنَّا لَمْ تَزَلْ مَتَمِّتِلَا
عَلَيْكَ اخْتَوْتُ مِنْ كُلِّ شَخْصٍ ضَمَائِرُهُ
دَخَلْتَ إِلَى الدَّارِ الَّتِي أَنْتَ أَهْلُهَا
مَكَانَكَ فِيهَا مُشْرِقُ الْوُجْهِ سَافِرُهُ
وَلَا بَأْسَ مِنْ هَوْلِ الْحِسَابِ عَلَى امْرِئٍ
لَهُ زَرْدٌ مِنْ نَسْجِ أَيْدِيهِ نَاصِرُهُ
عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ مَا لَاحَ بَارِقٌ
وَجَادَ ثَرَاكَ الْغَيْثُ مَا سَحَّ مَاطِرُهُ
عَلَى النَّاسِ دَيْنٌ مِنْ ثَنَائِكَ لَا زِمٌ
يُؤَدُّونَهُ مَا يَذْكُرُ الْحَقُّ ذَاكِرُهُ



ورثيت صديقي المرحوم الشيخ عبد القادر الشيبني كبير سدة
البيت الحرام وعين أعيان مكة المكرمة :
[من الوافر]

سَلَانِي هَلْ عَلَى بُعْدِي سَلَانِي
وَهَلْ كَانَ الْمَغِيبُ سِوَى الْعِيَانِ؟

وهل فارقتُهُ إِلَّا تَوَالَتْ
 رَسَائِلُهُ عَلَيَّ بِلَا تَوَانٍ؟
 صديقُ نادرِ الأمثالِ فيما
 عَهِدْتُ وماله في العَهدِ ثانٍ
 وِغْطَريفٌ تعزُّ به قريشُ
 له في كلِّ مَكْرَمَةٍ يَدَانِ
 من التَّفَرِّ الألى سَادُوا وشَادُوا
 وجَادُوا للأقاصي والأداني
 عريقُ المجدِ أَرْوَعُ عَبدِري
 له شأنٌ يُكذِّبُ كلَّ شاني
 وكيفَ يكونُ من ينميه أَضَلُّ
 كعبدِ الدَّارِ أو عَبدِ المَدَانِ؟
 وكيفَ يكونُ مُضْطَلَعٌ بأمرٍ
 تسجِّلُ بالمثالِ والمثاني
 أَقرَّ اللّهُ للشَّيْبِي حَقًّا
 سَدَانَةٌ بيتهِ طُولَ الزَّمَانِ
 تَغَيَّرَتِ البِلَادُ وَمَنْ عَلَيَّهَا
 وَرَتَبَهُ آلُ شَيْبَةَ فِي أَمَانٍ
 وَقَدْ ضُمَّوا إِلَى مَا أُورِثُوهُ
 تَمَيُّزُهُمْ بِأَخْلَاقٍ حَسَانِ
 وَكَانَ عَمِيدُ هَذَا الْوَقْتِ مِنْهُمْ
 يُشَارُ إِلَى عُلاهِ بِالْبَنَانِ

يَهْزُ بِهِ الْحِجَازَ أَخَا مَضَاءٍ
إِلَى الْعَلْيَاءِ كَالسَّيْفِ الْيَمَانِي
وَإِذْ فَارَقْتُهُ فِي أَرْضِ وَجٍّ ^(١)
وَجَا ^(٢) قَلْبِي التِّياعَ كَالسَّنَانِ
كَأَنِّي قَدْ شَعَرْتُ لَدَى وَدَاعِي
بَأَنِّي لَنْ أَرَاهُ وَلَا يَرَانِي
وَلَمَّا جَاءَنِي مَنَعَاهُ أَذْكَى
ضُلُوعِي وَاسْتَهْلَ الْمَدْمَعَانِ
وَبَاتَتْ تَسْفَعُ الْأَحْشَاءَ ذِكْرِي
مَجَالِسٍ كَالْأَمَانِ وَكَالْأَمَانِي
زَمَانًا كَانَ يَرْعَانِي وَفَاهُ
عَلَى مَرِّ الدَّقَائِقِ وَالثَّوَانِي
أَلَا يَا آلَ شَيْبَةَ لِي حَنِينٌ
إِلَيْكُمْ مِنْ أَخٍ جَمَّ الْحَنَانِ
لِعَبْدِ الْقَادِرِ الشَّيْبِيِّ عِنْدِي
مَقَامٌ لَا يَقُومُ بِهِ بَيَانِي
أَشَاطِرُكُمْ بِهَذَا الْخَطْبِ حُزْنًا
شَجَاكُمْ مِنْهُمْ قَدْ شَجَانِي

(١) وج: هي الطائف وكان وداعي له هناك ولم أره بعدها .

(٢) وجأه بالهمزة ضربه بالسكين ونحوه في أي موضع كان وخفف هنا للوزن .

ولكنني بعبد الله^(١) أرجو
 عزاء آسيا جرح الجنان
 وأسأل للفقيد كريم نُزْلٍ
 لدى مَوْلَاهُ في عُرفِ الجنان
 هناك العالمُ القدسيُّ باقٍ
 وهذا العالمُ الإنسيُّ فانٍ



هذه مرثيتي للأخ القديم، والولي الحميم، أحمد بك شوقي أمير
 الشعراء رحمه الله، وقد توفي سنة ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م. [من الكامل]

قد أعجزَ الشعراءَ طولَ حياته
 واليومَ يُعجزُهمَ بنَدبِ مماته
 هيهاتَ يوجَدُ في البريةِ منهم
 كُفُوٌ ليرثيه بمثلِ لُعاته
 كانَ الأميرَ لجيشهم مستنًةً
 فُرسَانهم في الظلِّ من راياته
 ما عَابَ أهلَ العبقريةِ أنَّهُم
 قد قَصَّروا في الخبِّ^(٢) عن غاياته
 هذا أميرُ الشعرِ غيرُ مُدافعٍ
 في الشرقِ أجمعٍ منذ فتقٍ لهاته

(١) ولد الشيخ الفقيد وهو الوجه الأستاذ الشيخ عبد الله الشبيبي .

(٢) الخبِّ والخبب ضرب من العدو، ويقال خب في الأمر من باب طلب أسرع
 الأخذ فيه اهـ مصححه .

لو كَانَ وَحْيِي بَعْدَ وَحْيِي مُحَمَّدٍ
 لَانْشَقَّ ذَاكَ الْوَحْيُ عَنْ آيَاتِهِ
 السَّحَرُ فِي نَفْسَاتِهِ وَالزَّهْرُ فِي
 نَفَحَاتِهِ وَالذَّهْرُ بَعْضُ رُؤَاتِهِ
 رَقَّتْ لِنِعْمَتِهِ الْقُلُوبُ فَكَيْمَا
 غَنَّى بِهَا رَقَصْتُ عَلَى نَبْرَاتِهِ
 تَغْدُو الْمَعَانِي الْعُصْمُ شُمْسًا مَقَادَةً
 فَيَقُودُهَا قَوْدَ الْغُلَامِ لِشَاتِهِ
 وَإِذَا أَرَادَ الصَّخْرَةَ الصَّمَاءُ مِنْ
 أَغْرَاضِهِ رَقَّتْ نَظِيرَ سِحَاتِهِ ^(١)
 مَا رَامَ شَارِدَ حِكْمَةٍ فِي نَظْمِهِ
 إِلَّا أَصَابَ صَمِيمَهَا بِخُصَاتِهِ
 جَلَّى إِلَهِ لَهُ الْأُمُورَ كَأَنَّمَا
 يُلْقِي عَلَيْهَا الشَّمْسُ مِنْ نَظَرَاتِهِ
 فَكَسَا الطَّبِيعَةَ مِنْ نَسِيجِ بَيَانِهِ
 حُلَلًا خَلَّتْ مِنْ غَيْرِ طَرَزِ دَوَانِهِ
 فَتَرَى الطَّبِيعَةَ قَبْلَ نَظَرْتِهِ لَهَا
 غَيْرَ الطَّبِيعَةِ وَهِيَ فِي مِرَاتِهِ
 وَالْحَسَنُ يَشْرُقُ فِي الْعُيُونِ بِذَاتِهِ
 وَهُنَا يَضِيءُ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ

(١) السحاة تخفيف السحاة وهي ما أخذ من القرطاس .

هذا هو الشُّعْر الذي بنُبُوغِهِ
 لم تُحْسِنِ النَّظْرَاءُ قَرْعَ صَفَاتِهِ
 من كلِّ بَيْتٍ في رفيعِ عَمَادِهِ
 تَتَقَاصِرُ الْأَقْدَامُ عَنْ عَتَبَاتِهِ
 كالدرِّ في لمعاتِهِ والبدرِ في
 قَسَمَاتِهِ والصُّبْحِ في نَسَمَاتِهِ
 ولقد رويْتُ الشُّعْرَ عن آحادِهِ
 وألِفْتُ للسَّبَّاقِ في حَلَبَاتِهِ
 وقضيتُ فيه صبوتي وصبابتي
 وقطفْتُ منه خيرَ نُوَارَاتِهِ
 وأثرتُ في الميدانِ بُزْلَ فُحُولِهِ
 وأطرتُ في الآفاقِ شُهْبَ بَزَاتِهِ
 فرأيتُ (شوقي) لم يدعْ في عَصْرِهِ
 قرناً يَهْزُقْنَائَهُ لِقْنَائِهِ
 الفردُ في أمداحِهِ ونواحيهِ
 والفذُّ في أمثالهِ وعِظَاتِهِ
 وإذا تعرَّضَ للغَرَامِ فهل دَرْتُ
 لغةَ الغَرَامِ نظيرَ شَوْقِيَّاتِهِ؟
 ما في الهيامِ كوجدهِ وحنينهِ
 أو في التَّسْيِبِ كظبيهِ ومَهَاتِهِ
 أو باتَ يعبُثُ بالشَّرَابِ أَضَافَ مِنْ
 كاسَاتِهِ حَبباً إِلَى كاسَاتِهِ
 أو خاضَ في ذِكْرِ العَذِيبِ تَشَابَهَتْ
 أعطافُ مستمعِيهِ مع بَنَاتِهِ

وإذا تحدّث بالربيع وروضه
 أنسأك بالتحبير وشي نباته
 أو سلّ في وصف الوقائع صارماً
 خلّت العدى سالت على شفراته
 لا زُتَبَةً تعلو مكانته ولا
 شرف يُناف عليه من شرفاته
 نحت القوافي السائرات أوابداً
 ماذا يفيد النحت من أثلاته
 قد بذّ آلهة القريض بأسرهم
 ومحا عبادة لاته ومنااته
 ينضون كل نجيبه أن يطلعوا
 جبلاً يحلّ الرأس من شعفاته
 ولكم مررت بحاسدين لفضله
 رغم القلى يروون من أبياته
 لا ندّ يعدله وكم من مجلس
 أشعار شوقي الند في سمراته
 يتمثل العضر الحديث بشعره
 حق التمثيل من جميع جهاته
 ولرب بيت يستقلّ بجملة
 تغني عن التاريخ في صفحاته
 لم يفتتن من عصره بمساوىء
 كلاً ولم يغمطه من حسناته

قد لَازَمَ الإنصافَ في أحكامه
 لا فَرَقَ بين صحابهٍ وعُداته
 وإذا سَأَلْتَ عن الجهادِ فإنه
 منذُ الحادثةِ كان في سَرواته
 كالسيفِ في أوضاعه ومضائه
 والليثِ في وثباته وثباته
 ما حلَّ بالإسلام حَيْفٌ مصيبةٌ
 إلا وكان بهالِسانَ شكاته
 يحمي حَقائِقَه ويوضحُ سُبُلَه
 ويقلُّ طولَ الوقتِ من عَثراتِه
 يلقي على غَمراتِ كلِّ ملمةٍ
 قولاً يزيلُ أجاجُها بِفُراتِه
 ويظلُّ يرسلُها قصائدَ شُرِّدًا
 غُررًا تشقُّ الفَجَرَ عن ليلاته
 كانتُ قصائدهُ هي الصوتُ الذي
 سرَّى عن الإسلامِ ثقلَ سُبُاتِه
 بعثتُ به روحَ الحياةِ كأنها
 هي صُورُ إسرَافيلَ في زَعَقَاتِه
 قد كان أَدْرَى الناسِ بالداءِ الذي
 قد حطَّ هذا الشرقُ عن صَهواتِه
 داءٌ هو الأخلاقُ في اضمِحلالِها
 فلذا تَرى الأخلاقَ رأسَ وصاتِه

وَفَى عَنِ الشَّرْقِ الْقَدِيمِ نَضَالَهُ
 مِنْ يَوْمِ نَشَأْتِهِ لِيَوْمِ وَفَاتِهِ
 قَدْ ذَادَ عَنْهُ بِقَلْبِهِ وَبِلُبِّهِ
 شَأْنَ الْأَبْيِّ يَذُودُ عَنْ تَرْكَاتِهِ
 ماضٍ يَحْذَرُهُ اسْتِلَابُ تَرَاثِهِ
 مِنْهُ وَيَحْفَظُهُ لِأَخْذِ تَرَاتِهِ
 أَعْلَى مَنَارِ الشَّرْقِ فِي أَوْصَافِهِ
 وَأَجَادَ وَصَفَ الْعَرْبِ فِي آفَاتِهِ
 وَوَحَى إِلَى الشَّرْقِيِّ بِالطَّرْقِ الَّتِي
 يَمْشِي النِّجَاءُ بِهَا لِأَجْلِ نَجَاتِهِ
 أَمْلَى مُكَافَحَةَ الذَّنَابِ عَوَادِيًّا
 بِالْوَادِ قَدْ حَلَّوْا مَكَانَ رُعَاتِهِ
 الْجَائِسِينَ بِبَحْرِهِ وَبِبرِهِ
 وَالْجَائِشِينَ بِنَجْدِهِ وَوُطَاتِهِ
 وَالْغَاصِبِينَ لَزْرَعِهِ وَلِضَرْعِهِ
 وَالْأَكْلِينَ لِتَمَرِهِ بِنَوَاتِهِ
 أَشْعَارُهُ تَحِيَا وَتَحْيِي أُمَّةً
 تَجِدُ الْحَيَاةَ الْحَقَّ فِي كَلِمَاتِهِ
 يَا رَاحِلًا مَلَأَ الزَّمَانَ بِدَائِعَاءَ
 مِنْ قَبْلِ أَنْ نَزَلَ الْقَضَا بِسُكَاتِهِ
 أَتْرَكْتَ بَعْدَكَ شَاعِرًا تَرْضَى بِأَنْ
 تَرَعَى جِيَادُ الْفِكْرِ فِي تِلْعَاتِهِ

يبكي بك الإسلام خير جنوده
 أبداً ويرثي الشرق خير حماته
 وكأن وادي النيل من أحزانه
 يلقي على الشطين من زفراته
 ونوالب العربية الفصحى لها
 نذب عليك يذيب في رثاته
 انظر إلى الإخوان كيف تركتهم
 من كل مضطجع على جمراته
 انظر لحال أخ فداك بروحه
 لو كان يحيا الميث عزم فداته
 قد كنت طول العمر قرّة عينه
 والآن يجري السخن من عبراته
 مضت السنون الأربعون ونحن في
 هذا الإخاء نمز من قهواته
 أراك عن بُعد وترعاني على
 عهد نهز الرطب من عذباته
 عهد رعيناه مديد حياتنا
 واليوم زاد الموت من حرّماته
 قد كنت أطمع أن ترى لي راثياً
 يا من غدوت اليوم بين رثاته
 كنّا نخاف رداك قبل وقوعه
 فلنا الأمان اليوم من دهشاته

تُبَالْعِيشِ قَدْ يَكُونُ مَسَاؤُهُ
 نَوْحاً وَكَانَ سُرُورُهُ بِغَدَاتِهِ
 وَالْمَرءُ إِنْ يَنْظُرُ لِمَا يُبْلَى بِهِ
 لَا فَرْقَ بَيْنَ بَقَائِهِ وَفَوَاتِهِ
 فَالْمَيْتُ وَهُوَ يَذُوبُ فِي حَسْرَاتِهِ
 كَالْحَيِّ وَهُوَ يَذُوبُ مِنْ حَسْرَاتِهِ
 نَرْجُو لَكَ الدَّارَ الَّتِي عَمَّارُهَا
 هُمْ كُلٌّ مَنْ صَنَعَ الْجَمِيلَ لِدَاتِهِ
 يَضْفِي عَلَيْكَ اللَّهُ ثُوبَ نَعِيمِهِ
 وَاللَّهُ لَا تُحْصَى ضُرُوبُ هِبَاتِهِ
 قَدْ كُنْتَ فِي الدُّنْيَا هَزَاراً صَادِحاً
 يَشْجِي وَيَسْلِي النَّاسَ فِي نَغْمَاتِهِ
 فَالآنَ كُنْ بِجَلَالِ رَبِّكَ سَاجِعاً
 وَالطَّائِرَ الْمُحْكِي فِي جَنَّاتِهِ



وقلتُ أرثي صديقي الطيب الذكر الحاج عبد السلام بنونة من
 عيون أعيان تطوان بل المغرب كله المنتقل إلى رحمة ربه في ٣
 شوال من هذه السنة (١٣٥٣هـ) وهذا آخر شعر لي إلى تاريخ نشر
 هذا الديوان.

وقد أرادت جريدة «الحياة» الصادرة في تطوان في عددها
 المؤرخ في ٣ ذي القعدة سنة ١٣٥٣ الموافق ٧ فبراير سنة ١٩٣٥م
 أن تتلطف بالكلمات الآتية قبل إثبات القصيدة:

لوعة أخ على أخيه رثاء لمفخرة المغرب المرحوم الحاج عبد السلام بنونة

نور الله ضريحه وروح روحه

الأمير شكيب أرسلان رجل الساعة في العالم الإسلامي، ابتداءً
يخدم القضية الإسلامية منذ خمسين عاماً، وهو أول زعيم عربي
رفع صوته في الشرق والغرب مدافعاً عن قوميتنا المغربية المهددة،
فبلغ صدى صوته الخافقين، يحب المغاربة حباً جماً، وتربطه
برجالهم روابط حب متين وإخلاص مكين، وليست هذه القصيدة
التي نقدمها للقراء اليوم إلا صورة مصغرة منبئة عن عواطفه النبيلة
نحو أمتنا وقادتها في الحياة والموت.

[من البسيط]

«الحياة»

يا مدمعيّ اكفّيانِي نَارَ أَحْزَانِي
إِنِّي عَهِدْتُكُمَا مِنْ خَيْرِ أَغْوَائِي
نَارُ تَاجِجٍ فِي قَلْبِي فَهَلْ لَكُمَا
أَنْ تَطْفِئَاهَا بِتَسْكَابٍ وَتَهْتَانِ
إِنْ لَمْ يَكُ الْيَوْمَ لِي رِثَاثٌ ثَاكِلَةٌ
فَأَيُّ يَوْمٍ لَهُ وَجْدِي وَتَحْنَانِي
أَقْضِي اللَّيَالِي لَا أَحْظِي بِطَيْفِ كَرَى
مَوْزَعًا بَيْنَ حَيْرَانٍ وَحَرَّانِ
مَا لِي بِغَيْرِ كَوْوَسِ الدَّمْعِ مُغْتَبِقِ
وَلَيْسَ غَيْرُ نُجُومِ اللَّيْلِ نَدْمَانِي^(١)

(١) بفتح أوله المنادى وقد يكون جمعاً.

تأبى المروءة قلباً غير متّقدٍ
على حبيبٍ وطرفاً غير ريانٍ
لا بوائني المعالي متنّ صهوتها
إن كان لم يُضم^(١) قلبي فقد خلّاني
وليس كلّ أخٍ تأتي منيته
على رؤوس ذويه دكّ بُنيانٍ
إنّا فقدناك يا «عبد السلام» لدنّ
كُنْتَ المرجى لأوطارٍ وأوطانٍ
وكُنْتَ رُكناً لها إن أمةً لجأت
من الورى لأساطين وأركانٍ
الباهر الخصل^(٢) يعيى من يسابقه
والقائل الفصل عن علم وبُزْهانٍ
يرمي بكلّ مُراشٍ من كُنائنه
عن كلّ قوسٍ من التّفكيرِ مرنانٍ
كانت مَحامدُه شتى نقولُ لها
سُبْحَانَ نَاطِمِها في سِلْكِ إنسانٍ
مهذبُ الخُلُقِ في صَفْوِ وفي كَدَرٍ
وناصحُ الودّ في سرٍّ وإعلانٍ

(١) أصمى الصيد رماه فقتله وهو يراه .

(٢) الخصل إصابة الغرض والخطر الذي يخاطر عليه في النضال يقال: أحرز فلان خصله أي غلب .

مناقبٌ سَنَّمْتُهُ ذُرُوءُ قَعَسَتْ
وما أَقَرَّتْ لأَقْرانٍ باقِرانٍ^(١)
بصيرةٌ تَسْتَشْفُ الغَيْبَ أَغْمَضَهُ
وهَمَّةٌ تَقْرُنُ العَالِي إلى الداني
كَانَتْ لَهُ فِي هَوَى الإِسْلَامِ صَارِخَةٌ^(٢)
المَوْتُ فِي سُبُلِهَا وَالْعِيشُ سَيَّانٍ
وَعِزَّةُ العُرْبِ العَرَبَاءُ مَالِيَّةٌ
عُرُوقُهُ مَلَأَتْ أُنْدَاءَ لأَغْصَانٍ
أَخِي الَّذِي كُنْتُ أَرْجُوهُ عَلَى ثِقَةٍ
إِذَا تَشَابَهَ إِخْوَانٌ بِخَوَّانٍ
يَمْضِي إِلَى المَجْدِ إِذْ يَمْضِي بِلَا مَلَلٍ
وَلَا يُبَالِي بِأَحْقَادٍ وَأَضْعَانٍ
مَا كَانَ يَثْنِيهِ عَنَ عَلِيَاءٍ يَقْصِدُهَا
ثَانٍ وَلَا يَرْضِي فِي السَّبْقِ بِالثَّانِي
إِنْ صَوَّبَتْ نَحْوَهُ الأَعْدَاءُ أَسْهَمَهَا
فَالْمَجْدُ وَالسَّلَامُ فِي الدُّنْيَا نَقِيضَانِ
إِنْ شِئْتَ تَعْلَمَ شَأَوَ المَرْءِ فِي شَرْفٍ
قِسْمُهُ بِمَا هَاجَ مِنْ بَغْيٍ وَعُدْوَانٍ
إِنَّ الحَقِيقَةَ مِثْلُ الشَّمْسِ آبِيَةٌ
إِلَّا التَّجَلَّى لِقَوْمٍ غَيْرِ عُمَيَّانٍ

(١) أَقْرَنَ لَهُ أَطَاقَهُ .

(٢) الصَّارِخَةُ الإِغَاثَةُ مُصْدَرٌ عَلَى الْفَاعِلَةِ كَالْعَافِيَةِ .

تتعتع المَغرِبُ الأَقْصَى لمصرِهِ
 فَلَا تَرَى مِنْ بَنِيهِ غَيْرَ سَكَرَانِ
 كَأَنَّمَا كُلُّ مَا فِي الْعَرَبِ مِنْ مُهَجٍ
 تَجَمَّعَتْ وَغَدَتْ فِي وَسْطِ تَطْوَانِ
 قَدْ كُنْتُ أَمَلُ أَنْ نَحْيَا مَعَاصِرَهُ
 مَدِيدَ عُمُرٍ وَالْقَاهُ وَيَلْقَانِي
 أَدْعُو لَهُ فِي جِنَانِي كُلَّمَا انْفَرَدْتُ
 نَفْسِي بِنَجْوَى وَأَرْعَاهُ وَيَرْعَانِي
 فَخَيِّبَ الْبَيْنُ مَا قَدْ كُنْتُ أَمَلُهُ
 وَكَمْ أَرْتَنِي اللَّيَالِي ضِدَّ حُسْبَانِي
 خُذْ فِي حَيَاتِكَ مَا تَشْتَاقُ مِنْ نَعَمٍ
 وَخُذْ بِمُقْدَارِهِ تَهْمَامُ وَجَدَانِ
 وَاعْلَمْ فَمَا صَادَفْتُ عَيْنَاكَ فِي زَمَنِ
 مِنْ قَرَّةٍ فَهِيَ يَوْمًا قَرْحُ أَجْفَانِ
 لَمْ تَحُلْ لِي مِنْ زَمَانِي لِحِظَةٍ عَذْبَتْ
 إِلَّا أَمَرْتُ وَحَاكَتُ وَقَعَ مُرَّانِ ^(١)
 وَلَا تَوْفَّرْ لِي حِظُّ أَلَذُّ بِهِ
 إِلَّا تَضَمَّنْ أَشْجَانِي وَأَشْجَانِي ^(٢)
 يَا رَاحِلًا فَجَعِ الْإِسْلَامُ أَجْمَعُهُ
 فَالشَّرْقُ فِي نَدْبِهِ وَالْغَرْبُ صَنَوَانِ

(١) بضم أوله الرماح الصلبة اللدنة واحدها مرانة .

(٢) أشجاه أحزنه مثل شجاه .

ومسلماً بطلاً كانت حميته
 تَمَلَا الفُجَاجَ بِإِسْلَامٍ وَإِيمَانٍ
 بُدِّلَتْ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا سَمَاءٌ عُلَاً
 فابْشِرْ أَمْسَتَبَدَلِ الْبَاقِي مِنْ الْفَانِي
 شَقِيتَ فِي دَارِكَ الدُّنْيَا بِجِيرَتِهَا
 فَاسْعُدْ مِنَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى بِجِيرَانٍ
 أَثْوَاكَ رُبُّكَ فِي أَفْيَاءِ جَنَّتِهِ
 مَمْتَعَ الرُّوحَ فِي رَوْحٍ وَرَيْحَانٍ
 وَجَادَ تَرْبُ ضَرِيحٍ أَنْتَ سَاكِئُهُ
 بِكُلِّ أَوْطَفٍ دَانِي الْهَدْبِ حَنَّانٍ^(١)
 وَأَوْرَثَ اللَّهَ مَنْ أَنْجَبْتُ مِنْ وَلَدٍ
 خَالَكَ الْغَرَّ، هَذَا خَيْرُ سِلْوَانٍ
 فَاذْهَبْ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ مَا طَلَعَتْ
 شَمْسٌ وَنَاحَ حَمَامٌ فَوْقَ أَفْنَانٍ
 يَقْلُ بَعْدَكَ، مَدْفُوناً فَجَعْتُ بِهِ
 إِنْ اسْتَطَارَ عَلَى ضَعْفِي لِحَدَثَانِ

(١) وطففت السحابة تدلت ذيولها ومنه الأوطف والهدب بمعنى الذيل والحنان الذي له صوت .

القسم الرابع

في المدائح السلطانية، وشؤون السياسة العثمانية

في المدائح السلطانية، وشؤون السياسة العثمانية

لي عدة قصائد سلطانية كنت أمدح بها السلطان عبد الحميد ولم أكن أقدمها للحضرة السلطانية وإنما كنت أنشرها في الجرائد تعظيماً لمقام الخلافة وتأييداً لوحدة الأمة، فمن هذه القصائد ما لم أعثر عليه حتى هذه الساعة ولذلك تراني مملياً منها ما لا يزال في خاطري كيفما اتفق.

منها قصيدة نظمته في الآستانة سنة ١٣١٠هـ - ١٨٩٢م أي من ثلاث وأربعين سنة لا أزال أحفظ منها ما يلي: [من الكامل]

ما إنْ لشأوٍ في البيانِ يبيّنُ
تدنو لمدحك غايةً وتبينُ
شأو لو الحدقي^(١) حَاوَلَ مِثْلَهُ
أعيا البيانَ لديه والتبيينُ
إيتاء حقّ الشُّكرِ حقّ خليفة
تزيّن الدّنيا به والدّينُ

ومنها:

تُعشى الأمورَ بفكرةٍ وقادةٍ
الظنّ منها في الأمورِ يقينُ

(١) المراد به الجاحظ وكتاب البيان والتبيين من أشهر كتبه.

يا طالما صدّت مقارعةُ الظبي
إنّ العقولَ معاقلٌ وحصونٌ

ومنها:

فاسلّم أمير المؤمنينَ ولا تزلْ
تعطي مُنّاك وما تريدُ يكونُ
في دولةٍ غراءِ عثمانيةٍ
مكتنفها النصرُ والتمكينُ

ومنها قصيدة أخرى بائية نظمها في سورية وأظن عهدها يرجع
إلى أربعين سنة وقد بقي منها في حافظتي الأبيات التالية: [من البسيط]

قِفْ بينَ معتركِ الأمواجِ والهضْبِ
بنقطةِ الأمتينِ التُّركِ والعربِ
بِدَارِ سلطنةِ الدّنيا ومركزِها
ومَرَجُ الأرضِ من قُطْبِ إلى قُطْبِ
بحيثُ قد فرّقَ البرّينِ ربُّهما
وحيثُ قد مرّجَ البحرَينِ عن كُثْبِ
وقابلِ الشّرقِ في أزياءِ قُدُمتهِ
بصنوه العُربِ في أثوابه القُشْبِ
تَغَرِ الثغورِ حَمَاهُ اللّهُ قَامَ لَهُ
مِنْ لُطْفِ بوسفوره أخلَى من الشنبِ
ما زالَ مِنْ عَهْدِ قسطنطينِ مرتقباً
يجدُ نحو بني عُثمانَ في الطَّلَبِ

حَتَّى أَتَتْهُ جُيُوشٌ لَا كَفَاءَ لَهَا
 نَزَلْنَ عِنْدَ أَبِي أَيُوبٍ فِي الرَّحَبِ^(١)
 سَخَّرْنَ مِنْ أَرْضِهِ قَرْنًا يَذَلُّ لَهُ
 اسكندر ناطح القرنين للسَّحْبِ

[من البسيط]

ومنها في ذكر السلطان:

حَازَ الْخِلَافَةَ فِي عَصْرِ أَبِي لَهَبٍ
 لَهُ جُيُوشُ الْعِدَى حَمَالَةَ الْحَطَبِ
 فَاظْفَأَ النَّارَ مِنْ بَعْدِ السَّعِيرِ لَهُ
 رَأَى يَفْرُقُ بَيْنَ النَّارِ وَالْخَشَبِ
 وَمِنْهَا قَصِيدَةٌ نَشَرْتَهَا فِي الْمَوْئِدِ عَهْدَهَا يَتَأَخَّرُ عَنْ عَهْدِ الْقَصِيدَتَيْنِ
 الْأُولَيَيْنِ بَعْدَ سَنَوَاتٍ وَأَذْكَرُ مِنْهَا مَا يَلِي:

[من الطويل]

مَشَارِقُ أَرْضٍ لَفَّهَا بِمَغَارِبِ
 وَعَادَرَ قُطْبَيْهَا مِزَاجًا لِقَاطِبِ
 وَجَانَسَ بَيْنَ الْغُورِ وَالتَّجْدِ عِنْدَهَا
 كَلَّا أَرْضِهَا لَمْ يَعِيَ وَقَعَ السَّلَاحِ
 وَضَيِّقَ بَيْنَ الْفَرَجَتَيْنِ فَصَارَتَا
 إِلَى مِثْلِ مَا ضُمَّتْ أَنْامِلُ حَاسِبِ
 وَقَرَّبَ بَيْنَ الْعِدَوَتَيْنِ كَأَنَّمَا
 لَهُ كَرَّةُ الْغُبَرَاءِ أَكْرَةُ لَاعِبِ

(١) إن أكثر الحروب يوم فتح استانبول وقعت على الخليج القسطنطيني - قاسم باشا - وهناك مزار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه .

مروى شَعَار الهنديواني وراوياً
 سِمَانُ المعالي عن رقاق المضاربِ
 لواءِ مِنَ الإسلامِ قد عَزَّ نَصْرُهُ
 أَطْلَّ عَلَى الْآفَاقِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
 لواءِ لَوْ أَنَّ الْأَرْضَ طَالَ أَثِيرُهَا
 لَمَا زَالَ حَتَّى انْدَقَ بَيْنَ الْكَوَاكِبِ
 وَلَوْ أَنَّ قَرْنَ الشَّمْسِ أَرْخَى ذَوَائِباً
 لَمَا كَانَ مِنْهُ غَيْرِ إِحْدَى الذَوَائِبِ
 تَدَاوَلَهُ بَعْدَ النَّبِيِّ خِلَائِفُ
 مَفَاخِرُهُمْ كُلٌّ عَلَى كُلِّ غَارِبِ
 لَعَمْرِي لئن طَالَ التَّحَكُّكُ بِالسُّهَى
 وَقَارَبَ رَوْقُ النَّجْمِ أَوْ لَمْ يَقَارِبِ
 لَمَا طَاوَلَتْ أَحْسَابَ عُثْمَانَ عَصَبَةٌ
 وَلَا دَانَ مِنْهَا مَطْلَبٌ نَحْوَ طَالِبِ
 أَرَى آلَ عُثْمَانَ بَنَصْرٍ مُحَمَّدٍ
 هِيَ الْأُزْدُ إِلَّا أَنهَالِمِ تَصَاحِبِ ^(١)
 مَلِئُونَ بِالْأَمْرِ الَّذِي يَحْمِلُونَهُ
 خَلْيُونِ عَنْ خَلْفِ الْمَسَاعِي الْكَوَاذِبِ
 لَقَدْ نَوَّرُوا لَيْلًا مِنَ النَّفْعِ دَاجِيًا
 بِشُهَبِ رِمَاحٍ لِلتَّحَوُّرِ ثَوَاقِبِ

(١) أي إن آل عثمان في نصر محمد ﷺ هم كالأوس والخزرج إلا أنهم لم يدركوا زمن الصحابة .

وَقَدْ فَرَعُوا مِنْ كُلِّ مَلِكٍ عَقِيلَةٍ
 رِيَاضَتِهَا أُغِيَتْ عَلَى كُلِّ خَاطِبٍ
 لَقَدْ جَمَعُوا الْبَرِّينَ مَعَ زَاخِرِيهِمَا
 وَأَحْسَنُ مِنْهُ جَمْعُهُمْ لِلْمَنَاقِبِ

ومنها في ذكر السلطان: [من الطويل]

حَفِظْتَ لِعِثْمَانَ وَقَاراً مَرِيدَهُ
 تَرَدَّى بِإِذْنِ اللَّهِ حَلَّةَ خَائِبٍ
 وَحَسَنَتْ بِلَاحِصِنْتَ مَا شَتَّتْ وَاقْتَضَتْ
 خَوَاطِرُكَ الْغُرَا وَحُسْنَ الْمَذَاهِبِ
 سَرَدْتَ لَهُ هَذَا الْحَدِيدَ فَلَمْ تَزَلْ
 تَمُدُّ بِقَضَبَانٍ لَهُ وَقَوَاضِبِ
 قَوَاضِبُهُ فِي الْحَرْبِ إِنْ تُنْتَدَبَ لَهَا
 وَقَضَبَانُهُ فِي السَّلَامِ إِنْ لَمْ تَحَارِبْ
 وَمَا عَفَتْ نَارُ الْحَرْبِ إِلَّا تَعَقُّلاً
 وَكُلَّ مِنَ الدُّوَلَاتِ تَدَلَّى بِجَاذِبِ
 وَمَا عَقَّتْهَا إِلَّا احْتِفَازاً لِقُرْبِهَا
 وَهَلْ يَنْهَضُ الْبَازِي بِغَيْرِ مَخَالِبِ
 لِكُلِّ مِنَ الْأُمَرَاءِ أَعَدَّتْ عِدَّةً
 فَسَالِمٌ إِذَا مَا طُبَّتْ نَفْساً وَغَاضِبِ
 سَهَرَتْ وَقَدْ نَامَ الْأَنَامُ بِمَقْلَةٍ
 لَهَا قَلْبُ شَيْحَانٍ وَجِثْمَانُ شَاخِبِ

وآخرها:

[أ] حَبَّكَ ذَا شَرْعِي وَعُرْفِي وَمَذْهَبِي
ومدْحُكَ ذَا فَرَضِي وَوَثْرِي وَوَاجِبِي

ونظم المرحوم شوقي بك عندما ذهب إلى الآستانة وكان ضيف
أمير المؤمنين القصيدة الآتية: [من الخفيف]

رضي المسلمون والإسلام
فَرَعُ عَثْمَانَ دَمَ فِدَاكَ الدَّوَامُ
كَيْفَ نَحْصِي عَلَى عُلاكَ ثَنَاءً
لَكَ مِنْكَ الثَّنَاءُ وَالْإِكْرَامُ
هَلْ كَلَامُ الْعِبَادِ فِي الشَّمْسِ إِلَّا
أَنَّهَا الشَّمْسُ لَيْسَ فِيهَا كَلَامُ
وَمَكَانُ الْإِمَامِ أَعْلَى وَلَكِنْ
بِأَحَادِيثِهِ يَتِيهِ الْأَنَامُ
إِيَّهِ «عبد الحميد» جَلَّ زَمَانُ
أَنْتَ فِيهِ خَلِيفَةُ وَإِمَامُ
مَا رَأَتْ مِثْلَ ذَا الَّذِي تَبْتَنِي الـ
أَقْوَامُ مَجْدًا وَلَنْ يَرَى الْأَقْوَامُ
دَوْلَةً شَادَ رُكْنَهَا أَلْفَ عَامُ
وَمِائَاتٍ تَعْيِدُهَا أَعْوَامُ
وَأَسَاسُ مِنْ عَهْدِ عُثْمَانَ يَبْنِي
فِي ثَمَانٍ وَمِثْلِهِنَّ يُقَامُ

حكمةً حَالٌ كُلُّ هَذَا التَّجَلِّي
 دُونَهَا أَنْ تَنَالَهَا الْأَفْهَامُ
 يَسْأَلُ النَّاسَ عِنْدَهَا النَّاسُ هَلْ فِي الذِّ
 لِّ ذُو الْمُقْلَةِ الَّتِي لَا تَنَامُ؟
 أَمْ مِنَ النَّاسِ بَعْدَ مَنْ قَوْلِهِ وَحْدَ
 يُّ كَرِيمٌ وَفَعَلَهُ إِلَهَامُ؟
 صَدَقَ الْخَلْقُ أَنْتَ هَذَا وَهَذَا
 يَا عَظِيمًا مَا جَازَهُ إِعْظَامُ
 شَرَفٌ بَاذِخٌ وَمُلْكٌ كَبِيرٌ
 وَيَمِينٌ بُسْطُ^(١) وَأَمْرٌ جَسَامُ
 «عَمْرٌ» أَنْتَ بِيَدِ أَنْكَ ظِلٌّ
 لِلْبَرَايَا وَعَصْمَةٌ وَسَلَامُ
 مَا تَتَوَجَّعَتَ بِالْخِلَافَةِ حَتَّى
 تَوَجَّعَ الْبَائِسُونَ وَالْأَيْتَامُ
 وَسَرَى الْخَصْبُ وَالنَّمَاءُ وَوَافَى الدِّ
 بَشَرُ وَالظِّلُّ وَالْجَنَى وَالْغَمَامُ
 وَتَلَقَّى الْهَلَالَ مِنْكَ جَبِينٌ
 فِيهِ حُسْنٌ وَبِالْعَفَاةِ غَرَامُ
 فَسَلَامٌ عَلَيْهِمْ وَعَلَيْهِ
 يَوْمَ حَيِّثُ هُمْ بِهِ الْأَيَّامُ

(١) يمين بسط بالضم مبسوطة .

و (بَدَا المَلِكُ) مُلْكُ عِثْمَانَ مِنْ عَدِ
يَاكَ فِي الذَّرْوَةِ الَّتِي لَا تُرَامُ
يَهْرَعُ الْعَرْشُ وَالْمُلُوكُ إِلَيْهِ
وَبَنُو الْعَصْرِ وَالْوَلَاةُ الْفَخَامُ
هَكَذَا الدَّهْرُ حَالَةٌ ثُمَّ ضَدَّ
مَا لِحَالٍ مَعَ الزَّمَانِ دَوَامُ
وَلَأَنْتَ الَّذِي رَعِيَتْهُ الْأُسُ
مُ دُومَسْرَى ظِلَالِهَا الْآجَامُ
أُمَةُ التُّرْكِ وَالْعِرَاقِ وَأَهْلُو
ه وَلِبْنَانُ وَالرُّبَى وَالْخِيَامُ
عَالَمٌ لَمْ يَكُنْ لِيُنْظَمَ لَوْلَا
أَنَّكَ السَّلَامُ وَسَطَهُ وَالْوِثَامُ
هَذَبَتْهُ السَّيُوفُ فِي الدَّهْرِ وَالْيَوْمِ
م أَتَمَّتْ تَهْذِيبَهُ الْأَقْلَامُ
أَيَقُولُونَ سَكْرَةً لَنْ تَجَلَّى
وَقَعُودٌ مَعَ الْهَوَى وَقِيَامُ
لِيَذُوقَنَّ لِلْمَهْلَهْلِ صَحْوًا
تَشْرَفَ الْكَأْسُ عِنْدَهُ وَالْمَدَامُ
وَضَعَ الشَّرْقُ فِي يَدَيْكَ يَدِيهِ
وَأَتَتْ مِنْ حُمَاتِهِ الْأَقْسَامُ
بِالْوَلَاءِ الَّذِي تَرِيدُ الْأَيَادِي
وَالْوَلَاءِ الَّذِي يَرِيدُ الْمَقَامُ

غير غاوٍ أو خائنٍ أو حَسودٍ
 برئت من أولئك الأحلامُ
 كيف تهدي لما تشيّد عيونُ
 في الثرى ملؤها حصّى ورغامُ
 مُقلّ عانت الظّلام طويلاً
 فعمّاهَا في أن يزول الظّلامُ
 قد تعيش النفوسُ في الضيّم حتى
 لتَرى الضيّم أنّها لا تُضامُ
 أيّها النّافرون عودوا إلينا
 ولجّوا البابَ إنّهُ الإسلامُ
 غرض أنتم وفي الدّهر سَهْمُ
 يَوْم لا تدفع السّهام السّهامُ
 نمّت ثم تطلبون المعالي
 والمعالي على النّيام حرامُ
 شرّ عيش الرّجال ما كان حُلماً
 قدّ تسيعُ المنيّة الأحلامُ
 ويبيتُ الزمانُ أندلسيّاً
 ثمّ يضحى وناسه أعجامُ
 عالي الباب هزّ بابك متّاً
 فسعينَا وفي النّفوسِ مرامُ
 وتجلّيت فاستلمنا كما للّد
 اس بالركنِ ذي الجلال استلامُ

نَسْتَمِيحُ الْإِمَامَ نَضْرًا لِمِضْرٍ
مَثَلَمَا يَنْضُرُ الْحَسَامَ الْحُسَامُ
فَلِمِضْرٍ وَأَنْتَ بِالْحَبِّ أَذْرَى
بِكَ يَا حَامِيَ الْحِمَى اسْتِعْصَامُ
يَشْهَدُ اللَّهُ لِلنَّفُوسِ بِهَذَا
وَكَفَّاهَا أَنْ يَشْهَدَ الْعَلَامُ
وَالِى السَّيِّدِ الْخَلِيفَةِ تَشْكُو
جَوْرَ دَهْرٍ أَحْرَارُهُ ظُلَامُ
وَعَدُوها لَنَا وَعُودًا كَبَارًا
هَلْ رَأَيْتَ الْفُرَى عَلَاهَا الْجَهَامُ؟
فَمِلْنَا لِمِ يَكُ الدَّاءِ يَحْمِي
أَنْ تَمَلَّ الْأَرْوَاحُ وَالْأَجْسَامُ
يَمْنَعُ الْقَيْدُ أَنْ نَقُومَ فَهَلْ تَا
جُ فَبِالتَّاجِ لِلْبِلَادِ قِيَامُ
فَارْفَعِ الصَّوْتَ إِنَّهَا هِيَ مِضْرُ
وَارْفَعِ الصَّوْتَ إِنَّهَا الْأَهْرَامُ
وَارْعَ مِضْرًا وَلَمْ تَزَلْ خَيْرَ رَاعٍ
فَلَهَا بِالذِّى أَرْتِكَ زِمَامُ
إِنَّ جَهْدَ الْوَفَاءِ مَا أَنْتَ آتٍ
فَلِيُقْمَ فِي وَفَائِكَ الْخِدَامُ
وَلِيُصُولُوا بِمَنْ لَهُ الدَّهْرُ عَبْدُ
وَلَهُ السَّعْدُ تَابِعٌ وَغِلَامُ

فاللّواء الذي تلقّوا رَفِيعُ
 والأمور التي تولّوا عِظَامُ
 مَنْ يُرَدُّ حَقُّهُ فَلِلْحَقِّ أَثْصَا
 رُ كَثِيرٌ وَفِي الزَّمانِ كِرامُ
 لا تروَقَنَّ نَوْمَةُ الحَقِّ لِلْبَا
 غي فَلِلْحَقِّ هَبَةٌ وَانْتِقامُ
 إِنَّ لِلوَحْشِ وَالْعِظَامِ مُنَاهَا
 لِمَنايَا أسبابهنَّ العِظَامُ
 رافِعُ الضَّادِ لِلسُّها هل قبول
 فيباهي النّجومَ هذا النّظامُ
 قامتِ الضَّادُ في فمي لك حب
 فهي فيه تحيةٌ وابتسامُ
 إِنَّ في «يلدز» الّهْدَى لَخِلالاً
 أنا صبَّ بِلُطْفِها مُسْتَهامُ
 قد تجلّتْ لخيرِ بَذَرٍ أَقْلَتْ
 في كمالِ بَدَتْ لَهُ أَغْلَامُ
 فالزِمِ التَّمَّ أَيُّها البَذَرُ دَوْماً
 والزمِ البَذَرَ أَيُّها هذا التمامُ
 فعارضته بالقصيدة الآتية:

هَلْ لِسَانٌ أَقْوالُهُ الإلهامُ؟
 أَمْ بَيانُ آيَاتِهِ الأحكامُ؟

فتبارى الألفاظُ شأو المعاني
 ويُوفى حقَّ الثَّناءِ الإمامُ؟
 الذي شَرَّفَتْ خِلافَتُهُ الأُرْ
 ضَ فحَفَّ البرِّيَّةُ الإِكرامُ
 وَغَدَتْ لَهجَةً الثَّناءِ عليه
 مِثْلَ مَا دَامَ لِلصَّلَاةِ إِقامُ
 فَغَدَتْ نَهْضَةُ البَلَاغَةِ عنه
 وَدَنَتْ عَنْ خِيَالِهِ الأوهامُ
 قَعَسُ فِي الصَّفِيحِ مِنْ أَطْلَسِ العِ
 زِّ تَهَاوَتْ مِنْ دُونِهِ الأَفْهَامُ



إِنَّمَا وَصَفُهُ عَلَى فَاتِحِ الْأَفْكََا
 رِ فِي الدَّرْوَةِ التِّي لَا تُرَامُ
 كُلَّ طَرْفٍ لِلْفِكْرِ عَنْهُ كَلِيلُ
 كُلَّ طَرْفٍ لِلجَزْيِ فِيهِ كِهَامُ
 قَصُرَ الوَصْفُ دُونَ مَنْ يَفْضَحُ الوَصْدَ
 فَ وَعِنْدَ الْفِعَالِ يُخْفَى الْكَلَامُ
 يَنْبُذُ الشُّعْرَ وَالشُّهُودَ وَالرِّيَاضِيَّةَ
 بَاتُ عَدَا وَالْحَجَّةُ الْأَرْقَامُ
 إِنَّ مَا سَالَ فِي ثَنَاهُ يَرَاعُ
 لَا كَمَا سَحَّ مِنْ يَدَيْهِ غِمَامُ
 وَفِعَالُ الضَّرْغَامِ أَوْقَعُ فِي التَّنْفِ
 سِ مِنَ الْقَوْلِ إِنَّهُ الضَّرْغَامُ

كلَّ يومٍ له صَنَائِعُ تَثْرَى
 في البرايا لباسهنّ الدوامُ
 تَكْفُلُ النَّاسَ مَثَلَمَا يَكْفُلُ الغب
 راءَ غَيْثٍ له عليها انسجامُ
 طَوَّقَ الخَلْقَ جُودُهُ وَندَاهُ
 فهَي في مَدْحِهِ لَعْمَرِي حمامُ
 وجدِيرٌ أَنْ تَنْطُقَ الطيرُ والوح
 شُ فَيَتَلَوْ الصِّدَاحُ فيه البغامُ



نسختُ عنده المُلُوكُ وَأَمْسَى
 خَبِراً مَنْ أَخْبَارَ كَانَ الكرامُ
 ما رَأَى مثله الزَّمانُ عَظِيماً
 صَبِيَّةٌ عنده الرِّجَالُ العِظَامُ
 جَاءَ مِنْ ضُئْضَى الخِلَافَةِ فرداً
 هُوَ مِنْ مَعَشَرِ المُلُوكِ السَّنامُ
 فَرَعُ عُثْمَانَ وَكَفَى المَجْدُ والأخ
 سَابُ والمَكْرُمَاتُ والأحلامُ



دولة حجة الزمانِ على الخَلْدِ
 قِي بها دُونَ مِرْيَةِ إلزامِ
 ليسَ للشَّرْقِ غيرُها فَبُنُو المشِ
 رِقَ طَرّاً بدونها أَيْتامُ

قَدْ أَقَامَتْ سُرَادِقَ الْعَزِّ يَعْلِي
 هِ الْوَشْيُجَ الرِّمَاحُ وَالْأَقْلَامُ
 فَوْقَهُ رَايَةُ الْهَيْلَالِ مِنْيرَا
 يَدْبُرُ الظُّلَمَ عِنْدَهَا وَالظَّلَامُ
 يَنْضَوِي تَحْتَهَا التَّقَادُّمُ مَعَ الْأَسَدِ
 يَدِ وَتَرْعَى الذَّنَابُ وَالْآرَامُ



مَجْدُ عُثْمَانَ لَيْسَ غَيْرِكَ مَجْدُ
 كُلِّ مَذْحٍ مِنْ دُونِ مَذْحِكَ ذَامُ
 لَمْ تَزَلْ شَامِخًا بِأَنْفٍ عَزِيزِ
 وَلَكُمْ أَغْطَسَ الْمُلُوكُ الرِّغَامُ
 لَا تَرَى دَوْلَةً هُزَالًا وَضَعْفًا
 حَوْلَهَا الْمُسْلِمُونَ وَالْإِسْلَامُ
 وَعَلَى رَأْسِهَا خَلِيفَةُ عَضْرِ
 دَهْرُهُ تَابِعٌ لَهُ وَغَلَامُ
 لَمْ يَزَلْ قَائِمًا لَدَيْهِ بِأَبْوَا
 بِ عَلَيْهِنَ لِلْجَبَاهِ اِزْدَحَامُ
 حَيْثَمَا تَهْطَعُ الْمُلُوكُ تَعْنُو
 تَحْتَ تَيْجَانِهَا الطَّلَى وَالْهَامُ
 مَوْقِفٌ تَخْشَعُ التَّوَاظِرُ فِيهِ
 وَتَسْوَى الرُّؤُوسُ وَالْأَقْدَامُ

قَدْ حَبَاهُ عَثْمَانُ أُسَّامَتِينَا
 مِثْلُ الْبَيْتِ عِنْدَهُ وَالْمُقَامُ
 شَابَ قَرْنُ الزَّمَانِ وَهُوَ مَكِينُ
 وَتَخَطَّتْ مَنَاتُهَا الْأَعْوَامُ
 وَغَدَا آلِفًا سَهَامَ اللَّيَالِي
 فَلَذَا لَا تُنَالُ مِنْهُ السَّهَامُ



إِلَيْهِ «عَبْدُ الْحَمِيدِ» إِنَّ زَمَانَا
 أَنْتَ فِيهِ عُبَّاسُهُ بِسَّامُ
 أَوَّلُهُ نَصْرُكَ الْعَزِيزُ وَأَيَّدُ
 وَارَوْ مَصْرًا لَهُ إِلَيْكَ أَوَامُ
 أَشْخَصَتْ نَحْوَكَ الْعُيُونُ حَيَارَى
 أُمُّ الْخَافَقِينَ وَالْأَقْوَامُ
 وَتَصَبَّى الْقُلُوبُ مِنْكَ خِلَالُ
 يَحْرَمُ الْعِشْقُ دَوْنَهَا وَالْهِيَامُ
 أَقْبَلَ الْعَصْرُ يَرْتَجِيكَ وَفِي الْيَمِ
 نِي كِتَابٌ وَفِي الشَّمَالِ حَسَامُ
 حَبَّذَا الدَّوْلَةُ الَّتِي صَارَ فِيهَا
 تَوَآمَيْنَ الْعُلُومُ وَالْأَعْلَامُ
 هُوَذَا الشَّرْقُ فِي حِمَاكَ لَكَ الْأَمُ
 رُ جَمِيعاً وَفِي يَدَيْكَ الزَّمَامُ

هَزَّه هَزَّةٌ تَثُوبُ بِهَا الرُّو
حُ وَتَحْيِي الْأَمَالَ وَهِيَ رَمَامُ
أَرْهَفِ الْحَدَّ لِلْخَطُوبِ فَمَا يَنْدُ
فَعُ مَعَ هَذِهِ اللَّيَالِي احْتِشَامُ
لَمْ تَزَلْ أَرْضُنَا مَآسِدَ بِاللَّهِ
وَمَا أَوْى رَجَالِنَا الْآجَامُ



إِنَّ لِلشَّرْقِ هَبَّةً بَعْدَ نَوْمٍ
أَزْعَجَتْهُ خِلَالُهُ الْأَحْلَامُ
هَبَّةٌ تَبْعَثُ الْحَمِيَّةَ فِي النَّاسِ
سِ كَمَا يَبْعَثُ الْخَمَارَ الْمَدَامُ
يَسْأَلُ الْغَرْبَ عِنْدَهَا الشَّرْقَ هَلْ جَاءَ
عَكَ رُوحٌ تَحْيَا بِهِ الْأَصْنَامُ؟
تُرْسِلُ الْكَهْرُبَاءَ فِيهَا شُعَاعاً
وَيَرَى لِلْبُخَارِ فِيهَا رِكَامُ
وَتَشْبُ النِّيرَانُ فِي كُلِّ أَرْضٍ
فَتَعُودُ النِّيرَانُ وَهِيَ سَلَامُ
إِنَّمَا تَثْلُجُ الصُّدُورُ بِسَلَمٍ
حَيْثَمَا يَوْقَدُ الصَّدُورَ ضِرَامُ



يَا إِمَامَ الْهُدَى هَنِيئاً وَأُولَى
أَنْ يَهْنَأَ بِالْعِيدِ عَنْكَ الْأَنَامُ

إِنْ أَحَاوِلْ عَلَى عُلاكَ ثَنَاءً
 فَهُوَ مِمَّا قَضَى عَلَيَّ الذَّمَامُ
 أَوْ أَعَارِضْ فَتَى الْقَرِيضِ ^(١) فَمَا عَا
 رَضَ وَرَزْدُ الْحَدَائِقِ الْقَلَامُ ^(٢)
 ذَا مَجَالٍ رَضِيَتْ فِيهِ مِنَ السَّبِّ
 قِيَّ بَعَزْمٍ لَمْ يَثْنِهِ الْإِحْجَامُ
 وَإِذَا كَانَ بَدْعٌ وَضَفِكَ سَمِطاً
 جَاءَ عَفْوَاً مِنَ الْقَرِيضِ النِّظَامُ

إِنْ يَوْمًا بِهِ الْجُلُوسُ تَجَلَّى
 هُوَ يَوْمٌ خَدَّامُهُ الْأَيَّامُ
 كَفَّرَ الدَّهْرُ فِيهِ عَنْ كُلِّ مَا جَرَى
 فَلَمْ يَتَّجِهْ عَلَيْهِ مَلَامُ
 جَاءَ خَتَمًا لَطَارِقَاتِ اللَّيَالِي
 فَاخْتَلَفَاتِهَا إِلَيْنَا لِإِمَامٍ ^(٣)

لَيْسَ يَلْحَى عَلَى أَوَالِيهِ عَصْرٌ
 بِمَعَالِيكَ طَابَ مِنْهُ الْخَتَامُ

(١) شوقي .

(٢) القلام: القاقلي . قال المعري :

لولا غضا نجد وقلامه لم يثن بالطيب على رنده

(٣) جمع لمة . يقولون : ما تزورنا إلا لماماً أي في الأحيان .

ولما استرجعت الدولة العثمانية مدينة أدرنة وتوابعها بعد الحرب البلقانية المشؤومة أرسلت الدولة وفداً إلى أدرنة من رجال العرب لتهنئة أهل تلك الديار على رجوعهم إلى حضن الدولة فجرت احتفالات وقيلت خطب، وكنت من جملة أعضاء الوفد العربي المذكور، فتلوت أمام ضباط الجيش العثماني قصيدة نشرتها أكثر الجرائد العربية والتركية ولا أزال أحفظ منها الأبيات التالية: [من الطويل]

فِدَى لِحمانا كلَّ مَنْ يَمْنَعُ الحِمَى
وَمَنْ لَيْسَ يَرْضَى خَوْضَهُ متهدماً
فما العيشُ إِلَّا أَنْ نَمُوتَ أعزّةً
وما الموتُ إِلَّا أَنْ نَعِيشَ ونَسَلماً
تأملْتُ في صَرَفِ الزَّمانِ فلم أجِدْ
سِوَى الصَّارِمِ البِتَّارِ للسلمِ سلماً
ولم أرَ أنأى عن سَلامٍ مِنَ الذي
تَأخَّرَ يَعتَدُّ السَّلامَةَ مَغْنَمًا
يَقُولُونَ وَجْهَ السَّيْفِ أبيضَ دائماً
وما ابيضُ إِلَّا وَهُوَ أَحْمَرُ بالدماءِ
فإنَّ يَكُ دَفْعُ الشَّرِّ بالرأيِ حازماً
فما زالَ دَفْعُ الشَّرِّ بالشَّرِّ أَحْزَمًا
تَجاهِلُ أَهْلُ الغَرْبِ كلَّ قُضيةٍ
إذا لم يَجِءْ فيها الحُسامُ مترجماً
وكَابرُ قَوْمٍ يَنظُرُونَ بأعينِ
أَلَا عَمَهُ الألبابُ أَعْمَى مِنَ العَمَى

(أدرنة) يا أُمَّ الحُصُونِ وَمَنْ عَدَتْ
لدار بني عثمان سُوراً وَمِعْصَماً
فَدَيْنَاكَ رِبْعاً ما أَبْرَ بأَهْلِهِ
وَأُمّاً عَلَيْنَا ما أَعَزَّ وأَكْرَمَا
عَمَرْنَاكَ أَحْقَاباً طَوَالاً فلم نَزَلْ
بأَهْلِكَ مِنْ أَهْلِ البَسِيطَةِ أَرْحَمَا
فَلَمَّا أَتَاكَ الْمُضْلِحُونَ بَزَعِيهِمْ
أَعَادُوا إِلَى تِلْكَ الْجَنَانِ جَهَنَّمَا
أَلَّا قُلْ (لفردينان)^(١) أَسْرَفْتَ عَادِيّاً
وَأَكْثَرْتَ فِي وَادِي الضَّلَالَةِ مَزَعِمَا
وَهَاجَمْتَ والأَحْلَافَ غَدْرًا وَغِيلَةً
رَجَالاً غَدَوْا عَمَّا تَكِيدُونَ نَوْمَا
رَجَالاً لَهَا بَعْضٌ بَبْعُضٍ تَشَاجِرًا
فَكَانَ قَضَاءُ اللَّهِ فِيهِمْ مُحْتَمًا
تَعَرَّضَ هَذَا الْمَلِكُ مِنْكُمْ وَمِنْهُمْ
لِسَهْمَيْنِ كُلُّ مِنْهُمَا انْقَضَ أَشْهُمَا
(أدرنتنا) لو كَانَ لِلصَّخْرِ أَلْسُنٌ
بِهَا يَوْمَ عَادَ الرَّاجِعُوهَا^(٢) تَكَلَّمَا
فَمَا مِنْ فَتًى إِلَّا وَأَجْهَشَ بِالْبُكََا
وَمَا مِنْ جَوَادٍ عَادَ إِلَّا وَحُمَحَمَا

(١) ملك البلغار .

(٢) رجعته رده مثل أرجعه .

ولا عادةً إلاَّ وكَفَّ دَمْعُهَا
مَكْرُ حِمَاةِ الْعَرْضِ كَالسَّيْلِ مُفْعَمَا
[و] لَا مِنْبَرٌ إِلَّا وَأُورِقَ بِهِجَةٌ
وَقَامَ عَلَيْهِ سَاجِعٌ مَتَرْتَمَا
وَقَرَّتْ عَيُونُ الْمُصْطَفَى فِي ضَرِيحِهِ
وَهَنَّاهُ فِي الْفِرْدَوْسِ عَيْسَى بْنُ مَرِيَمَا

ومنها :

تَعَجَّلْتُمُو مَنَا ثَغُوراً شَوَاغِراً
فَهَلَّا وَقَدْ جَاءَ الْخَمِيسُ عَرْمَرَمَا
خَمِيسٌ إِذَا النِّيَّاتُ صَحَّتْ رَأَيْتَهُ
يَخِيْمُ مَعَهُ نَضْرُهُ حَيْثُ خَيْمَا
تَأْمَلُ أَهَاضِيبَ الْجِبَالِ وَقَدْ رَسَتْ
وَحَدَّثَ عَنِ الْبَحْرِ الْمَحِيْطِ وَقَدْ طَمَى
تَضْيِءُ نَوَاحِيهِ بَغْرَةٌ عَزَّةٌ ^(١)
مَشِيْعٌ مَا تَحْتَ الضَّلُوعِ غَشْمُشَمَا
يَلِيهِ مِنَ الْأَبْطَالِ كُلِّ غَضَنْفَرٍ
إِذَا عَبَسَ الْمَوْتُ الزَّوَامَ تَبَسَّ مَا
تَرَاهُمْ لِيُوْثَاً فِي الْوَعَى وَضِيََاغَمَا
وَفِي أُفُقِ النَّادِي بُدُوراً وَأُنْجُمَا

(١) أحمد عزت باشا الأرناؤوطي قائد الجيش .

فَمَنْ مَبْلَغِ الْبُلْغَارِ أَنَا إِلَى الْوَعَى
وَإِخْوَانُنَا الْأَتْرَاكَ نَزَحَفُ تَوَامَا
وَأَنَا جَمِيعُ الْعُرْبِ وَالتُّرْكِ إِخْوَةٌ
عَلَيْهِمْ إِلَيْهِمْ يَبْتَغُونَ تَقَدُّمًا
وَلَيْسَ يُزَالُ الْعُرْبُ وَالتُّرْكُ أُمَّةً
حَنِيفِيَّةً بِيضَاءً لَنْ تَتَقَسَّمَا
وَقُولُوا لَهُمْ بَانَتْ سُعَادُ فَلَا يَزَلْ
فَوَادُّكُمْ دَهْرًا عَلَيْهَا مَتِيَّمَا
سَتَلِبْتُ عِثْمَانِيَّةً رَغَمَ أَنْفِكُمْ
وَأَنْفِ الْأَلَى مَتَا يَصِيحُونَ لَوْ مَا
فَلَا يَطْمَعُنْكُمْ فِي أَدْرَنَةِ مَطْمَعُ
وَلَا تَفْتَحُوا فِي شَأْنِهَا أَبَدًا فَمَا
أَدْرَنَةُ صَارَتْ عِنْدَنَا تِلْوًا مَكَّةَ
وَمَاءَ الْمَرِيَجِ الْيَوْمَ أَشْبَهَ زَمْزَمَا

ومنها :

فَيَا لَكَ مِنْ يَوْمٍ أَتَى فِي خُطوبِنَا
كَشَادِخَةِ غَرَاءٍ فِي وَجْهِ أَذْهَمَا
وَكَانَتْ بَقَايَا السَّيْفِ تَبْكِي فَأُصْبَحَتْ
تُضَاجِكُهُمْ طُرًّا مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ
وَمَا زَالَتِ الدُّنْيَا سُرُورًا وَغُصَّةً
وَمَا زَالَتِ الْأَيَّامُ بُؤْسَى وَأَنْعَمَا

عَسَى كُلَّ يَوْمٍ بَعْدَ يَوْمٍ أَذْرَنَةً
يَعُودُ عَلَى الْإِسْلَامِ عِيداً وَمَوْسِماً
وَلَيْسَ عَلَى الْمَوْلَى عَسِيرٌ بَأَنَّ نَرَى
هَنَاءَ مَحَا ذَاكَ الْعِزَاءِ الْمَقْدَمًا



ولما أعلن السلطان عبد الحميد الدستور العثماني وعم الفرح في
ذلك الوقت جميع الأمة حصل اجتماع كبير في بيروت فتلوت فيه
هذه القصيدة ذاهباً فيها مذهب من لا يريد أن تكون الحرية مقرونة
بالفوضى ومن يغار على مقام الخلافة:

[من الطويل]

أَلَا يَا بَنِي عُثْمَانَ حَسْبُكُمْ بُشْرَى
لَقَدْ جَادَ رَبُّ الْعَرْشِ بِالتَّعْمَةِ الْكُبْرَى
وَقَدْ فُزْتُمْ ذَا الْيَوْمَ بِالْغَايَةِ الَّتِي
عَلَيْهَا رَجَالٌ قَدْ قَضَوْا دُونَكُمْ قَهْرًا
أَطَلَّتْ عَلَيْكُمْ بَغْتَةً شَرَّدَ الْمَنَى
تَحَقَّقَ بَعَثَ اللَّهُ مَعَ عُسْرِهِ الْيُسْرَا
أَتَتْ وَحِجَابُ الْيَأْسِ قَدْ حَالَ دُونَهَا
كَمَا يَنْشُرُ الدِّيَّانُ مَنْ سَكَنَ الْقَبْرَا
وَكَمْ قَدْ أَسَاءْتُمْ مِنْ ظُنُونٍ وَقُلْتُمْ
مَضَيْنَا وَبَعْضَ الظَّنِّ يَحْتَقِبُ الْوُزْرَا
فَعَنْ غَيْرِ وَعْدٍ بَدَّلَ اللَّهُ حَالَكُمْ
لَتَضْحَى لَكُمْ رُحْمَى وَتَعْدُو لَكُمْ ذِكْرَى

ويعلمُ أنَّ اللَّهَ لا رَبَّ غَيْرَهُ
 وليس سِوَاهُ يَمْلِكُ النَّفْعَ وَالضَّرَّ
 أراد تَلَا فِي الشَّرْقِ مَنْ عَثَرَاتِهِ
 فَأَلْقَى عَلَيْهِ مِنْ عَنَائِتِهِ سِتْرًا
 وَالْهَمَّ مَوْلَانَا الْخَلِيفَةَ ظَلَّهُ
 قِيَامًا عَلَى الدُسْتُورِ فِي الدَّوْلَةِ الْغُرَا
 تَدَارَكَهَا رَمَقًا بِإِكْسِيرِ نَاطِرٍ
 إِذَا مَالَ نَحْوَ التَّرْبِ صَيَّرَهُ تَبْرًا
 فَنِلْتُمْ بِنِعْمَاهُ حَيَاةً جَدِيدَةً
 عَدَّتْ بِنَفُوسٍ عِنْدَ غَيْرِكُمْ تُشْرَى
 سَلَامًا وَبَرْدًا نِلْتُمُوهَا بِلُطْفِهِ
 وَجِيرَانَكُمْ بِالسَّيْفِ هَامَاتِهِمْ تَفْرَى
 بِكُمْ ضَنْ إِشْفَاقًا وَفِي أَرْضٍ غَيْرِهِ
 فَمَا أَكْثَرَ الْقَتْلَى وَمَا أَرْخَصَ الْأَسْرَى
 وَحَاشَا أَبَا بَرٍّ الْأَبْوَّةَ مِثْلَهُ
 يَرِيدُ بِنَا ضَيْمًا وَيُرْهِقُنَا عُسْرًا
 إِمَامٌ لَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ عَوَارِفُ
 عَلَى الشَّرْقِ وَالْإِسْلَامِ لَا تَقْبَلُ الْحَضْرَا
 تَلَقَّاهُ عَصْرٌ بِالْخُطُوبِ فَلَمْ يَزَلْ
 يُكَافِحُ فِي آرَائِهِ وَحَدَّ الْعَصْرَا
 أَذَلَّ عِنَادَ النَّائِبَاتِ فَأَسْلَسَتْ
 وَأَصْبَحَ بِالتَّدْبِيرِ يَفْتَادُهَا قَسْرَا

لَنَا مِنْ نَدَاهُ الْجَمِّ فِي كُلِّ حَادِثٍ
سَحَائِبُ فِي الْأَفْطَارِ قَدْ حَكَتِ الْقَطْرَا
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا الطَّرِيقُ الَّذِي بِهِ
غَدَا أُمَمًا شَبَابُكَ طَهَّ أَبِي الزَّهْرَا ^(١)
لَكَانَ لِعَمْرِي كَافِيًا فِي ثَنَائِهِ
وَأَنْ يَبْلُغَ الْفَخْرَ الْمُؤَثَّلَ وَالْأَجْرَا
لَقَدْ مَنْ بِالنَّعْمَى الَّتِي جَاءَ وَقَعُهَا
عَلَى الْخَلْقِ وَقَعَ الْمَاءُ مِنْ كَبِدِ حَرَّى
وَأُمَّةٌ عُثْمَانُ أَزَالَتْ بِلَحْظَةٍ
بِهِ بِاللَّيَالِي الْبَيْضِ أَيَامَهَا السَّمْرَا
فِيَا لَكَ بُشْرَى فِي مَسَامِعِ أُمَةٍ
بِهَا قَدْ عَدَّتْ سَكْرَى وَلَمْ تَعْرِفِ الْخُمْرَا
وَيَا لَكَ مِنْ أَمْرٍ بِهِ الْبَرْقُ جَاءَنَا
فَسَأَلْتُ لَهُ سُحْبُ الدَّمُوعِ مِنَ السَّرَا
وَيَا لَكَ مِنْ وَقْتٍ سَعِيدٍ أَظَلَّنَا
وَيَوْمَ تَبَشَّرْنَا بِهِ يَعْدُلُ الْعُمْرَا
فَشُكْرًا عَلَى النِّعْمَاءِ إِخْوَانَنَا الْأَلَى
لَدَى تِلْكَمُ الْبِأْسَاءِ قَدْ أَحْسَنُوا الصَّبْرَا
أَلَا قَدَّرُوا هَذَا الْمَكَارِمِ قَدْرَهَا
وَأَدَّوْا عَلَيْهَا مِنْ صِدَاقَتِكُمْ شُكْرَا

(١) سكة حديد الحجاز .

فَكَمْ قَدْ وَقَفْتُمْ صَابِرِينَ وَكُنْتُمْ
 عَلَى شَاطِئِ لَا تَمْلِكُونَ لَهُ عِبْرًا
 وَلَا تَذْكُرُوا ذَاكَ الزَّمَانَ الَّذِي مَضَى
 فَقَدْ عَاضَ حُلُو الْيَوْمِ مِنْ مُرٍّ مَا مَرًّا
 لَقَدْ طَالَ لَيْلٌ بِالْمَحَبِّينَ غَاسِقٌ
 فَقَدْ نَسِيَ الظُّلَمَاءُ مَنْ شَهِدَ الْفَجْرَا
 وَلَا عُدْرَ فِي التَّقْصِيرِ بَعْدَ الَّذِي جَرَى
 فَمَا فَاتَ فَرَضُ الصَّوْمِ مِنْ شَهِدِ الشَّهْرَا
 وَقَدُّوا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْفُسِ
 كَفَتْهَا إِلَى عُثْمَانَ نِسْبَتُهَا فَخْرَا
 سَيَعْدُو لَكُمْ دُورٌ جَدِيدٌ بِجُودِهِ
 وَقَبْلًا أَيَادِيهِ عَلَى هَامِكُمْ تَتَرَى
 تَلْقُوا لَنَا الْعَصْرَ الْجَدِيدَ بِحِكْمَةٍ
 فَقَدْ جَاءَ عَدُوٌّ فِي شَبِيبَتِهِ الْخُضْرَا
 لَقَدْ مَنْنَ بِالشَّوَرَى عَلَيْكُمْ بِمَقْتَضَى
 (وشاورهم بالأمر) إِنْ تَحْمِلِ الْأَمْرَا



وهذه الأبيات من قصيدة نظمها وقت إعلان الدستور العثماني
 وقد فقدت القصيدة:

[من البسيط]

تَذَكَّرُوا مَثَلَ الْخَطَابِ حِينَ جَرَى
 ذَاكَ الْخَطَابُ عَسَاهَا تَنْفَعُ الذِّكْرُ

إِذْ ارْتَقَى مِنْبَرًا يَدْعُو رَعِيَّتَهُ
 إِذَا تَرَوْنَ اعْوِجَاجًا بِي فَلَا تَذَرُوا
 فَقِيلَ وَاللَّهِ لَوْ أَنَّا نَرَى عِوَجًا
 إِذَا أَقْمَنَاهُ بِالْأَسْيَافِ يَا عَمْرُ
 فَقَالَ أَحْمَدُ رَبِّي إِذْ عَلَى يَدِكُمْ
 بَاتَتْ تَقُومُ مِنِّي الْبَيْضُ وَالسُّمَرُ
 وكتبْتُ هذه القصيدة من ساحة الجهاد في الجبل الأخضر لأول
 هجوم إيطاليا على طرابلس الغرب:

[من الطويل]

سِرَاعًا بَنِي أُمِّي بَحَثْ ظَعُونَهَا ^(١)
 فَمَا حَرَّكَ الْآلَامَ غَيْرَ سُكُونِهَا
 وَمَا زَالَ فَرِيّ الْخُطْبِ تَحْتَ خِفَافِهَا
 وَشَرَحْ صُدُورَ الرِّكَبِ فَوْقَ مُتُونِهَا
 لَعُمْرِ الْمَعَالِي مَا عَدَوْنَ دِيَارِنَا
 وَلَا حُرْبَتِ ^(٢) إِلَّا بِطُولِ هُدُونِهَا
 وَلَا كَانَ مَا قَدْ آثَرْتُ مِنْ فُتُورِهَا
 سِوَى الْأَصْلِ فِيمَا كَابَدْتُ مِنْ فُتُونِهَا ^(٣)
 يِعَافُونَ مَرُودَ الصَّعَابِ إِلَى الْعُلَى
 وَلَا مَجْدٌ إِلَّا بَارْتِقَاءِ حُزُونِهَا

(١) الظعون بفتح أوله البعير يحمل عليه .

(٢) أي ما سلبت ملكها إلا بفرط سكونها .

(٣) الوقوع في الفتنة .

فَمَنْ يَرِدُ الْأَيَّامَ بَيْضاً فَلَا يَكُنْ
 جَزُوعاً لَكِرَاتِ اللَّيَالِي بِجَوْنِهَا
 رَكِبْنَا ظُهُورَ الصَّافِنَاتِ وَقَدْ ثَوْتُ
 بِأَصْلَابِنَا فُرْسَانَ مَا فِي بُطُونِهَا ^(١)
 وَقُلْنَا لِهَادِينَا الْفَلَاةَ فَإِنَّا
 رَجَعْنَا إِلَى آبَائِنَا وَشُؤُونِهَا
 طَوَّأُوا شَقَقَ الْبِيدَاءِ شَرْقاً وَمَغْرِباً
 أَلَمْ نَكُ مِنْ مَاءِ الْأَوَالِي وَطِينِهَا؟
 وَمَا إِنْ شَأَى ^(٢) بِالْكَهْرْبَاءَةِ مَرْكَبُ
 بِشَاحِطَةِ الصَّحْرَاءِ مَدَّ هَجِينِهَا
 فَإِنْ يَقْطَعِ الْقَوْمُ الْبَحَارَ فَعَنْدَنَا
 مَهَامِهِ لَا تَلْقَى لَهُمْ بِسْفِينِهَا
 عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ غَيْرِ أَنَا عَصَابَةٌ
 غَضَابُ لَدُنْيَا الْمُسْلِمِينَ وَدِينِهَا
 تَعَدَّوْا حُدُودَ الصَّبْرِ حَيْفًا بِأَمَةٍ
 عَدَّوْا لِبَدَا ^(٣) فِي عَزْمِ قَطْعِ وَتِينِهَا
 وَقَدْ طَالَمَا بَشْنَا نُغَالِطُ أَنْفُسًا
 وَنَبْغِي مِنَ الْأَعْلَاجِ سَلَّ ضُغُونِهَا

(١) أي أولادنا فرسان أولادها.

(٢) شأى: سبق.

(٣) أي اجتمعوا ولصق بعضهم ببعض ومنه قوله تعالى في سورة الجن: ﴿كَادُوا

يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الآية: ١٩].

إِلَى أَنْ تَجْلَى الْعِزْمُ لَا حُجْبَ دُونَهُ
 وَقَصَّرَ بِالْأَعْدَارِ نَصَّ مَبِينِهَا
 وَلَمْ يَبْقَ مِنْ مُسْتَعْجَمٍ فِي مُرَادِهِمْ
 بِأَمَةٍ صِدْقٍ أَمَعَنْتَ فِي رُكُونِهَا
 فَقُلْنَا عَلَيْكُمْ بِالسَّيُوفِ فَإِنَّهَا
 لِأَفْصَحَ مِنْ أَقْلَامِنَا بَرْنِيْنِهَا
 فَإِنْ يَخْفِرِ الْأَعْدَاءُ بِيضَ عُھُودِنَا
 فَعِنْدَ ذِمَامِ الْبِيضِ ^(١) رَدْعُ خَوْنِهَا
 أَلَا شَدَّ مَا قَدْ أَصْغَرْتَ مِنْ مَقَامِنَا
 وَمَا اقْتَحَمْتُنَا فِي الْغُرَاةِ لَحِينِهَا
 تَنَاسَتْ سَرِيعاً مَا مَضَى مِنْ بَلَانِنَا
 وَأَنَا عَلَوْنَا عَالِيَاتِ قُرُونِهَا
 وَظَنَنْتَ عُرُوشَ الشَّرْقِ مَالَتْ وَأَصْبَحَتْ
 كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الصَّفَا وَحُجُونِهَا ^(٢)
 وَأَنْ زَمَانَ الثَّارِ وَافَى فَأَوْجَفْتُ
 أَلَا خَابَ مَا قَدْ قَدَّمْتَ مِنْ ظُنُونِهَا
 فَلَمْ يَزَلِ الْإِسْلَامُ غَضًّا ^(٣) بِأَهْلِهِ
 وَنِيرَانِهِ لَمْ تَنْطَفِئْ بِكُمُونِهَا

(١) البيض الثانية هي السيوف.

(٢) أصبح مثلاً مضروباً أصله قول الجرهمي:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
 والحجون: مكان بمكة بفتح الحاء ناحية البيت. قال الأعشى:

فلا أنت من أهل الحجون، ولا الصفا ولا لك حق الشرب من ماء زمزم

(٣) الغض: الطري الناضر.

وما رَقَرَ القِرَّانَ ماء طباعها
 فهيَّهاتِ يَحْشَى مِنْ نُضُوبٍ مَعِينِهَا
 فلا يَغْتَرِّزُ قَوْمٌ بِظَاهِرِ لِينِنَا
 فَمَا الصَّعْدَةُ السَّمَّاءِ هَوْنًا بَلِينِهَا
 لَنَا مِنْ بَنِي عُثْمَانَ كُلِّ غَضَنْفَرٍ
 تَخَرُّ لَهُ أَبْطَالُهُمْ لَذَقُونِهَا
 فَلَسْنَا نَبَاهِي أَنْ نَحْرُنَا سِخَالِهَا
 وَقَبْلًا صَرَعْنَا أُسْدَهَا فِي عَرِينِهَا
 فَمَا اضْطَلَعَتْ بِالسَّيْفِ أَيْدِي جُنُودِهَا
 وَإِنْ مَهَرْتُ فِي الشَّحْدِ أَيْدِي قُيُونِهَا
 جَحَافِلُ فِي سَيْفِ الْبَحَارِ تَخَالِهَا
 مِنَ الدُّعْرِ وَزُقًا عَكْفًا فِي وَكُونِهَا^(١)
 وَلَوْلَا الْجَوَارِي الْمُنَشَّاتِ تَمَدَّهَا
 مِنَ اللَّجِّ زَجَّتْ فِي مَفَاغِرِ^(٢) نُونِهَا
 لئن جَرَدَتْهَا رُومَةٌ لِحِصَارِنَا
 لَقَدْ أَوْدَعَتْهَا عِنْدَنَا بِسْجُونِهَا
 وَفِي كُلِّ يَوْمٍ وَقْعَةٌ لَجِيُوشِهَا
 تَضِيقُ بِهَا بَطْحَاؤُهَا بِدَفِينِهَا

(١) الورق: جمع ورقاء وهي الحمامة يضرب لونها إلى الخضرة. والوكون

جمع وكن بفتح فسكون وهو مأوى الطائر.

(٢) المفاغر جمع مفغر ويقال: واسع مفغر الفم أي فتحة الفم. والنون:

الحوت.

لَقَدْ طَعَمْتُ مِمَّا جَنَّتْهُ وَضِيعَةٌ ^(١)
 تَخَالُطُ فِيهَا جُبْنُهَا بِجَنُونِهَا
 قَدْ اسْتَوْقَدَتْهَا الْحَرْبُ نَارَ شُكُوكِهَا
 إِذِ الْعُرْبُ وَاَفَتْهَا بِثَلَجٍ يَقِينِهَا
 فَدُونَكُمْوِ يَا أَيُّهَا الْعُرْبُ حَمَلَةٌ
 نَزَارِيَّةٌ فَاسْتَبَسِّلُوا الزَّبُونِهَا ^(٢)
 وَصُونُوا ذِمَارَ الْمُلْكِ شَدًّا فَلَمْ يُمَلِّ
 سُورَجُ الْمَطَايَا غَيْرَ رَخْوٍ وَضِيْنِهَا ^(٣)
 وَهَذَا طَلَى الطَّلِيَانِ تَهْفُو إِلَيْكُمْوِ
 سُقُوطُ ثَمَارِ الدَّوْحِ مِنْ عَنِّ غُصُونِهَا
 سَتَعْلَمُ أَطْرَابُلُسُ أَنَّا صِحَابُهَا
 وَبَرْقَةٌ لَا نَرْضَى لِعَمْرِي بِدُونِهَا
 وَكُلِّ ذِرَاعٍ عِنْدَنَا مِنْ تُرَابِهَا
 كَخَالِصَةِ الْأَعْلَاقِ عِنْدَ ضَنِينِهَا
 سَلِمْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِأُمَّةٍ
 مُحَمَّدٍ طُولَ الدَّهْرِ نَوْرَ عُيُونِهَا
 تَقِيْمُ بِهَا فِي الْحَقِّ حَكَمَ أَمِيرِهَا
 وَتَرَعَى لَهَا بِالرَّفْقِ عَهْدَ أَمِينِهَا
 وَمِنْ أَمْرَاءِ الشَّرْقِ حَوْلَكَ غُصْبَةٌ
 سَطَاكَ كِرَاسِيهَا وَشَمَّ خُصُونِهَا

(١) الوضيعة: الحطيطة. (٢) يدفع بعضها بعضاً من الكثرة.

(٣) حزام السرج.

أعبّاسُ يا عَضْدَ الخِلافَةِ والذي
 يُضَاءُ به في داجياتِ دُجُونِها
 ويا سَيْفَ نَصْرِ عامِلًا في عِدَاتِها
 وقَائِمه لَمَّا يَزَلُ في يَمِينِها
 إذا اعتَصَمَتْ في رَوْعِها مِنْ مُحَمَّدٍ
 بصاحبِها منك اهْتَدَتْ لِمُعِينِها
 وإنْ جَهَمَتْها^(١) الحادِثاتُ فلم يَزَلْ
 بعبّاسِها بِسَامِ نُورِ جَبِينِها
 إذا عَالِمُ الإِسْلامِ أَوْلَاكَ شُكْرَهُ
 فما لِدُبابِ بُلْغَةٍ بَطْنِينِها
 تحنُّ إلى ناديكَ مَهْجَةً غَائِبٍ
 يَقْطَعُها في البُعْدِ فَرَطَ حَنِينِها
 فإنْ تَكَ آلَتْ نَجْدَةً لَقَبِيلِها
 فمِثْلُكَ مَنْ يَرْضَى بِبِرِّ يَمِينِها
 ولولا الحقوقُ الواجباتُ لما نبت
 أَمّاكِنْ مِنْ أوطانِها بِمَكِينِها
 تظَلُّ الدعاوى في المعالي كثيرةٌ
 وما كلُّ باغٍ وصلِها بِقَرِينِها
 إلى مُلتَقَى الجَمْعَيْنِ والسَّيْفِ فَاصِلٌ
 هنالك يُدْرَى غُثُّها مِنْ سَمِينِها

(١) جهمه: استقبله بوجه مكفهر.

هناك لنا في جانب الغرب إخوة
 تسوّمهم البؤسى العدى بفنونها
 بكينا لها نحن الألى ما تعودت
 مدامعهم في الخطب بذل مصونها
 فإن نحن قاررنا على ضيم أهلنا
 فهيها ترجو العز من بعد هونها
 ترى النفس ديناً وقفه في صفوفها
 قضاة عن الأرحام بعض ديونها
 فما الشام والتيل السعيد ودجلة
 سواها لدى أفراحها وشجونها
 ووالله لا أعطي المقاد لظالم
 ولما أرد بالتفس حوض مئونها
 إذا بات إخواني ببرقة سهداً
 فكيف تنام العين ملء جفونها^(١)

(عن مخيم عين منصور) في ظاهر أدرنة أول ربيع الأول سنة ١٣٣٠هـ

وفي أول حرب طرابلس الغرب واندفاع المصريين بمساعدة

(١) هذا الشطر الأخير تضمن أصله للأبيوردي في رثائه للقدس يوم فتحها الصليبيون فهو يقول:

وكيف تنام العين ملء جفونها على هفوات أيقظت كل نائم
 وإخواننا بالشام صرعى مقيلهم ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
 ولعل «الهفوات» هنا تصحيف «جفوات» فإن الهفوات تستعمل غالباً بمعنى
 الزلات الخفيفة ولم يكن إهمال بغداد للشام من هذا القبيل.

إخوانهم الطرابلسيين أقيمت في القاهرة سوق خيرية لشراء أشياء يعود ثمنها إلى المجاهدين والجرحى، وفي ذلك الوقت مثلوا في الأوبرا بمصر رواية «صلاح الدين الأيوبي» وتليت قصائد ثلاث: **إحداها: قصيدة لي تلوتها بنفسي، والثانية: قصيدة للمرحوم «شوقي» والثالثة: قصيدة لشاعر القطرين «خليل مطران»** وقد فقدت قصيدتي من بين أوراقني فأملت منها ما لا يزال عالقاً بخاطري وهو:

[من الطويل]

سَلَا: هَلْ لَدِيهِمْ مِنْ حَدِيثٍ لِقَادِمٍ
عَنِ الْعَرَبِ^(١) يَرُوي فِيهِ غَلَّةُ هَائِمٍ
وَهَلْ وَرَدَتْهُمْ عَنْ كَرِيمٍ مَقَامِهِ
سَمَانُ الْمَعَالِي فِي لَطَافِ النَّسَائِمِ
وَهَلْ نَظَرُوا مِنْ نَحْوِ بَرْقَةِ مُوَهِنَا^(٢)
فَلَا حَتَّ لَهُمْ مِنْهَا بُرُوقُ الصَّوَارِمِ
تَأَلَّقَ فِي لَيْلِي ظِلَامٌ وَقَسَطَلِ
فَتَنَشَىءُ سُحْبِ الدَّمْعِ مِنْ طَرْفِ شَائِمِ
مَوَاطِنُ إِخْوَانٍ تَمَلَّوْا مِنَ الرَّدَى
كُؤُوساً تَسَاقُوهَا بِمَلءِ الْحَلَاقِمِ
دِفَاعاً عَنِ الْأَوْطَانِ إِنْ دَفَاعَهَا
لَدَى كُلِّ قَوْمٍ كَانَ أَوْلَى الْمَكَارِمِ

(١) فيه تورية بين الغرب الذي هو الوطن المغربي والعرب: الدلو الذي يستلزم الرّي .

(٢) الوهن: نصف الليل أو ما بعده .

تَهَيَّبَهُمْ فِيهَا الْعَدُوَّ مَهَاجِمًا
 فَجَاءَ دَبِيبُ اللَّصِّ فِي لَيْلٍ قَاتِمٍ
 وَلَيِّنَ فِي إِقْبَالِهِ مِنْ إِهَابِهِ
 وَهَلْ يَخْدَعُ الْإِنْسَانَ لَيْنُ الْأَرَاقِمِ؟
 فَتَارُوا وَمَا كَانَتْ زَعَانِفُ رُومَةٍ
 مِنَ الْعُرْبِ أَكْفَاءَ الْيُوثِ الضَّرَاغِمِ
 وَنِعْمَ سُقَاةُ الْمَوْتِ هُمْ كُلَّمَا بَدَتْ
 بَرُوقُ الْمَوَاضِي فِي رَعُودِ الْعَمَاجِمِ
 وَحَسْبُكَ مِنْهُمْ كُلِّ قَوْمٍ نَمَتُهُمُو
 أَرْوْمَةٌ قَحْطَانٌ وَنَبْعَةٌ هَاشِمِ
 وَكَمْ وَقَفُوا يَسْتَنْصِفُونَ عَدُوَّهُمْ
 وَهَزَّوْا مِنَ الْأَمْلَاجِ جَذَعَ الْمَرَاحِمِ
 فَلَمَّا رَأَوْا عَجْزَ الدَّلِيلِ تَطَلَّبُوا
 لَدَى الصَّارِمِ الْبِتَّارِ صِدْقَ التَّرَاجِمِ
 فَلَمْ يَكْ مِثْلُ السَّيْفِ كَالْيَوْمِ قَاضِيًا
 وَلَا الْعَهْدُ مِثْلُ الْآنِ أَحْلَامُ حَالِمِ
 وَمَا طَالَ نَوْمُ السَّيْفِ إِلَّا تَنْبَهَتْ
 عُيُونُ الدَّوَاهِي مِنْهُ عَنْ جُفْنِ نَائِمِ
 أَخِلَّاهُ سَوْقٌ لِلْمَنَآيَا مَقَامَةً
 تُبَاعُ حَفَافِيهَا غَوَالِي الْجَمَاجِمِ
 فَهَلْ لَكُمْ فِي سَوْقِ بَرٍّ وَرَحْمَةٍ
 تَنَالُونَ فِيهَا بَاقِيَاتِ الْمَغَانِمِ

غياثاً لمظلوم ونَصراً لصارخ
 وضُماً للمجروح وقوتاً لصائم
 كَفَى بِالْهَلَالِ الْأَحْمَرِ يَوْمَ هَادِيَاً
 لِمَنْ حَارَ فِي لَيْلٍ مِنَ الشَّكِّ دَاهِمِ
 وَأَكْرَمَ بِأَمِّ الْمُحْسِنِينَ ^(١) الَّذِي طَمَى
 جَدَّاهَا كَلَجَ الْعَيْلِمِ الْمُتَلَاظِمِ
 سَلِيلَةَ «إِلْهَامِي» فَمِنْ كُلِّ جَانِبِ
 لَهَا نَسَبٌ نَحْوَ الْبُحُورِ الْخَضَارِمِ
 وَأَجْدَرُ بِقَوْمٍ أَمْطَرْتُهُمْ هِبَاتُهَا
 بَأَنْ يَأْمَلُوا قَرَبَ انْفِرَاجِ الْمَآزِمِ
 وَحَاشَا بِلَاداً أَنْتُمْ عَنْ يَمِينِهَا
 يُفَتِّ بِأَعْضَادِ لَهَا وَمَعَاصِمِ
 تَخِيلْتُهَا شَوْقاً عَلَى بُعْدِ دَارِهَا
 تُصَافِحُكُمْ بِالْقَلْبِ لَا بِالْبَرَاجِمِ
 لَقَدْ حُوصِرُوا بَرّاً وَبَحْراً وَأَمْطَرُوا
 بِحُمْرِ الْمَنَائِيَا مِنْ سَوَادِ الْغَمَائِمِ
 وَقَدْ طَالَ مَا أَزْهَقَتْ حَدَّ يِرَاعَتِي
 فَلَمَّا تَعَالَى الْخَطْبُ عَدْتُ لَصَارِمِي
 أَجَلَ إِنْنَا مِنْ أُمَّةٍ عَرَبِيَّةٍ
 نَكَاغُ عَنْهَا عَادِيَاتِ الْأَعَاجِمِ

(١) والدة الخديوي السابق وكانت بذلت بذلاً عظيماً لمساعدة الجرحى .

ولو أنصَفَ الأقوامُ في حقِّهم رأوا
مؤاساتهم فَرَضاً على كلِّ آدمي

وقبل الحرب العامة بسنة جرى في الآستانة تمثيل رواية
«صلاح الدين يوسف الأيوبي» باللغة العربية، وقبل التمثيل
تليت قصائد منها قصيدة للأستاذ الكبير جميل صدقي بك
الزهاوي العراقي مبعوث بغداد يومئذٍ، ومنها قصيدة للأستاذ
الكبير فارس بك الخوري السوري مبعوث الشام يومئذٍ، ومنها
هذه القصيدة لي. وإني لموصي قراء هذا الديوان بالتأمل في
الآبيات الأخيرة منها التي فيها الكلام على مصير البلاد الشرقية
ليتأملوا كيف تم كل ما قيل:

[من الطويل]

إذا افتخر الشرق القديمُ بسيدٍ
تميدُ بذكره ابتهاجاً محافلُه
ونصّت موازينُ الفَخارِ وقد أتى
يماتنُ كلَّ خُصمه ويساجلُه
فمن كصلاح الدينِ تَعْنُو لذكره
رؤوسُ أعاديهِ ومَن ذا يعادلُه
يخالطُ أعماقَ القلوبِ ولاؤه
وتفعلُ أفعالَ الشُّمولِ شمائلُه
وأقسِمُ لو في الحيِّ نودي باسمه
لدى سنواتِ المحلِّ لاخضرَّ ماجلُه
له عاملاً حربٍ، وسلّم، كلاهما
كفيلٌ باذلالِ العدوِّ وقاتلُه

مهتده في عُتُقِ قَرْنِ مَسَاوِرِ
 ومته في عُتُقِ خَصْمِ يَجَامِلُهُ
 وَمَا قَتْلُ الْحَرِّ الْأَبْيِّ الَّذِي رَكَتْ
 سَجَايَاهُ كَالْعَفْوِ الَّذِي هُوَ شَامِلُهُ
 وَمَا كُلُّ يَوْمًا عَضْبُهُ عَنْ كَرِيهَةٍ
 وَلَا مَلٌّ مِنْ حُلْمٍ وَلَوْ مَلَّ عَامِلُهُ
 تَظَلُّ طَوَالَ الْوَقْتِ تَنْدَى سَيُوفُهُ
 دِمَاءٌ وَتَنْدَى جَانِبَيْهَا فَوَاضِلُهُ
 فَكَمْ مِنْ عَدُوٍّ قَدْ تَرَدَّى بِحَرْبِهِ
 قَتِيلًا وَعَاشَتْ مِنْ نَدَاهُ أَرَامِلُهُ (١)
 وفي الحرب قد تَخْطِى مَرَامِيهِ مَرَّةً
 وفي كُلِّ حَالٍ لَيْسَ يَخْطِئُ نَائِلُهُ
 تَفِيضُ عَلَى بُؤْسِ الْعُدَاةِ دُمُوعُهُ
 وَلَمْ يَلْفَ يَوْمًا سَائِلُ الدَّمْعِ سَائِلُهُ
 كَأَنَّ الْوَرَى كَانُوا أَهَالِيَهُ جَمْلَةً
 فَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ بَائِسٍ فَهُوَ كَافِلُهُ
 وَمِنْ فِيهِمِ الْإِنْسَانِ فِي النَّاسِ فَهْمُهُ
 رَأَى أَنَّ كُلَّ الْعَالَمِينَ عَوَائِلُهُ

(١) نعم فتح بيت المقدس بحرب تشيب الأطفال ثم لما ثقف الإفرنج أسرى من عليهم وأطعمهم وكساهم وقال لهم: كنت أقدر أن أفعل بكم ما فعلتموه بالمسلمين يوم دخلتم القدس ولكن تأبى شيمي ذلك.

كَذَلِكَ مَنْ كَانَ التَّمَدُّنُ دَأْبَهُ
 سَجِيَّةً صِدْقٍ مَحْضَةٍ لَا تَزَايِلُهُ
 وَلَيْسَ كَمَنْ بَاتَ التَّمَدُّنُ يَدْعِي
 مُقَاوَلَهُ قَدْ كَذَبَتْهَا مَفَاعِلُهُ
 تَعَلَّمَ أَهْلُ الْغَرْبِ مِنْ يَوْسُفَ الْعُلَى
 وَإِنْ بَهَرْتُهُمْ فِي التَّلَافِي فَضَائِلُهُ ^(١)
 سَلُّوا الشَّرْقَ عَنْ آثَارِهِ فِي غُرَاتِهِ
 عَلَى حِينِ كُلِّ الْغَرْبِ صَفَا يَقَابِلُهُ
 مَشَى الْغَرْبُ طَرًّا قَضَاهُ وَقَضِيضُهُ
 وَفَارِسُهُ رَامَ التَّنَازُلِ وَرَاجِلُهُ
 مِائَاتُ أَلُوفٍ وَالْفَرَنْسِيْسِ ^(٢) وَحَدَهُ
 غَدَا أُمَّةً فِي الْأَرْضِ إِنْ صَالَ صَائِلُهُ
 وَرِيكَارد ^(٣) قَلْبَ اللَّيْثِ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ
 يُوَازِرُهُ فِي طَوْلِهِ وَيَمَاطِلُهُ
 وَمِنْ أُمَّةِ الْأَلْمَانِ جَيْشٌ عَرْمَرَمٌ
 يَسِيرُ بِهِ مِنْ أُبْعَدِ الْأَرْضِ عَاهِلُهُ ^(٤)
 هِيَ الْأُمَمُ الْكُبْرَى وَمَا تَمَّ قَيْصَرُ
 سِوَاهَا وَلَمْ تَزُحَفْ

(١) كثير من مؤرخي أوروبا المنصفين قالوا: إن صلاح الدين بعمله هذا أخرجل أوروبا أبد الدهر.

(٢) فيليب أوغست ملك فرنسا.

(٣) ريكاردوس قلب الأسد ملك الإنكليز.

(٤) الإمبراطور فريديريك بربروس عاهل ألمانيا.

فصادمهم من نجل أيوب وحده
فتى بهم جمعاً تمي
حليف وفاء لا يضام نزيله
ولكنه أمسى يضام
له ثقة بالله ليست بغيره
ومن يرج غير الله فالله خاذله
وقال وقد تعيى الجبال جموعهم
ليفعل إلهي اليوم ما هو فاعله^(١)
تجمع كرات بعكا عدوه
ومن ثل كيسان تهد صواهلته^(٢)
ويصطدم الجمعان حولين كلما
حبت نار حرب أوقدتها مشاعله
درا برجال الشام شم جيوشهم
فعادوا كعصف بددته مأكله
وسخر هاتيك المعاقيل كلها
وليست سوى آي الكتاب معاقله
وسل عنه في حطين^(٣) يوماً عصبصبا
غداة لواء الحق عزز حامله

(١) أتته الكتب من الشمال وهو يقاتل الصليبيين على عكا بأن ٢٠٠ ألف زاحفون إليه قد وصلت طلائعهم إلى كيليكية فلم يهن له عزم من شدة توكله على الله .

(٢) تل كيسان وتل العياضية إلى الشرق من عكا كان فيهما مخيم صلاح الدين .

(٣) عند طبرية وفيها انتصر صلاح الدين في الوقعة الفاصلة وأسر ٣٠ ألف إفرنجي وقيل ٥٠ ألفاً والملك الإفرنجي غوي وجميع الأمراء .

وعن مَلِكِ الإفرنج وهو أسيره
 وأرناط^(١) إذ تبكي عليه حلائله
 هنا انتصف الشرق الأصيل من الذي
 أغارَ عليه واستطالت طوائله
 فهل كَانَ مثلُ الشَّامِ حُصْنًا لأمّةٍ
 تمشي إليها الغرب تغلي مَراجِلُهُ
 ومن قَصَدَ الشَّامَ الشريفَ فإنه
 ليعرفه قَبْلَ التَّوَعُّلِ سَاحِلُهُ
 فَيَا وطني لَا تَتْرُكِ الحَزْمَ لحظةً
 بعَصْرِ أُحِيطَتْ بِالزَّحَامِ مَنَاهِلُهُ
 وَكُنْ يَقِظًا لَا تَسْتَنِمَ لمكيدةٍ
 وَلَا لِكَلَامٍ يُشْبِهُ الحقَّ بَاطِلُهُ
 وَكَيْدٍ عَلَى الأَثَرِاقِ قِيلَ مَصُوبٌ
 وَلَكِنْ لَصِيدِ الأَمْتِينَ حَبَائِلُهُ
 تَذَكَّرْ قَدِيمَ الأَمْرِ تَعْلَمَ حَدِيثَهُ
 فَكُلُّ أَخِيرٍ قَدْ نَمَتُهُ أَوَائِلُهُ
 إِذَا غَالَتْ الجَلَى أَخَاكَ فَإِنَّهُ
 لَقَدْ غَالَكَ الأَمْرُ الَّذِي هُوَ غَائِلُهُ
 فَلَيْسَتْ بِغَيْرِ الأَتْحَادِ وَسِيلُهُ
 لِمَنْ عَافَ أَنْ تَغْشَى عَلَيْهِ مَنَازِلُهُ

(١) أرناط برنس الكرك الذي كان قذف بالنبي ﷺ فنذر صلاح الدين ليقْتلنه بيده فلما وقع في أسره تولى قتله بيده .

وَلَيْسَ لَنَا غَيْرُ الْهَلَالِ مِظْلَةٌ
 يَنَالُ لَدَيْهَا الْعِزَّ مَنْ هُوَ آمِلُهُ
 وَلَوْ لَمْ يَفِدْنَا عِبْرَةً خَطْبُ غَيْرِنَا
 لِهَانَ وَلَكِنْ عِنْدَنَا مَنْ نُسَائِلُهُ
 سَيَعْلَمُ قَوْمِي أَنَّنِي لَا أَغَشُّهُمْ
 وَمَهْمَا اسْتَطَالَ اللَّيْلُ فَالْصَبْحُ وَاصِلُهُ^(١)



ولما كنت في طبرية سنة ١٣٢٠هـ ذهبت إلى قرية حطين التابعة لطبرية لأجل مشاهدة الموقع الذي دارت فيه رحى معركة حطين الشهيرة بين السلطان صلاح الدين يوسف رحمه الله وجزاه عن الإسلام خيراً وبين الصليبيين. وبعد أن شاهدت حطين ولوبيا وقرون حطين التي جلس عندها السلطان بعد الظفر ولديه ملك الصليبيين ورفاقه وسائر الجيش الإفرنجي أسرى نظمت القصيدة الآتية ونشرتها إذ ذاك في مجلة المقتطف. ثم إنه من سنتين أعادت نشرها جريدة «الفتح» بمناسبة ذكرى وقعة حطين. وعلق الأستاذ ليث كتيبة الكتاب السيد محب الدين الخطيب عليها بعض تفاسير. فنحن ننقلها هنا عن الفتح ونضم شيئاً من التفسير زيادة على ما علقه الأستاذ الخطيب.

[من المنسرح]

أَحْسَنُ مَا فِيهِ يَسْرَحُ النَّظْرُ
 وَادٍ بِحَيْثُ الْأُرْدُنُّ يَنْفَجِرُ^(٢)

(١) نعم وقد انتهى الليل وجاء الصبح وظهر أننا ما غششنا قومنا وإنما حذرناهم من أن ينخدعوا.

(٢) الأردن (ويسمى نهر الشريعة) ينبع من سفوح جبل الشيخ في الشمال =

غَارَتْ عَلَيْهِ النُّجُودُ مِنْ شَغَفٍ
 فَالْعَوْرُ مَا بَيْنَهُنَّ مُنْحَصِرٌ^(١)
 قَامَتْ عَلَى الْجَانِبَيْنِ تَخْفَرُهُ
 كَذَلِكَ الْحُسْنُ شَأْنُهُ الْخَفَرُ^(٢)
 مَبْتَدِئُ الْجَرِي فِي الشَّمَالِ لَدَى
 شَيْخٍ لَهُ الْكِبَرُ بَاتٌ وَالْكِبَرُ^(٣)
 هَاؤِ إِلَى الْمَوْتِ فِي الْجَنُوبِ لَدَى
 بَحْرِ وَلَا كَالْبَحَارِ يُحْتَضَرُ^(٤)
 وَمَنْ يَعْمَ الْبَيَاضَ لَمَّتَهُ
 فَهَلْ سِوَى الْمَوْتِ بَاتٍ يَنْتَظَرُ؟



- = ويتكون من (الحاصباني) و(بانياس) و(الدان) ويخترق بحيرة الحولة وبحيرة طبرية ووادي الغور وينضم إليه نهر (اليرموك) و(الزرقا) و(حسبان) ثم ينصب في البحر الميت. وبه تنفصل فلسطين عن شرقي الأردن. وطول الأرض التي يمر بها من بحيرة طبرية إلى البحر الميت ١٠٤ كيلومترات ومن منبعه إلى مصبه ١٧٠ كيلومتراً وطول مجراه بمنعرجاته ٤٠٠ كيلومتراً.
- (١) هو غور بيسان في جنوب طبرية بينها وبين نابلس.
- (٢) تخفّره أي تحرسه أما الخفر الثانية فهي الحياء (ش).
- (٣) إشارة إلى جبل الشيخ الذي ينبع نهر الأردن من سفوحه وسمي جبل الشيخ لأن قمته متوجة بالثلوج صيفاً وشتاءً، وهذا الجبل على ٥٠ كيلومتراً من دمشق جنوباً وارتفاعه ٢٨٣٩م عن سطح البحر.
- (٤) يشير إلى البحر الميت الذي ينصب فيه نهر الأردن ويسمى (بحيرة لوط) وقد يعجب المرء كيف ينصب الأردن في بحيرة صغيرة ولا تفيض وسرّ ذلك أنه يتخّر من ينايرها كل يوم ستة ملايين طن على ما يقال، ونهر الأردن يغذي البحيرة يومياً بمثل هذه الكمية من المياه.

يا شَرْقَ هُونَيْنِ^(١) كَمْ لَدَيْكَ جَرَى
 مَعِينُ مَاءٍ حَصْبَاؤُهُ دُرُرُ
 الشَّطْرُ تُلُّ الْقَاضِي^(٢) يَسْلُسِلُهُ
 وَالشَّطْرُ مِنْ بَانِيَّاسٍ يَنْحَدِرُ^(٣)
 وَالْحَاصِبَانِي بَاتَ إِثْرُهُمَا
 يَشْتَدُّ فِي الْجَرِيِّ لَيْسَ يَصْطَبِرُ^(٤)
 يَمْلَأُ مِنَّا الْأَرْدَنَ بِرَكَتِهِ
 وَيَزْدَهِي مَرْجٌ حَوْلَهُ الْخَضِرُ
 حَيْثُ وَشِيحُ الْيَرَاعِ مَشْتَبِكُ
 كَأَنَّمَا الْخَطُّ ثُمَّ وَالسَّمُرُ^(٥)
 حَيْثُ نَمُو النَّبَاتِ مَعْجَزَةٌ
 كَأَنَّمَا سُوقٌ قَمَحُهُ الشَّجَرُ
 وَالصَّيْدُ مَا إِنْ يَزَالُ عَنْ كَثْبِ
 لَا كِنَّ مِنْ دُونِهِ وَلَا قَتَرُ^(٦)

(١) جبل هونين هو الجبل الذي إلى الغرب من غور الحولة (ش).

(٢) منبع من منابع الشريعة.

(٣) بانياس مدينة قديمة في كعب جبل الشيخ ينبع عندها القسم الآخر من الشريعة (ش).

(٤) في هذا البيت والبيتين قبله أسماء مياه وأماكن بين جبل عامل غرباً والجولان شرقاً وجبل الشيخ شمالاً وبحيرة الحولة جنوباً وهي بقعة من أخصب بقاع الأرض وأجملها.

(٥) الخط مكان في البحرين تباع فيه الرماح الخطية، والسمر بفتح فضم شجر من العضاء في غاية القوة.

(٦) الكن الستر والقتر جمع قتره وهي ناموس الصائد.

بحيرة لم يرم^(١) بساحتها
 ضاق بها أن تقلله الصغر
 يمم أخرى ورانم^(٢) ثالثة
 لقد ترامت به نوى شطر^(٣)
 آمن جسر البنات معبره
 وربما خاض دونه الجسر^(٤)
 حتى إذا فاض من هناك غدت
 أرض البطحاء منه تزدهر
 أرض علت ماؤه مناكبها
 وبات منها في البحر ينفغر
 أقبل يرغي وما به قطم^(٤)
 وظل يعدو وما به بطر
 حتى إذا ما مياهه اختلطت
 به تولاه بغتة سكر
 من بعد تلك الحياة بات به
 ميتاً وفي البحر يغرق النهر



(١) أي لم يتوقف بها لصغرها وهي بركة الحولة .

(٢) نوى شطر بضمّتين : بعيدة .

(٣) الجسر الأولى جسر بنات يعقوب ، والجسر الثانية جمع جسور .

(٤) القطم : اشتها اللحم وهو إشارة إلى قول المتنبي عن بحيرة طبرية :
 والموج مثل الفحول مزبدة تهدر فيها وما بها قطم

بَحْرُ الْجَلِيلِ الَّذِي شَوَاطِئُهُ
 فِي كُلِّ شَبْرِ مِنْ رَحْبِهَا أَثَرٌ^(١)
 غَذَا دِمَاءَ الْمَسِيحِ مَوْرَدُهُ
 وَرَاقَهُ مِنْهُ رِيقُهُ النَّضِيرُ
 وَبَيْنَ أَمْوَاجِهِ وَأَرْبُوعِهِ
 كَانَتْ تَجَلَّى آيَاتِهِ الْكِبَرُ
 كَمْ فِيهِ لِلْكَاتِبِينَ مِنْ سِيرٍ
 وَكَمْ نَبِيِّينَ فِيهِ تُدَكَّرُ
 عِيسَى حَوَارِيَّهِ وَصَفْوَتُهُ
 وَالنَّاسُ مِنْ حَوْلِ وَعْظِهِ زُمَرُ
 وَالصَّائِدُونَ الْأَلَى لَهُ اتَّبَعُوا
 هُدًى وَذَاكَ الشَّرَاعُ مَنْتَشَرُ
 وَكَفَرَ نَاحُومٌ مَعَ عَجَائِبِهَا
 وَمَنْ بِهَا آمَنُوا وَمَنْ كَفَرُوا
 وَالْمَجْدُلُ الْقَرْيَةُ الَّتِي نَشَأَتْ
 مَرْيَمُ مِنْهَا وَالطَّيِّبُ مَنْتَشَرُ
 وَالزَّهْدُ فِيهِ الْأَفْرَاحُ قَدْ دُمِجَتْ^(٢)
 وَالْفَقْرُ مَعَهُ الْبَيَانُ وَالْفَقْرُ

(١) بحر الجليل هو بحيرة طبرية والأرض الممتدة منها إلى حيفا تسمى أرض الجليل تتوسطها الناصرة التي ولد سيدنا عيسى فيها ونسب إليها النصارى .

(٢) دمج في الشيء دخل فيه (ش) .

والخبزُ تقري الألف كسرتَه
 والمشى فوق المياه مشتهرُ
 والقولُ هذي الفتاةُ نائمةُ
 والبكرُ عزريل نحوها بكرُ
 وكم نبت بالسّفين عاصفةُ
 وظنّ أنّ الرّكاب قد غَبَروا
 فسكّن البحرُ وهو مضطربُ
 من بعد ما استصرّخوا وما جأروا
 سَجَا^(١) بإيماءٍ له ونَجَا
 من حملته الألواح والدرُ
 في ضِفتي هذه البُحيرة لو
 تبخر الفكرُ حارث الفكرُ
 كم خبأ الدهرُ في جوانبها
 وكم رمى فوق مَوجِها القَدْرُ
 ما الأبحرُ السَّبْعُ مِنْ نتائِجِها
 ما الرُّوم ما الهندُ ثم ما الخزرُ
 وقومُ موسى لهم بساحتِها
 مَرَكْعُ صِدْقٍ وأذْمَعُ غَزْرُ
 في طبريا مواقفُ حُمِدَتْ
 وأرضُها مقدّسٌ ومغتفرُ

(١) سجا سكن ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَلَيْلَ إِذَا سَجَى﴾ [سورة الضحى: ٢] وقد سردنا هنا معجزات سيدنا عيسى عليه السلام حسبما هي في الإنجيل (ش).

بها رجال التّلمود قد سَكَنُوا
 وجُلَّ آرائهم بها زبروا
 وكم نبيّ في ذي البلاد قَفَا
 مُوسى وكم مرَّ ههنا الخضرُ
 يكفيك ما في الأردنّ من عبرٍ
 نَهَرٌ عليه آبائهم عَبَرُوا
 وإنّ يحيى^(١) على شواطئه
 بين يديه الأنام تطهرُ
 ما القنْجُ ما النّيلُ في جوانبه
 ما دجلة ما الفرات يُعتبرُ
 والغور بين البحرين منبسطة
 تسرُحُ فيه الجاذرُ العُفْرُ
 لو طبقته أيدي الورى عملاً
 على فلسطين فاضت الميرُ
 قد كان والماء غابراً شرعاً
 والآن ما إن يكاد ينحسرُ
 بحيرة كلّ شأنها عَجَبُ
 وهي من الحُسنِ كلّها غرُ
 لَلَّه دُرّ الكنديّ واصفُها
 كأنها في نهارها قمرُ^(٢)

(١) يحيى هو الذي يسميه النصارى يوحنا المعمدان كان يعمّد بماء الأردن .

(٢) قال المتنبي في وصف هذه البحيرة :

كَانَتْ تَحْفُ الْجِنَّانَ دَوْرَتَهَا
 (١) وَالْآنَ تَحْتَفُّ دَوْرَهَا السِّدْرُ
 مِرَّةً نَوْرٍ مِنَ السُّفُوحِ لَهَا
 (٢) إِطَارُ نَوْرٍ لَمْ تَحْكِهِ الْأَطْرُ
 كَأَنهَا فِي صَفَائِهَا فَلَكُ
 وَفُلُكُهَا فِيهِ أَنْجَمٌ زُهْرُ
 أَحْمَدُ بِقَوْمٍ رَأَوْا مُحَاسِنَهَا
 يَوْمًا فَمَا أَنْشَدُوا وَلَا شَعَرُوا
 عِنْدَ الشَّمَالِ الْأَرْدَنِّ وَارِدُهَا
 وَفِي جَنُوبِ يَهَّالِهِ صَدْرُ
 شَرِيعَةٍ مِنْ مِيَاهِهَا ظَهَرَتْ
 (٣) وَقَدْ تَلَّتْهَا شَرَائِعُ أُخْرُ
 عَلَّمَ عَيْسَى هُنَا شَرِيعَتَهُ
 وَقَوْمُ مُوسَى تَوْرَاتِهِمْ فَسَّرُوا

= كَأَنهَا فِي نَهَارِهَا قَمَرٌ حَفَّتْ بِهِ مِنْ جَنَانِهَا ظَلَمَ
 (١) لَيْسَ حَوْلَ هَذِهِ الْبَحِيرَةِ الْيَوْمَ جِنَانٌ وَإِنَّمَا حَوْلُهَا كَثِيرٌ مِنْ شَجَرِ السِّدْرِ
 وَالسِّدْرُ بِكَسْرِ فَفَتْحَ جَمْعِ سِدْرَةٍ (ش).
 (٢) الْمَتْنِي يَقُولُ:

فَهِيَ كَمَاوِيَّةٌ مَطْوُوقَةٌ جَرَدَ عَنْهَا غَشَاؤُهَا الْأَدَمَ
 وَقَوْلِي مِرَّةً نَوْرٍ بَضْمِ النَّوْنِ وَإِطَارُ نَوْرٍ بَفَتْحِهَا أَيْ أَنَّ الْبَحِيرَةَ مِرَّةً نَوْرٍ بِصَفَاءِ
 مَائِهَا وَقَدْ أَحْيَيْتُ بِإِطَارٍ مِنَ الزَّهْرِ (ش).
 (٣) يَنْحَدِرُ إِلَى الشَّرِيعَةِ أَيْ الْأَرْدَنِّ نَهْرُ الْيَرْمُوكِ وَيُقَالُ لَهُ شَرِيعَةُ حُورَانَ وَأَنْهَرُ
 آخِرُ (ش).

وفي حروب الصليب قد رُفِعَتْ
أعلامُ دينِ الذي نمت مضرُّ

يا يومَ حطّينَ كم حططت مِن الإ
فرنجِ شأنًا ما كان ينكسرُ
هَبُّوا مِنَ الغَرِبِ كالجرادِ فلم
يكنْ لشرقِ بردهم قُدْرُ
واستفتَحُوا القدسَ والبلادَ ولم
يعصَ عليهم بدوٌ ولا حَضَرُ
وهَدَّدُوا المسجدَ الحرامَ وكم
دَعَا مَلَبَّ فيه ومعتمرُ
وكَاذِ يبكي الميزابُ فيه دماً
ورقٌ مما أَصَابَنَا الحجرُ
ونابتِ المسلمينَ داهيةٌ
دهماءٌ قد عمَّهم بها الذعرُ
فكلَّ كَفٍّ أَصَابَهَا شَلْلُ
وكلَّ عَزْمٍ أَصَابَهُ خَوْرُ
وَكُلَّ جَمْعٍ نَاوَاهُمْ انْقَلَبَتْ
فُرْسَانُهُ وَهِيَ لِلظَّبَى جَزْرُ^(١)
وَحُوصِرَتْ جَلَّقَ وَلَوْ أَخَذَتْ
لَمْ تَبَقْ مُدُنٌ لَنَا وَلَا مَدَرُ^(٢)

(١) جزر السباع اللحم الذي تأكله قال: جزر السباع وكل نسر قشعم.

(٢) جلق: دمشق وحاصرها الصليبيون وعجزوا عنها.

وقيل دارُ الإسلامِ قد حُصِرَتْ
 وحفّ باقي بلاده الخطرُ
 ما زال ملءُ القلوبِ رُغْبُهُمْ
 ولم يَكُنْ نافِعاً لها الحذرُ
 حتى تولّى زنكي^(١) فنازلَهُم
 وكان من شيركو^(٢) له وزرُ
 طليعةُ النَّصرِ في ولايةِ نو
 ر الدين^(٣) ملك بالعدلِ يأتزُرُ
 مجاهدٌ ماهدٌ بخطّته
 في الفتح والعدلِ سارتِ السيرُ
 تُقِرّ عينَ النبيّ سيرتُهُ
 ويرتضي مثل هديه عَمَرُ
 ثم ابنُ أيوب^(٤) جاءه خلفاً
 وليس إلا سُرُوجُهُ سُرُرُ
 مهّد دار المعز^(٥) فانقلبَتْ
 بيوسفَ مِصرُ وهي تفتخرُ

(١) هو عماد الدين زنكي والد الملك نور الدين .

(٢) أبو الحارث شيركوه بن شادي بن مروان أسد الدين عم السلطان صلاح الدين .

(٣) أي الذي من ملوك الإسلام بدأ بقهر الصليبيين هو نور الدين زنكي .

(٤) هو السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي .

(٥) أي القاهرة المعزية .

لما استقامت له الأمور ولم
 يبقَ رقيبٌ وانجابت الغمرُ
 أقبل في جحفلٍ له لجِبِ
 يطلب ثأر الدين الذي وتروا
 بفتية سمرهم إذا عَشَقُوا
 سمر صعادٍ وبيضهم بترُ
 غير طعانِ النحورِ ما عَرَفُوا
 وغير جردِ الخيولِ ما زَجَرُوا^(١)
 أناخ في شاطئ البحيرة إذ
 إليه عن كلِّ ناجذٍ كَشَرُوا
 فقام من أرضه لصدْمِهِم
 في السَّهلِ من لوبياء واشتَجَرُوا^(٢)



يَوْمَ تَلَاقَى الْجَمْعَانِ وَالتَّظَّتِ الدَّ
 هَيْجَاءُ حَتَّى كَأَنَّهَا سَقَرُ
 يَوْمَ تَلَاقَى الْجَمْعَانِ وَانْتَصَبَ الدَّ
 مِيزَانُ رَهْنِ انْحِرَافِهِ الظَّفَرُ
 الشَّرْقُ وَالْعَرْبُ بَعْدَ طَوْلٍ وَغَى
 تَوَاقَفَا وَالْبِرَازُ مَخْتَصَرُ

(١) إشارة إلى قول المعري:

يا ابن الألي غير زجر الخيل ما عرفوا إذ تعرف الناس زجر الشاء والعكر (ش)

(٢) لوبياء قرية غربي طبرية وقبلية حطين (ش).

ثَلَاثَةٌ وَالنِّزَالُ بَيْنَهُمَا
 نَزَالَ مِنْ بَعْدِ يَوْمِهِ الْعُصْرُ
 فَأَمْطَرَتْهُمْ قَسِيٌّ جَيْشٍ صَلا
 حَ الدِّينِ نَبَلًا مِنْ دُونِهِ الْمَطَرُ^(١)
 وَدَّوَا وَقَدْ أَبْصَرُوهُ عَارِضَهُمْ
 لَوْ سَتَرْتَهُمْ مِنْ دُونِهِ حُفَرُ
 كَأَنَّمَا قَوْمُنَا وَقَدْ ثَبَّتُوا
 شَمَّ حُصُونٍ لَهَا الْقَنَا جَدْرُ
 كَأَنَّمَا قَوْمُنَا وَقَدْ وَثَبُوا
 زَعَاذَ لِلْعُصُوفِ تَهْتَصِرُ
 ذَاقَ الْعِدَى مِنْ سُلَافٍ طَعْنِهِمْ
 كَأَسَاءَ بَغِيرِ الْعُنُقُودِ تَخْتَمِرُ
 لَمَّا بَدَا الْأَمْرُ غَيْرَ مَا حَسَبُوا
 وَالنَّاسُ مِنْ فَوْقِ صَبْرِهِمْ صَبَرُوا
 وَلَوْ أَظْبَى يَوْسُفَ ظُهُورِهِمْ
 تَأْخُذُ مِنْهَا فَوْقَ الَّذِي تَذُرُ
 ضَيَاغِمُ أَجْفَلُوا وَقَدْ نَظَرُوا
 حُمَرَ الْمَنَايَا كَأَنَّهُمْ حُمُرُ^(٢)
 وَأَذْبَرَ الْقُمْصُ^(٣) مَعَ قَوَارِسِهِ
 مَا غَرَّهُ مِثْلَ غَيْرِهِ الْغُرُرُ

(١) النشأب سد الأفق ذلك النهار (ش).

(٢) الحمر الأولى جمع أحمر، والحمر الثانية جمع حمار الوحش.

(٣) القمص: كونت طرابلس، فرّ يومئذٍ بسبعين فارساً قبل نهاية القتال (ش).

لَا عَجَبَ أَنْ نَجَا وَحِيطَ بِهِ
 عَادَةُ ذِي الْأَرْضِ نَشْرَ مَنْ قُبِرُوا
 مَا لَوْ الْحَطِينِ طَالِبِينَ نَجَا
 فَلَمْ يَفِدْهُمْ ضَلْعٌ وَلَا دَبْرٌ^(١)
 وَأَسْفَرَ السَّبْتُ عَنْ هَزِيمَتِهِمْ
 وَأَصْبَحَ الْمَلِكُ^(٢) ضِمْنَ مَنْ أُسْرُوا
 وَفَوْقَ ذَاكَ الصَّعِيدِ نَائِمُهُمْ
 كَأَنَّهُ النَّخْلُ وَهُوَ مَنْقَعْرُ
 وَالْهَيْكَلِيُّونَ^(٣) مِنْ قَسَاوِرِهِمْ
 لَمْ يَبْقَ إِلَّا هَيَاكِلٌ دَثْرُ
 لَمْ يَجْبُنُوا سَاعَةً وَإِنْ خُذِلُوا
 وَإِنَّمَا اللَّيْثُ دُونَهُ النَّمْرُ
 فِي حَضْرَةٍ مِنْ شَعِيبٍ قَدْ شَعِبُوا
 كَذَا لَهُمْ عَنْ مَزَارِهِ زَوْرُ^(٤)
 فَأَزْلَفُوا نَحْوَ يَوْسُفَ خَضَعَا
 رِقَابَهُمْ، نَاكِسًا لَهُمْ بَصْرُ
 تَرَهَّقُهُمْ ذَلَّةٌ وَتَحَسُّبُهُمْ
 قَوْمًا سُكَّارَى كَأَنَّهُمْ حُشِرُوا

(١) أي لم يفدوهم لا ميل ولا فرار.

(٢) الملك غوي ملك القدس.

(٣) هم الذين كان يقال لهم «التامبليه» وكان لهم نظام خاص وقاموا بدور عظيم

في الحروب الصليبية (ش).

(٤) قبر شعيب في قرية اسمها الخيارة بجوار حطين.

يوسفُ عصرٍ صالحٍ مملكةٍ
بكلِّ أمرٍ للبرِّ مؤتمرُ
أصبحَ مستحيّاً دماءهم
حياؤه والخلائقُ الزهرُ
أبى عليه الإباء مصرعهم
وعفَّ إذ عفَّ وهو مقتدرُ
عفواً به عمّهم وأخرج من
بنكته السَّهل ضاق والوعرُ
وفى بأرناطٍ نذرُهُ بيدٍ
إذ طالما لم تحكْ به النذرُ^(١)
وقالَ إذ تلَّه بصارمه:
هأنذا للنبي أنصُرُ^(٢)
أزوجَ بين التهلِيل مهجته
مخضوبةً صارماً هو الذكرُ
فأصبح الملكُ وهو مرتجفُ
ما شكَّ أن بالحسام يبتدرُ

(١) أرناط كان فرعون الصليبيين وكان ملك الكرك والشوبك في شرق الأردن وإنما قتله صلاح الدين بيده لأنه أطال لسانه بحق النبي ﷺ وكان كثير الغدر عظيم الجرائم.

(٢) كان صلاح الدين استتاب البرنس أرناط مراراً وكل مرة ينكث إلى أن أسر الحجاج وحبسهم في قلعة الكرك وقال لهم: ادعوا محمداً يخلصكم. فاستحلف المسلمون صلاح الدين بأن لا يعفو عنه إذا وقع، فلما وقع في حطين قال له صلاح الدين: أنا أقتص منك لمحمد، وقتله بيده (ش).

أَبْصَرَ جِسْمَ الْبَرْنَسِ مَنْعَفَرًا^(١)
 فَقَالَ إِثْرَ الْبَرْنَسِ أَقْتَفَرُ
 فَأَفْرَحَ الرُّوعُ مِنْهُ سَاعَةً إِذِ
 بُشِّرَ أَنْ لَنْ يَصِيبَ ضَرَرُ^(٢)
 عُوقِبَ بِالْأَسْرِ مَوْقِنَ بَرْدِي
 وَجَلَّ مَلَكًا مَعَ الْعَمَى الْعَوْرُ

قَاصِمَةُ الظَّهْرِ لِلْفَرَنْجِ غَدَتْ
 وَقَعَةُ قَرْنِي حَاطِينَ مُذْ ظَهَرُوا
 كَأَنَّ عَلِيَا حَاطِينَ مَبْتَدَأَ
 وَكَلَّ فَتَحَ مِنْ بَعْدِهَا خَبِرُ
 حَظَّ ابْنِ أَيُّوبَ أَنْ يَفُوزَ بِهَا
 وَاللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ لَهُ أَثَرُ
 وَحَظَّ جَيْشِ لَبِّي النَّدَاءِ غَدَتْ
 فِي اللُّوحِ مَكْتُوبَةً لَهُ الْأَجْرُ
 قَوْمٌ أَرَا حَوَا الْأَقْوَامِ إِذْ تَعَبُوا
 وَقَدْ أُنَامُوا الْأَنَامِ إِذْ سَهَرُوا

(١) انعفر في التراب: تمرغ.

(٢) عندما رأى الملك غوي مصرع أرناط اعتقد أن الدور سيصل إليه فارتجف فسكن صلاح الدين روعه وأخبره بأنه ما قتل أرناط إلا بعد نذر نذره لكثرة نكته وغدره (ش).

بهم جدود الإسلام قد صَعَدَتْ
 مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ أَهْلُهُ عَثَرُوا
 ولا بن شاذي ذكرْ شذاه سرى
 فِي كُلِّ قُطْرٍ كَأَنَّهُ الْقَطْرُ^(١)
 قَامَ بِوَجْهِ الْفَرَنْجِ مِنْفَرِداً
 وَالْقَوْمِ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ جَمَرُوا^(٢)
 حَتَّى اسْتَرَدَّ الْبِلَادَ أَكْثَرَهَا
 وَأَصْبَحَ الْقُدْسُ دَانً وَالصَّخْرُ
 كَانَتْ مِثْلَ الْحِصُونِ تَعْصُمُهُمْ
 مَنِيعَةً إِذْ ثَغُورُنَا ثَغُرُ
 مِنْ كُلِّ حِصْنٍ أَمَاطَ عَرَّتَهُمْ
 بِالسَّيْفِ لَمْ يَمْشِ نَحْوَهُمْ خَمْرُ^(٣)
 وَاسْتَعْصَمْتُ صُورٌ فِي مَعَاقِلِهَا
 وَكُلَّ طَرْفٍ بِهِ لَهَا صَوْرُ
 مِنْ فَرَطٍ مَا عَمَّهُمْ بِرَأْفَتِهِ
 وَقَلْبَتَهُ فَلَّهُمْ وَقَدْ كَثُرُوا^(٤)

(١) العود يتبخر به .

(٢) لم يكن في وجه الصليبيين إلا صلاح الدين برجال الشام والجزيرة الفراتية ومصر والحال أن الفرنسيين والإنكليز والألمان والطلليان وغيرهم كانوا لبدأ على المسلمين في تلك الحروب (ش).

(٣) مشى إليه الخمر محرّكة أي متوارياً (ش).

(٤) عفا صلاح الدين عن عشرات الألوف من أسرى الصليبيين من حبه بالعفو فتجمعوا في صور وكثرت جموعهم فأصبح لا يقدر على أخذها مع أنه كان =

فامتنَعُوا كلَّهم بعقوتها
 فهي لهم ملجأ ومغتصِرُ
 إن عيبَ بالحلم والوفاء بطلُ
 فإنه خيرُ ما هَفَا البشرُ
 ما شانَ طولُ الأناةِ في رَجُلٍ
 إن لم يكنْ شانَ باعِ القِصرِ
 قد كانَ في رقةٍ وفي جلدٍ
 كالسِّيفِ في ماءٍ حدَّ الشرِّ
 جمرةٌ بأَسٍ ما شابها وهلْ
 غمرةٌ حُلِمَ ما شابها كدُرُ
 ما كان يدري مِنَ الوغَى ضجراً
 والكلَّ في الجانبين قد ضَجِرُوا
 حتى يميّطَ العُوارُ أجمَعُهُ
 ما هانَ مَنْ كانَ همُّه العسرُ
 أمَّنَ دارَ الإسلامِ بعدَ عِنا
 كذلك الشَّهد دونهُ الإبرُ
 لم يَلْهِهِ عن تُغُورِ مملكةٍ
 تُغُرُّ ولا نَاطِرٍ بِهِ حورُ
 وكانَ مِنَ حُرْمَةِ العدوِّ لَهُ
 أنْ ذَكَرَهُ في بلادِهِمْ عَطِرُ^(١)

= استرد أكثر البلاد ثم عادوا فزحفوا منها إلى عكا وأخذوها بعد حرب
 استمرت سنتين وهي الصليبية الثالثة، وفلته مثل أفلته (ش).
 (١) لا يذكر صلاح الدين في جميع أوروبا إلا مقروناً ذكره بالإجلال.

تَغْدُو عِظَامُ الْمُلُوكِ ^(١) واقفةً
 ببابه وهو أعظم نخرُ
 وينحني حاسراً بثُربتهِ
 رأس أعلى التيجان مُعْتَجِرُ ^(٢)
 شهادةً منهم لخصومهم
 والحق كالشمس ليس يستترُ
 والفضل يحيا من بعد صاحبهِ
 والذكرُ يبقى ولو عدت غيرُ
 ونحن من بعد كل ذلك وذا
 لم يبق إلا الحديث والسمرُ!

(١) إشارة إلى زيارة القيصر ويلهم الثاني عاهل ألمانيا لمرقدته في دمشق ووضعه تاجاً عليه، ولما دخل الامبراطور إلى مقام صلاح الدين دخل حاسراً عن رأسه وانحنى أمام القبر حرمة وتعظيماً (ش).
 (٢) أصل الاعتجار للعمامة ولكننا أجرينا التاج هنا مجراها (ش).

ذكرى الأندلس

نظمتها لما شاهدت مسجد قرطبة في سياحتي إلى الأندلس سنة
١٩٣٠ م. [من الطويل]

لك الله إن شئت الصُّبوح فبكرٍ
بكأس دُهاقٍ من حُميا التذكرِ
وَعَنَّ على ذِكْرى الليالي التي خَلَتْ
قَصَائِدُ إن تُنْشَدُ على الميْتِ يُنْشَرِ
فَقَدْ تَعَجَّبُ الذِّكْرَى ولو لِفَجِيعَةٍ
ويشفي أوار الصِّدر فرط التحسّرِ
ولولا المراثي والمآقي وراءها
لَأَفْنَى الْوَرَى حَرَّ الْأَسَى المتسعرِ
تَقَضَّتْ لِبَنَاتِ الرِّجَالِ مِنَ الْجَوَى
بِتَذْكَارِ ماضٍ أو إثارة مضمِرِ
لَعَمْرُكَ لَا يُرْجَى لِنَشْأَةٍ مَقْبِلِ
ومستقبلٍ من لم يفكر بمديرِ
وما هذه الدنيا سوى متقدِّمٍ
يَكْرُزُ تَجْدِيداً على متأخِرِ
أَدْرِهَا تَرْدِ الرُّشْدَ فِي عَقْلِ ذَاهِبِ
وَتُذْهِبُ عَقْلَ الرَّاشِدِ المتبصرِ

وتحيي لنا عهداً يصبوُّ عهاده
منازل قلبٍ مَنْ هوى الذكر مقفرِ



وكائنةٍ لم يعرف الدهرُ أختها
ولا حَدَّثت عن مثلها كُتُبُ مخبرِ
يكادُ الذي يقرأ غريبُ حديثها
يظنّ خيلاً أو أحاديث مفتري
يقولونَ كانت أمةً عربيةً
بأندلسٍ سادت بها جمّ أعْصُرِ
وقد عمرت أقطارَ أندلسٍ بهم
فكم بلدٍ فخمٍ ومُضِرٍ ممصّرِ
وكم أربُعٍ خُضِرٍ وحرثٍ مطبّقِ
وفاكهةٍ رغدٍ وزهرٍ منوّرِ
وكم قائدٍ قرمٍ وجُنْدٍ مدرّبِ
وكم سائسٍ فحلٍ وأمرٍ مدبّرِ
وكم بَطْلٍ إنْ ثارَ نَقْعُ رأيته
يبيعُ بأسواقِ المنايا ويشتري
وما شئتَ مِنْ عِلْمٍ ورأيٍ وحكمةٍ
ودرسٍ وتحقيقٍ وقولٍ محرّرِ
إلى شممٍ جمٍّ ومجدٍ مؤثّلِ
وفي عزّةٍ قعساً ووَفَرٍ موفّرِ

نَعَمْ كَانَ فِيهَا مَنْ نِزَارٍ وَيَعْرُبٍ
 جموعٌ تخيل الأرض في يومٍ محشرٍ
 فراحتْ كأن لم تَغْنِ بِالْأَمْسِ وانقضى
 لهم كل رِكْزٍ غير ذِكْرِ مَعْطَرٍ
 كأن لم يَكُنْ بَيْنَ الْحُجُونِ إِلَى الصَّفَا
 أنيسٌ ولم يَسْمُرْ هُنَاكَ وَيَسْهَرِ
 كأن لم تَكُنْ فِي أَرْضِ أَنْدَلَسَ لَنَا
 جَحَافِلُ إِنْ تَحْمِلْ عَلَى الدَّهْرِ يَذْعِرِ
 فماذا الذي أَخْنَى عَلَيْهَا وَمَا الَّذِي
 رَمَاهَا بِهَذَا الْخُسْفِ بَعْدَ التَّصْدِرِ
 إِذَا أَعْمَلَ الْمَرْءُ الْبَصِيرَةَ لَمْ يَجِدْ
 لَهَا عِلَّةَ غَيْرِ الْخِلَافِ الْمَتَبَّرِ ^(١)
 خِلَافَانِ هَذَا بَيْنَ قَيْسٍ وَيَعْرُبٍ ^(٢)
 مَقِيمٌ وَهَذَا بَيْنَ عُرْبٍ وَبَرْبَرٍ ^(٣)
 وَلَا شَرَّ يَحْكِي شَرَّ حَرْبٍ إِذَا التَّقَتْ
 صِنَادِيدُ قَيْسٍ مَعَ غَطَارِيفِ حَمِيرٍ



(١) تبرأهك ودمر ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِيُتَبَرَّأْ مَا عَلَوْا تَتَّبِعُوا﴾ [سورة

الإسراء: الآية: ٧].

(٢) الحروب بين المضربة واليمينية لم تكن تنقطع، وكان العدو يستفيد منها كلها.

(٣) أول فتنة بين العرب والبربر كانت السبب في ذهاب شمالي الأندلس، ثم جاءت فتنة قرطبة بين الفريقين فكانت هي مبدأ الانهيار.

لَعَمْرُكَ لَوْلَا الْخُلْفُ لَمْ يَكْ مَشْرِقُ
 وَلَا مَغْرِبُ يَعْصَى عَلَيْهِمْ وَيَجْتَرِي
 لَقَدْ عَصَفَتْ فِي شَقَةِ الْعَرَبِ رِيحُهُمْ
 فَسَادَتْ وَلَكِنْ لَمْ تَكُنْ رِيحَ صَرْصَرٍ
 فَقَدْ أَثْلَوْا فِي أَرْضِهَا مَدْنِيَّةً
 تَرَى الْخَصْمَ فِي عَلَيَّائِهَا لَيْسَ يَمْتَرِي
 وَسَاوَوْا جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِعَدْلِهِمْ
 وَمَنْ يَتَمَسَّكَ بِالسُّوِيَّةِ يَعْمُرُ
 وَلَا عَارِضُوا فِي دِينِهِ غَيْرَ مُسْلِمٍ^(١)
 وَلَا عَامِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ بِمَنْكَرٍ
 وَلَا نَصَبُوا دِيوَانَ تَفْتِيشِهِمْ عَلَى
 عَقَائِدِ أَقْوَامٍ بِحُوسٍ وَيَقْتَرِي^(٢)
 وَلَا أَحْرَقُوا بِالنَّارِ مَنْ قِيلَ إِنَّهُ
 عَلَى صَلَاةٍ مَعَ دِينِهِ بِالتَّسْتَرِ
 بِذَلِكَ هَاتِيكَ الْمَمَالِكُ أَضْبَحَتْ
 مِثَالاً قَوِيماً لِلْعُلَى وَالتَّحْضُرِ

(١) يعترف الإفرنج أن مسلمي الأندلس أيام سلطانهم تركوا للنصارى واليهود حريتهم الدينية على الوجه الأكمل .

(٢) ديوان التفتيش الذي نصبته الكنيسة الكاثوليكية على المسلمين الذين أكرهوا على التنصر وكانوا يحرقون من اشتبه فيه أنه كان باقياً في الباطن على إسلامه .

وَقَدْ صَارَ نَهْرُ الرُّونِ^(١) ثَغْرَ بِلَادِهِمْ
وَكَمْ صَبَّغُوهُ فِي الْجِهَادِ بِأَحْمَرِ
وَشَكُّوا لِوَاهُمْ فِي دُرَى قَرْقَشَنَةِ^(٢)
سَلُّوا عَلَى نَرْبُونَةِ^(٣) كُلِّ أَبْتَرِ
وَدَانَتْ لَهُمْ صَيْدُ الْجَلَالِقَةِ^(٤) الْأَلَى
بَلَى مِنْهُمْ الرُّومَانُ كُلَّ غَضَنْفَرِ
وَلَمْ يَقِفِ الْبَشْكَنْسُ^(٥) فِي وَجْهِ زَحْفِهِمْ
وَلَا أَوْطَأُوا الْجِرَانَ ثَغْرَةَ مَعُورِ
وَإِنْ يَكُ لَأَقَى الْغَافِقِيُّ^(٦) حِمَامَهُ
وَمَحَّصَ فِي يَوْمِ الْبِلَاطِ الْمَقْدَرِ
فَقَدْ لَبِثْتُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ جِيوشُهُمْ
تَعْرَضُ دَهْرًا لِلْفَرَنْجِ وَتَنْبَرِي
يَقُولُ الْأَلَى قَدْ شَاهَدُوا غَزَوَاتِهِمْ
هُمُ الْعَرَبُ فَوْقَ الْخَيْلِ أَمْ جَنَّ عَبْقَرِ
وَصَقَّرُ قَرِيشٍ^(٧) حِينَ جَاءَ مَشْرَدًا
فَانْشَبَ فِيهِمْ أَيَّ ظَفَرٍ مَظْفَرِ

(١) النهر الذي يخرج من سويسرا ويشق فرنسا وينصب عند مرسييلية .

(٢) مدينة محصنة في جنوبي فرنسا استولى عليها العرب ٤٨ سنة .

(٣) العرب يسمون نربونة أربونة وكانت مركز قوتهم في جنوبي فرنسا .

(٤) أهل جليقية في شمال إسبانيا .

(٥) الجيل الذين منهم في إسبانيا وفرنسا ، ويقال لهم الباسك .

(٦) عبد الرحمن الغافقي قائد العرب في وقعة بواتيه الشهيرة والعرب يسمونها بلاط الشهداء .

(٧) عبد الرحمن الداخل الأموي .

وشَادَ بهَاتِيكَ القَوَاصِي إِمَارَةً
 لَهَا أُجْفَلُ المَنصُورُ والدَ جَعْفَرِ
 وَخَلَّفَ أُمْلَاكَ سَمَّوَا وَخَلَائِقًا
 أُسُودَ عَرِينٍ مِنْهُمْ كُلِّ مَخْدَرِ
 كَفَى بِالْإِمَامِ النَاصِرِ ^(١) الْفَدَّ عَاهِلًا
 كَسَا أُمَّةَ الْإِسْلَامِ حَلَّةَ مَفْخَرِ
 تَقَبَّلُ أُمْلَاكَ الْفَرَنْجَةَ كَفَّهَ
 وَيَقْصِدُ عَالِي بَابِهِ وَفَدُّ قَيْصَرِ ^(٢)
 عُدَاةَ تَجَلَّى لِلْخِلَافَةِ رَوْنَقُ
 بِهِ ظَهَرَ الْإِسْلَامُ أَرُوعَ مَظْهَرِ
 وَأُضْحَتْ بِهَا الزَّهْرَا تَمِيدُ جُمُوعَهَا
 يَا لَكَ مِنْ يَوْمٍ أَغْرَ مَشْهَرِ
 تَلْعَثُ فِيهِ كُلُّ رَبٍّ فَصَاحَةً
 فَعَبُوا سِوَى قَاضِي الْجَمَاعَةِ ^(٣) مَنْذَرِ
 وَلَا تَهْمَلِ الْمُسْتَنْصِرَ ^(٤) الْحَكَمَ الَّذِي
 تَلَاهَ وَمَنْ يَسْتَنْصِرِ اللَّهَ يَنْصُرِ
 عَدَتْ قِبَةَ الْإِسْلَامِ قُرْطُبَةُ الْعُلَى
 وَسَارَقَتْ الزَّوْرَاءَ لِحِظَةً أَزُورِ
 وَبَارَى بَنِي الْعَبَّاسِ فِيهَا أُمِّيَّةٌ
 وَجَرَوْا عَلَى بَغْدَادَ ذَيْلَ التَّبْخَرِ

(١) عبد الرحمن الناصر .

(٢) يوم جاءه وفد صاحب القسطنطينية .

(٣) منذر بن سعيد البلوطي .

(٤) الخليفة المستنصر بن الناصر .

وَكَانَ بِهَا الْعِمْرَانُ يَزْخَرُ مِثْلَمَا
 تَلَاظِمُ أَمْوَاجُ الْخَضَمِّ الْمَهْدِرِ
 وَلَمَّا رَأَيْتُ الْمَسْجِدَ الْجَامِعَ الَّذِي
 بَقَرِطَبَةٍ مِنْ فَوْقِ فَوْقِ التَّصَوُّرِ
 عَضَضْتُ عَلَى كَفِي بِكُلِّ نَوَاجِذِي
 وَقُلْتُ لِعَيْنِي الْيَوْمَ دُورُكَ فَاهْمُرِي
 هُوَ الْجَامِعُ الطَّامِي الْعَبَابِ بِوَقْتِهِ
 يَحَاكِي بِهِ عَمَّارَهُ لَجَّ أَبْحَرِ
 ظَلَلْتُ بِهِ بَيْنَ الْأَسَاطِينِ سَائِحاً
 بِفَكْرِي حَتَّى غَابَ عَنِّي مُحْضَرِي
 تَخِيلْتُهُ وَالذِّكْرُ يَتْلَى خِلَالَهُ
 نَظِيرَ دَوِيِّ النِّحْلِ مِنْ كُلِّ مَصْدَرِ
 تَأْمَلْ خَلِيلِي كَمْ هُنَا مِنْ مَهْلَلِ
 إِلَى رَبِّهِ صَلَّى وَكَمْ مِنْ مَكْبَرِ
 وَكَمْ أَزْهَرَتْ فِيهِ أَلُوفُ مَصَابِحِ
 وَكَمْ أَوْقَدَتْ أَرْطَالُ عَوْدٍ وَعَنْبَرِ
 وَكَمْ قَارِئٍ بِالسَّبْعِ فِي وَسْطِ حَلْقَةٍ
 وَكَمْ خَاطِبٍ بِالسَّجْعِ مِنْ فَوْقِ مَنْبَرِ
 وَكَمْ عَالِمٍ يُلْقِي عَلَى الْجَمْعِ دَرْسَهُ
 وَكَمْ وَاعِظٍ يَمْرِي ^(١) مَدَامِعَ مُحَجَّرِ

(١) مَرَى الضَّرْعَ اسْتَدْرَه .

وَكَمْ مَلِكٍ ضَخِمَ وَكَمْ مِنْ خَلِيفَةٍ
هنا كان يجثو عن جبينٍ معفرٍ
تسدّ فجاجَ المغربيين جُيوشُه
ويبدو هنا في ثوبٍ أشعث أغبرٍ^(١)
خليلي تأملْ كالعرائسِ تنجلي
أساطينُ قد تُحصَى بِألفٍ وأكثرِ
أساطينُ مِنْ صُمِّ الْجَمَادِ مَوَاتِلُ
يذوبُ لها قَلْبُ الحنيفِ المفكّرِ
تَرَاهَا صفوفاً قائماتٍ كأنّها
حدائقُ نُصَّتْ مِنْ جَمَادٍ مشجيرِ
مِنَ الْعُمَدِ الْأَسْنَى^(٢) فكل يتيمةٍ
لها نَسَبٌ مِنْ مَقْطَعٍ متخيرِ
أَجَادَتْ تحريها قروم أميةٍ
معادنَ شتّى من فلزٍ^(٣) ومَرْمَرِ
نَبَتَ دونها زرقُ الفؤوسِ وَأُضْبَحَتْ
لدى الفرى تَهْزَا بالحديدِ المعصفرِ
وَلَكِنْ لِفَضْلِ الْفَنِّ أَلْقَتْ قِيَادَهَا
فَصَالَتْ بِهَا الصَّنَاعُ صَوْلَةٌ عنترِ

(١) كان الخليفة الناصر قد يأتي إلى المسجد بثوب خلق تواضعاً منه لله تعالى .

(٢) العماد ما يعمد به وجمعه عمد بضمّتين وعمد محرّكة اسم الجمع .

(٣) الفلز بتشديد آخره هو الحجارة وقيل : هو اسم جامع لجواهر الأرض .

فبينا هي الصمّ الصلادُ إذ انشنت
 مَقَاطِعُ جُبْنٍ أو قوالِبُ سُكَّرِ
 عرائسُ للتخريم فوق رؤوسها
 أَكَالِيلُ درٍّ في قلائدِ جوهرِ
 ووجهٌ إلى المخرابِ طرفك ينسرخُ
 من الصّخر في مثلِ الطراز المحبّرِ
 وحدّق بهاتيك النقوش وزهوها
 كأنّ فاتّها صنّاعها منذُ أشهرِ
 وبالقبّة العلياء يبدو شعاعها
 بألمع من زهر النجوم وأزهرِ
 لو أنّ الشريّا في سماها تعرضتْ
 لظلتْ تحدّى للثريا وتزدري
 أقولُ لخصمٍ يبخسُ العربَ حقّهم
 أجاد نور الشمسِ دونك فانظرِ
 ويا سائحاً يبغي مآثر قومِهِ
 وينشدُها في كلّ سهلٍ وموعرِ
 تطوّف فلا تلقاك غير بدائع
 يميلُ لديها كلّ عطفٍ مخصرِ
 تطلّع فلا تلقاك غير روائع
 لها الليثُ يرئو عن لواحظِ جؤذر^(١)

(١) أي مهما قسا الإنسان فلا بد له من أن يرق لتلك المناظر .

خليلي فما فَحَصَ السَّرادقُ ^(١) نائياً
 وهذا براس الطَّورِ حصن المدورِ ^(٢)
 وهذي رُسُومٌ للمنيفِ ^(٣) ومؤنسٌ
 وقَصْرُ السَّرورِ ^(٤) الدَّارس المتبعثرِ
 وكان هنا قَصْرُ الدَّمشقِ ^(٥) وأنه
 يُطَاوِلُ علياً بعلبك وتدمرِ
 وزَاهِرَةُ المنصورِ ^(٦) لا شَكَّ جنةٌ
 تمدُّ من الوادي الكبير بكوثرِ
 وسائِلُ عن المنصورِ نجلِ ابن عامرٍ
 يجاوبُك عنه كل قوسٍ موترِ
 غزا في العِدَى ستّاً وخمسين غزوةً
 وأضَ بهَا طرّاً بنصر مؤزِرِ
 خليلي وعَرَّجْ بالبهورِ ^(٧) فإنه
 تقطع عن أمثاله كلَّ ^(٨) أبهرِ

(١) فحص السرادق هو من أشهر ضواحي قرطبة.

(٢) المدور حصن من عمل قرطبة يمر حذاء قطار الحديد.

(٣) من قصور قرطبة.

(٤) والمؤنس ودار السرور هما أيضاً من قصور قرطبة.

(٥) والدمشق هو أيضاً من قصور قرطبة.

(٦) وكان للمنصور بن أبي عامر قصر اسمه الزاهرة قلده عبد الرحمن في الزهراء.

(٧) اسم قصر من قصور قرطبة.

(٨) عرق إذا انقطع مات صاحبه.

وهذي التي كانت تسمّى شقنّدة^(١)
وتدخل في التخطيط ضمن المسورِ
وفيهما جرى ذاك العراك الذي جرى
وروى ثراها بالدم المتفجرِ
وقائع قيسٍ واليماني وكلّها
مصائبٌ إن تُذكرُ لنا نتفطرِ
ورزّ ضفّة الوادي الكبيرِ وسُخ بها
وعرّج على الجسر الطويل المقنطرِ
وهذي الطواحينُ الشيهرة لم تزلْ
كأن تركوها أمس لم تتغيرِ
قصورٌ نبا عنها قصور مشيد
وعلياء لم تعلم مَشيد مقصرِ
وأقنية تحكي الجنان نضارة
وأقنية تجري على كل أخضرِ
وشم حصون لا تعدّ ودونها
مقاصفٌ إن تُذكر تهز وتسكّرِ
على همم تلك المحاسن كلّها
غرامهم بالانقسام المشطرِ
محا الخلف من أوضاعهم كل نافع
وصوّح من أعمالهم كل مثمرِ

(١) حي من أحياء قرطبة جرت فيه معركة مشهورة بين المضرية والقحطانية .

ولم يستفيدوا مِنْ تَقَاطُعِ بينهم
 سِوَى عَيْشٍ ذَلَّ تَحْتَ نَقْمَةِ مَوْتِرٍ
 إِذَا آنَسُوا أَدْنَى بَصِيصٍ لثَوْرَةٍ
 تَدَاعَوْا لَهَا كَالْمَاءِ عِنْدَ التَّحْدَرِ
 فَكُلَّ الَّذِي قَدْ شَيَّدُوهُ بِحَزْمِهِمْ
 أَضَاعُوهُ حَقًّا بِالشَّقَاقِ الْمَدْمَرِ
 وَلَمْ يَبْقَ فِي هَذَا الدِّيارِ لَنَا سِوَى
 مِمَّا لَكَ فِكْرٍ مِنْ حُرُوفٍ وَأَسْطَرِ
 مِمَّا لَكَ لَا تَقْوَى عَلَيْهَا كَتَائِبُ
 وَلَا سَالِبُ تَارِيخِهَا رَحْفُ عَسْكَرِ
 إِذَا حَضَرَتْ أَثَارُ قَوْمِي وَإِنْ خَلَوْا
 فَإِنِّي مِنْهَا فِي قَبِيلٍ وَمَعْشَرِ
 وَأَشْعُرُ أَنِّي فِي بِلَادِي كَأَنَّمَا
 تَخَاطَبَنِي الْأَرْوَاحُ مِنْ كُلِّ مَقْبَرِ
 وَأَنِّي أَرَى بِالْعَيْنِ مَا لَمْ أَكُنْ أَرَى
 حَقِيقَتَهُ فِي وَصْفِ طُرْسٍ وَمَزْبَرِ
 لَعَلَّ الَّذِي قَدْ كَانَ مِنْهُ بَوَارِئُنَا
 يَعُودُ عَلَيْنَا خَيْرٌ وَعَظٌّ وَمَزْجَرِ

وفي أثناء الحرب العامة جاء وفد تركي مؤلف من بضعة عشر
 شخصاً من مبعوثي مجلس الأمة ومن أدباء الأتراك وكتابهم وذلك
 إلى سورية لأجل إحكام علاقات الاتحاد بين العرب والترك وتلافي

ما قام به جمال باشا من الأعمال التي أثارت العرب، فأقيمت لهم حفلات كثيرة في حلب والشام والقدس وغيرها واقترح علينا والي الشام إذ ذاك تحسين بك أن ننظم أبياتاً تتلى في المأدبة العظيمة التي أدبوها لهم في دمشق. فنظمنا قصيدة تلونها في الجمع وهي أيضاً من جملة القصائد المفقودة من بين أوراقنا ولا يزال منها في خاطرنا الأبيات التالية:

[من البسيط]

قِفْ بَيْنَ مُشْتَبِكِ الْأَغْصَانِ وَالْعَذْبِ
بَأَرْضِ جَيْرُونَ^(١) ذَاتِ السَّلْسِلِ الْعَذْبِ
بَرْبُورَةٍ فِي حَفَافِهَا الْمَعِينُ جَرَى
بَجُوجِ الْبَارِ حَيْثُ الصَّيْدِ عَنْ كَثْبِ
وَاهْتَفَّ بِسَاكِنِهَا أَنْ يَنْشَنُوا طَرْباً
إِنَّ الْكَرِيمَ عَلَيْهِ هَزَةُ الطَّرْبِ

ومنها:

فِي سَاحَةِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى يُقَالُ لَهُمْ
أَهْلًا وَفِي عَتَبَاتِ الْمَضْطَفَى الْعَرَبِيِّ
لَوْ أَنْصَفْتُهُمْ دِيَارُ الشَّامِ قَاطِبَةً
صَفَّقْنَا بِالْكَفِّ مِنْ مِضْرٍ إِلَى حَلَبِ

ومنها في خطاب الأتراك العثمانيين:

أُحِبُّكُمْ حُبَّ مَنْ يَسْعَى لَطِيئَتِهِ
فِي طَاعَةِ الْعَقْلِ لَا فِي طَاعَةِ الْغَضَبِ

(١) باب من أبواب دمشق وقد يطلق على البلدة.

أَحِبُّكُمْ حَبِّ مَنْ يَدْرِي مَوَاقِفَكُمْ
في خدمة الدين والإسلام من حقبِ
ومُذْ تَقَلَّدْتُمُو أَمْرَ الْخِلَافَةِ قَدْ
أَوَيْتُمُو مَنْ بَيْنَهَا كُلِّ مَغْتَرِبِ
لَقَدْ ضَرَبْتُمْ لِعَمْرِي فِي حَيَاطِطِهَا
بِكُلِّ سَيْفٍ رَهِيْبِ الْحَدِّ ذِي شَطْبِ
فَكُلَّ غَرِّ يَمَارِي فِي فَضَائِلِكُمْ
لَا يَعْرِفُ الْحَشْفَ الْبَالِي مِنَ الرُّطْبِ
مَهْمَا يَكُنْ مِنْ هَنَاتٍ بَيْنَنَا فَلَنَا
مَعَكُمْ عَلَى الدَّهْرِ عَهْدٌ غَيْرُ مَنْقُضِ
كَفَى الشَّهَادَةُ^(١) فِيمَا بَيْنَنَا نَسَبًا
إِنْ لَمْ تَكُنْ جَمَعَتْنَا وَحْدَةُ النَّسَبِ
مَجْدِي بَعَثْمَانٌ حَامِي مِلَّتِي وَأَنَا
لَمْ أَنْسَ قَحْطَانَ أَصْلِي فِي الْوَرَى وَأَبِي
وَلِي تَهْنِئَةٌ لِأَحَدِ عَيُونِ أَعْيَانِ الْمَغْرِبِ بِزَفَافِهِ الْمُبَارَكِ : [من الكامل]

اهنأ أبا العباس بالفَرَحِ الَّذِي
حَلَّتْ مَلَائِكَةُ الرِّضَى بِحِفَافِهِ
فَرَحٌ بِهِ التَّوْفِيقُ يَسْحَبُ ذَيْلَهُ
وَيَهْزُ فِيهِ السَّعْدُ مِنْ أَعْطَافِهِ

(١) أي كلمة لا إله إلا الله .

يَا طَالَمَا ارْتَقَبَ الْأَنَامُ هِلَالَه
 لِيُنِيرَ لَيْلَ الْهَمِّ مِنْ أَسْدَافِهِ
 حِرْصاً عَلَى ثَمَرَاتِ غُصْنٍ نَاضِرٍ
 هُوَ نَخْبَةٌ وَيُرَادُ مِنْ أَخْلَافِهِ
 فَالآنَ قَدْ وَافَاهُمُ النَّبَأُ الَّذِي
 طَرُبْتُ قُلُوبَهُمْ بِحَسْرِ سُلَافِهِ
 هَذَا هِدَاءٌ فَتَى يَقْلُ نَظِيرُهُ
 فِي الدَّهْرِ إِنْ نَجْنَحَ إِلَى إِنْصَافِهِ
 بَذَّ الشُّيُوخَ وَلَمْ تَزَلْ أَيَّامُهُ
 شَرْخاً وَزَانَ شَبَابِهِ بِعَفَافِهِ
 مَا زَالَ حَبُّ الْمَجْدِ يَشْغَلُ قَلْبَهُ
 حَتَّى رَفَاهُ إِلَى دُرَى أَعْرَافِهِ
 تَهْوَى الْمَلَائِكُ وَالْمُلُوكُ لَوَ أَنَّهَا
 مَحْبُوءَةٌ بِالْفَضْلِ مِنْ أَوْصَافِهِ
 قَدْ أَقْطَعُ الْأَوْطَانَ كُلَّ عَنَائِهِ
 وَأَحْلَلَ خِدْمَتَهَا صَمِيمَ شَغَافِهِ
 نَادَيْتُ قُطْرَ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى الَّذِي
 يَتَأَلَّقُ الْإِسْلَامُ فِي أَكْنَافِهِ
 يَا أَيُّهَا الْقُطْرُ الَّذِي فَتْيَانُهُ
 يَحْيَوْنَ لِلْمَتْرُوكِ عَنْ أَسْلَافِهِ
 حَقّاً نَهَضْتُ بِمَا تَكُنُ مِنَ الْقَوَى
 حَتَّى اسْتَبَانَ الدُّرُّ مِنْ أَسْدَافِهِ

وعمدتُ للمجدِ القديمِ تَعيدُهُ
بالتَّظْمِ بَيْنَ تِلَادِهِ وَطِرَافِهِ
بعصَابَةٍ غَرَاءَ كُلِّ مَهْذَبٍ
هو سرَّ صُنْعِ اللَّهِ فِي الطَّافِهِ
فلتحيَّ أرخ ولتهنَّ بسَيِّدِ
الكونِ مبتهَجِ بِيَوْمِ زَفَافِهِ

الباكورة

قال الأمير:

ذكرنا في مقدمة هذا الديوان ما سبق لنا من نشر الباكورة نظمنا وذلك سنة ١٨٨٧م جامعة لبكائر شعرنا من سنة ١٨٨٤م إلى سنة ١٨٨٧م أي أيام كنا في الرابعة عشرة إلى أن صرنا في السابعة عشرة من العمر ولم نجد لزوماً لنشر الباكورة كلها لأنها مطبوعة ولكننا نظراً لندور النسخ الباقية منها أحببنا أن ننتخب منها عدة قصائد وعدة مقاطع وهي هذه:

إهداء الباكورة

لحضرة العالم العامل الفيلسوف الكامل واسطة عقد الحكماء ودرّة تاج
البلغاء الأستاذ الأكبر الشيخ محمد عبده المصري أيده الله تعالى . [من الكامل]

لو هاجَ مثلُ الفضلِ خاطرَ شاعرٍ
ألقيتُ بين يدي سواك بواكري
أو لو وجدتُ بمثلِ فضلكَ عاذلاً
كان الكمالُ إذا سلوتك عاذري
لكن سطوتُ على القريضِ بأسره
وعَدوتُ أعذبَ منهلٍ للخاطرِ
فزهوتُ بين مداركٍ ومشاهدٍ
وسموتُ بين بصائرٍ وبواصرٍ

أَوْ كَيْفَ لَا تَسْمُو وَمِثْلَكَ مَنْ حَوَى
 بِأَعَزِّ نَفْسٍ كُلَّ خَلْقٍ بَاهِرٍ
 عِلْمٌ عَلَى عَمَلٍ عَلَى قَلَمٍ، غَدَا
 فِي الْخُطْبِ يَهْزَأُ بِالْحَسَامِ الْبَاتِرِ
 وَفَضَائِلُ تَسْتَنْطِقُ الْأَفْوَاهُ مِنْ
 كُلِّ الْبَرِيَّةِ بِالثَّنَاءِ الْعَاطِرِ
 عِلَامَةُ الْعُلَمَاءِ وَالْبَحْرِ الَّذِي
 لَا يَنْتَهِي مِثْلُ الْبَحَارِ لِآخِرِ
 يَا أَيُّهَا الْعَلَمُ الَّذِي أَوْصَافُهُ
 أَضَحَتْ رِيَاضَ قِرَائِحٍ وَضُمَائِرِ
 شَهِدَ الزَّمَانُ لَنَا بِأَنَّكَ فَرَدُّهُ
 مِنْ كُلِّ بَادٍ فِي الْأَنَامِ وَحَاضِرِ
 يَا أَوْحَدَ الْعَصْرِ الَّذِي عُقِدَتْ عَلَى
 تَقْدِيمِهِ فِي الْفَضْلِ خَيْرُ خَنَاصِرِ
 لَا غُرُو أَنْ أَهْدِي إِلَيْكَ رِقَائِقِي
 وَأَنَا رَقِيقُ فَضَائِلٍ وَمَآثِرِ
 لَيْسَ الْقَرِيبُ سِوَى تَأَثُّرِ خَاطِرِ
 مِمَّا بِهِ لِلْمَرْءِ قَرَّةٌ نَاطِرِ
 تَمْسِي الْمَحَاسِنُ وَهِيَ فِيهِ بَوَاعِثُ
 لِلشَّعْرِ بَيْنَ مَسَبِّ وَمُبَاشِرِ
 غُرَّرَ عَلَى الْأَيَّامِ لَوْلَاهَا لِمَا
 لَاحَتْ وَجُوهُ الدَّهْرِ غَيْرُ بَوَاسِرِ

لم تَبْرَحِ الشعراءُ صَرَعَى نشوة
 بِرَحِيقِهَا مِنْ سالفٍ ومعاصرٍ
 فإذا انجلتْ في مِثْلِ ذاتِكَ مرةً
 كنتَ الأحقُّ بكلِّ مقولٍ شاكرٍ
 يا مَنْ غَدَا بعوارفٍ ومعارفٍ
 يزري على لججِ العُبابِ الزاخرِ
 أهديكَ بعضاً من عقيقِ قريحتي
 يا بَحْرُ لَكِنْ لا أقولُ جواهرِي
 أبياتُ إحسانٍ وليسَ جَمِيعُهَا
 من كلِّ بيتٍ بالمحاسنِ عامرٍ
 قد جَادَها صوبُ الصُّبا وبنشْرِها
 نَمَّ الصُّبَا عَنْ كُلِّ عَرَفٍ ذافرٍ
 دَرَجْتُ معي أطوارُ عمرٍ واصلٍ
 ما جَاشَ مِنْ يَوْمٍ بليلٍ ساهرٍ
 قَدْ باكرتني قبلَ صادقِ فجرهِ
 مُذْ كنتُ مِنْ أعوامِهِ في العَاشِرِ
 أَوْحَتْ إلى قلبي الهوى فَشَعَرْتُ إذْ
 غُضُنُ الصَّبَابَةِ لا يميلُ لهاصرٍ
 فمضيتُ بَيْنَ كمائلٍ ومَفَاخِرٍ
 ومشيتُ بَيْنَ خمائلٍ وأزاهرٍ
 ما قُلْتُ ذا فخرًا ولا عجباً وما
 مِنْ معجبٍ في نَظْمِهَا أو فَاخِرٍ

لَكِنْ لَتَرْفُقْ غَيْرَ مَأْمُورٍ بِهَا
فَلَكُمْ خَطُطٌ طَوْرًا لِنَيْلِ الْحَاضِرِ
إِنْ تَأْتِنِي عَفْوًا فَكَمْ هَذَّبْتُهَا
مَنْ سَخَفَ لَفْظًا أَوْ رَوَّى نَافِرٍ
مَكَّنْتُهَا بَعْدَ النَّزَاعِ وَكَمْ حَكَّتْ
قَلَقَ الْقِدَاحِ بَدَتْ بِكَفِّي يَاسِرٍ
حَتَّى أَتَتْ مِنْ بَعْدِ تَرْبِيَّتِي لَهَا
حَسْبِي وَإِنْ لَمْ تَغْدُ مَلَاءَ مُحَاجِرِي
عُوضْتُ مَا خَسِرْتُهُ مِنْ حُسْنٍ بِمَا
رُفِعَتْ إِلَيْكَ فَلَمْ أَكُنْ بِالْخَاسِرِ
فَكُنِ الْوَصِيَّ عَلَى يَتَامَى نَازِمٍ
وَبَنَاتِ فِكْرِ فِي ثَنَّاكَ قَوَاصِرِ
أَهْدِيْتُهَا لَا كِي تَلِيْقَ وَطَالَمَا
قَبْلَ الْكَبِيرِ هَدِيَّةٌ مِنْ صَاغِرِ
هِيَ دُونَ مَا يُهْدَى إِلَيْكَ وَإِنَّمَا
مِثْلِي عَلَى مَا فَاقَ لَيْسَ بِقَادِرِ

الداعي

شبيب أرسلان

وقلت وأنشدتها في محفل مدرسة الحكمة وكنت في السادسة
عشرة من العمر:

[من الطويل]

عَمَّا بَصَبَاحِ الْعِلْمِ رَغْدًا وَأَنْعُمًا
بَرَبْعِ ظِلَامِ الْجَهْلِ عَنْهُ تَصَرَّمًا

قد انصاح صُبْحُ السَّعْدِ في ليل نَحْسِهِ
 فغادرَه شيئاً فشيئاً مهزماً
 وثابَ إليه العِلْمُ عَدُوّاً بَعُودِهِ
 إليه فَلَا لَوْمَ إذا ما تَلَوَّما
 فأصبح داجي أفقهِ اليومَ زاهراً
 وقد كانَ زاهي أفقهِ قَبْلُ مظلماً
 وأينَعَ ذاوي رَوْضِهِ اليومَ بعد أن
 تصوَّحَ مِنْ عَصْفِ البوارح في الحمى
 ترنَّحَ عطفُ السَّعْدِ مِنْهُ بُعِيدَ أَنْ
 رأى لشغورِ العِلْمِ فيه تبسُّماً
 وباتتْ غُصُونُ العزِّ تخطرُ عندما
 رأت فوقَها طيرَ المعارفِ حَوْماً
 لَعَمْرُكَ أَنَّ الشَّرْقَ رُدَّ بهَاوُهُ
 فيرفُلُ في ثَوْبِ النِّسَاءِ مُنْمَماً
 وعَادَ إليه الفضلُ والعُودُ أَحْمَدُ
 عليه إذا كانَ الغيابُ مذمَّماً
 وما الشَّرْقُ إِلَّا ذلِكَ الشَّرْقُ لم يَزَلْ
 مَدَى الدَّهْرِ إعلَامَ العُلَى متسنِّماً
 فإنَّ نَابَهُ يوماً مِنَ الدَّهْرِ صَرْفُهُ
 فلمَ تمضِ إِلَّا برهَةً فتثَلَّمَا
 وإِما تَطُشْ دُهمَ اللَّيالي سِهَامَهُ
 فتهيَّاتَ لم تَسْلِبْهُ للحظِّ أسهُمَا

وَإِنْ فَاتَهُ لِلْفَضْلِ غَيْثٌ فَإِنَّمَا
 تَوَخَّى إِلَيْهِ الرَّجْعَ جَمًّا فَعَتَّمَا
 وَإِنْ تَعَرَّهَ الْأَحْدَاثُ مِنْ بَعْدِ بَسْطَةٍ
 فَأَيُّ الْوَرَى لَمْ يَلْقَ بَوْسَى وَأَنْعَمَا
 وَإِنْ يَكُ يَوْمًا سَوْدَ الْجَهْلِ أَفْقَهُ
 فَقَدْ طَالَمَا فِي الْفَضْلِ أَطْلَعَ أَنْجَمَا
 نَجُومُ عُلُومٍ أَخْجَلَتْ بَضِيائِهَا
 نَجُومُ ضِيَاءٍ لُحْنٍ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ
 بِهِنَّ أَهْتَدَى فِي سَيْرِهِ كُلُّ بَارِجٍ
 تَوَعَّلَ فِي بَحْرِ الْكَيَانِ الَّذِي طَمَى
 رَجَالٌ بِهِمْ جَادَ الزَّمَانُ وَعَلَهُ
 عَلَى مِثْلِ هَذَا الْجُودِ يَوْمًا تَنْدَمَا
 أَقَامَهُمْ فِي الشَّرْقِ يَحْيَوْنَ شَأْنَهُ
 فَأَذْهَلَ عَمَّا نَالَ عَادًا وَجُرْهُمَا
 هُمُ الْمَلَأُ الْأَخْيَارُ وَالْعَصْبَةُ الْأَلَى
 رَأَيْنَا لِعَمْرِي الرُّشْدَ فِيهِمْ مَجَسَّمَا
 تَظَلَّمُ مِنْهُ الْفَخْرُ قَبْلَ مَجِيئِهِمْ
 فَجَاءُوا فَلَمَّا أَثْقَلُوهُ تَظَلَّمَا
 لَكُمْ أَرْهَفُوا بِالْجَدِّ لِلْمَجْدِ مَخْذَمًا
 وَكَمْ أَرْعَفُوا بِالنَّيْلِ لِلْفَضْلِ مَخْطَمًا
 وَكَمْ صَرَفُوا وَجْهَ الصَّرُوفِ عَنِ الْوَرَى
 وَكَمْ عَقَرُوا بِالْحَزْمِ لِلدَّهْرِ مُرْغَمًا

وَسَلُّوا مِنْ الْأَرَاءِ أَبْيَضَ صَارِمًا
 ففَلُّوا مِنْ الْأَرْزَاءِ بَحْرًا عَرْمَرَمًا
 أَمَاطُوا قِنَاعَ الْمَكْرُمَاتِ وَقَدْ جَلُّوا
 مَحْيَا الْمَعَالِي بَعْدَ أَنْ كَانَ أَسْحَمًا
 وَأَعْلَوْا مَنَارَ الرُّشْدِ فِي أَفْقِ شَرْقِهِمْ
 وَخَلُّوا سَبِيلًا لِلْمَآثِرِ أَفْوَماً
 وَأَجْرُوا يَنَابِيعَ الْمَعَارِفِ فِي الْمَلَا
 فَطَالَ بِهَا بَنَتُ الْمَعَانِي وَقَدْ نَمَّا
 وَشَادُّوا أَصُولًا لِلْفَنُونِ وَأَوْضَحُوا
 لَهَا سُبُلًا أَضَحَّتْ إِلَى النُّجُجِ سَلَمًا
 فَنِعْمَ رِجَالُ الشَّرْقِ قَوْمًا وَمَعِشَرًا
 إِلَى جَدِّهِمْ أَصْلُ الْمَعَالِي قَدْ انْتَمَى
 جَرَوْا فِي رَهَانِ الْفَضْلِ فِي أَوَّلِ الْمَدَى
 سَبَّاقًا كَمَا أَجْرِبْتُ أَجْرَدَ شَيْطَمًا
 وَلَمْ يَرْهَبُوا مِنْ دُونِهَا فِي جِهَادِهِمْ
 خِطَارًا فَقَدْ خَالُوا التَّوْقِي تَقَحُّمًا
 فَهُمْ أَسَّسُوا رُكْنَ الْحَضَارَةِ فِي الْوَرَى
 وَلَمْ يَفْعَلُوا إِلَّا لِنَدْرِكَ مَعْنَمًا
 وَهُمْ أَكْنَهُوا سِرَّ الْمَعَارِفِ أَوَّلًا
 وَهُمْ عَرَفُوا نَفْعَ الْعُلُومِ مَقْدَمًا
 فَلَمَّا أَحَلَّ اللَّهُ فِيهِمْ قِضَاءَهُ
 وَوَفَاهُمْ دَاعِيَ الرَّدَى مَتَخَرَّمًا

طوتهم أيادي البين من بعد أن رموا
مِنَ الهَمَّةِ الشَّمَاءَ أبعد مرتضى
فغار ضياءُ الشَّرْقِ عند غيارهم
وأظلمَ وجهُ الشَّرْقِ وقتاً واقتما
وذالت إلى الغُربِ العلومُ مع العُلى
كَمَا حَكَمَ المبدى المعيدُ وأبرما
وأوجفَ ركبُ السَّعي في طَلَبِ العُلى
فكانَ بذا الجري الجواد المصمِّما
فهادنه صَرْفُ الزمانِ مُسَالِماً
ونوِّلَهُ الخَيْرَ الأتمَّ المعمِّما
وباتت بلادُ الشَّرْقِ من بعدِ عزِّها
كأن لم تنلْ مجدداً ولم تحوِ مُقرِّما
إلى أن تجلَّى طالعُ العَصْرِ بعد أن
تحجَّبَ عن تلك الجوانبِ واكتُمى
فثابتُ لدى إشراقهِ الهممُ التي
عَنِ العِلْمِ قبلاً قد تقاعسنَ نوِّما
عَنِ العِلْمِ حقَّ العلمِ بالفضْلِ ظاهراً
فذلك لالِبابٍ قد كانَ ألزماً
وعفَّت على ما كانَ قبلاً وذُلَّت
جماحَ زمانٍ قد طَعَى وتجرَّما
فإنَّ يكُ خَسَفُ الشَّرْقِ أضْحَى محللاً
لديه فما كانَ الفَلاحُ محرِّما

أَلَا يَا بَنِي الْأَوْطَانِ إِنَّ عَلَيَّكُمْ
إِلَى السَّعْيِ فِي تِلْكَ الْمَعَالِي التَّقْدَمَا
عَلَيْكُمْ بِهَا فَاسْعَوْا لَهَا وَتَشَبَّهُوا
فَمَنْ يَتَشَبَّهَ بِالْكَرَامِ تَكْرَمَا
وَمَنْ قَصُرَتْ يَدِيهِ فَلْيَسَعْ طَوْقَهُ
وَمَنْ لَمْ يَجِدْ مَاءً بِأَرْضٍ تَيْمَمَا
وَقَدْ نَكْتَفِي بِالطَّلِّ إِنْ بَانَ وَابِلٌ
فَإِنَّ أَعْوَارَ الْعَيْنِ خَيْرٌ مِنَ الْعَمَى
وَلَا سِيَّما الْعِلْمُ الشَّرِيفُ فَإِنَّا
نَرَى نَيْلَهُ جَدًّا عَلَى الْكُلِّ مَغْرَمَا
أَمَا نَحْنُ مَنْ سَأَلُوا الْمَآثِرَ وَافْتَتَى
مَآثِرُنَا مَنْ بَعْدَنَا حَازَ مُسْتَمَى
أَلَمْ نُعَلِّ أَعْلَامَ الْعُلُومِ بِقُطْرِنَا
عَلَى حِينِ حَدِّ السَّيْفِ يَرَعْفُ بِالْدَمَا
أَلَمْ نَكُ أَهْلُ الْأُولِيَّةِ فِي الْعُلَى
لِيَالِي لَمْ نَقْصُرْ عَنِ الْمَجْدِ مَعَزَمَا
بَلَى نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا فَأَزَالِنَا
زَمَانَ تَوَخَّى حَيْفَنَا وَتَحَكَّمَا
وَمَا زَالَ أَهْلُ الْعَرْبِ يَدْرُونَ قَدْرَنَا
مِنْ الْفَضْلِ مَا أَبَدُوا مِنَ الدَّهْرِ مُعْجَمَا
مَتَى يَذْكُرُ الْإِفْضَالَ فِيهِمْ خَطِيبُهُمْ
عَلَى مَثْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمَا

فَلَا تَحْسِبُونَا قَدْ عَزَيْنَا وَطَالَمَا
 جَرَزْنَا مِنَ الْفَضْلِ الرِّدَاءَ الْمَرْقُمَا
 وَهُمْ أَثَرُوا عَنَا الْعُلُومَ فَهَذَّبُوا
 فَجَرُّوا عَلَيْنَا مَطْرَفَ الْمَجْدِ مُعَلَّمَا
 تَبَارَوْا بِعِلْمٍ بَيْنَهُمْ وَتَنَافَسُوا
 فَلَا جَزَمَ أَنَّ الْعِلْمَ سَرٌّ فَاشْكَمَا
 وَقَدْ بَلَّغُوا مِنْ بَاذِخِ الْعِزِّ مَنْزِلًا
 يَظِلُّ لِسَانُ الْحَالِ عَنْهُ مُتَرَجِمَا
 إِذَا نَظَرَ الشَّرْقِيُّ حَالَ صَلَاحِهِمْ
 بَكَى صَاحِبِي مِنْهَا دَمًا سَالَ عِنْدَمَا
 فَيَا وَطَنِي حَتَّامَ تَلَبَثَ غَافِلًا
 وَحَتَّامَ يَا شَرْقِيَّ أَرَاكَ مَهُومًا
 أَلَمْ تَدْرِ بِالْغَرْبِيِّ فِي الْأَرْضِ سَائِحًا
 عَلَى سَابِغٍ مِنْ عِلْمِهِ لَيْسَ مُلْجَمًا
 فَلَلَّهُ دَرُّ الْعِلْمِ إِنَّ جَدَاءَهُ
 لِمِمَّا يَفُوقُ الْعَارِضَ الْمَتَسَجِّمًا
 لَكُمْ نَالَ مِنْ فَخْرِ وَأَيَّدَ صَاغِرًا
 وَكَمْ عَالَ مِنْ فَقْرٍ قَلَّدَ مُعْدَمًا
 وَكَمْ حَلَّ مِنْ عِيٍّ وَأَطْلَقَ حُبْسَةً
 وَكَمْ فَلَّ مِنْ غِيٍّ وَأَنْطَقَ أَبْكَمَا
 فَمَنْ يَعْتَصِمُ بِالْعِلْمِ يَظْهَرُ بِهِدْيِهِ
 فَلَمْ يَكُ غَيْرَ الْعِلْمِ شَيْءٌ لِيَعْصُمَا

إذا العِلْمُ هذا الحقّ ما فيه شبهةٌ
 وحَسْبُكَ بالحقّ المبين معلّماً
 ومَنْ عَزَّ دون العِلْمِ شأنًا فإنه
 لسوفَ يلاقي أمره متحتّمًا
 فذو السَّيفِ يلقي العزَّ حيناً ومفرداً
 وذو العلم يلقي العزَّ دهرًا وتوأمًا
 ومَنْ نال أخطار اليراع فإنما
 ستُقرن كَفَّاه يراعاً وصيلما
 فسعداً لمن في حلبة العلم قد جرى
 وسُحقاً لمن في حلبة العِلْمِ أحجمًا
 وما ذلّ من يهوى العُلُوم وإنما
 تسوّد من بالعلم كان متيماً
 سَمًا بالذي كان الحضيضُ مقرّه
 فطنّب مَنْ فوق الدراري مُخيماً
 فما يبلغ المنطيق وصفَ جدائه
 ولو كان كلّ الكون في وصفه فما
 فحِثُوا مَطَايا العزم كي تظفروا به
 تنالوا بيؤمن العَصْرِ منه الميمّمًا
 فلا منيةٌ إلّا ونلتُم أعزّها
 ولو أنها باتت على روقِ أعصمًا
 لئن تبدّلوا فيه النفيس فغيركم
 لإحرازه هلك النفوس تجشّمًا

وما غيركم واللّه إلاّ أصولكم
نخبر عنهم لا حديثاً مرجّماً
وقومٌ هدّوا في الحقّ هديّ جدوكم
إلى أن غدوا أعلين في الأمر مثلما
أولئك قد سادوا وأقصى نكايّة
لنا فيهم ألقابٌ عالج وأعجماً
بعلم إذا ما بات فيهم متوجّجاً
فيا طالماً قد كان فينا معمماً
فإما لعمري قدوةٌ بمعاصرٍ
وإما تراثٌ للذي صار أعظماً
ولا تحسب الأحوال وهي عوارضٌ
تغير في أصل المبادي قساماً
وإما نصّبنا في سبيل جهادنا
فأيّ قرارٍ لا يقابلُ مخرمّاً
وقد أشرع الدرب الموصول نحوه
بما شفّع الرحمن فينا وألهمّا
فلا صدفت فتياننا عن وُوجه
ليغدو بهم رث البلاد مرّمّاً
ويرتق فتق الشرق بعد اتساعه
ويرقى غطاءه بعد ما قد تشرّمّا
فإنّ الفتى من زان مسقط رأسه
بما ناله من حكمّة وتعلّمّا

فَذَاكَ الَّذِي فِي بَرْدَةِ الْفَضْلِ يَنْشِينِي
وَلَيْسَ الْفَتَى مَنْ بِالْعَقِيقِ تَخْتَمًا
فَإِنْ يَنْتَظِمُ شَمْلُ الرَّجَالِ بِقُطْرِنَا
تَرْتَبَ فِيهِ أَمْرُنَا وَتَنْظُمَا
لَأَنَّ نَجَاحَ الصَّقْعِ فِي حُسْنِ أَهْلِهِ
إِذَا كَانَ أَمْرُ الْوَدِّ فِي الْقَوْمِ مُحْكَمًا
وَكُنَّا كَمَا الْأَعْضَاءُ فِي الْجِسْمِ فَاعْتَدَى
عَلَى الْكُلِّ مِنْهُمْ خَيْرُهُ مَتَقَسِّمًا
فِي شَتْدُ أَرْزُ الْقَوْمِ بَعْدَ انْجِلَالِهِ
إِذَا شَدَّ مِنْ عَقْدِ التَّصَافِرِ مَخْرَمًا
إِذَا نَبْتَغِي عِلْمًا بَدُونَ تَضَافِرٍ
إِذَا فَاتْبَاعُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمًا
وَكُلُّ أَمْرٍ عَنْ قَوْمِهِ مَتَخَلَفٌ
فَلَا يَعْدَمُنَ الدَّهْرَ لِلْوِطْءِ مَنْسَمًا
فَكُونُوا كَجِسْمٍ وَاحِدٍ إِنْ تَأَلَّمْتُ
لَهُ أَنْمُلٌ تَلْقَى الْجَمِيعَ تَأَلَّمَا
تَفُوزُوا بِتَذَلِيلِ الصَّعَابِ إِذَا عَصَتْ
وَتَقَوُوا عَلَى ذَا الدَّهْرِ إِمَّا تَهْضَمَا
وَتَحْظُوا بِأَعْلَاقِ الْمُنَى وَتَحَقِّقُوا
بِهَمَّتِكُمْ مِنْ عَصْرِنَا مَا تَوْسَمَا
هُوَ الْعَصْرُ وَافَى ضَاحِكًا عَنْ فُنُونِهِ
وَقَدْ كَانَ مِنْ قَبْلُ عَلَيْكُمْ تَأْجَمَا

تبدى وهذا الجهل في الناس سائداً
فأطرق منه هيبة وتحشما
وراح على الدنيا ينت بدائعا
فهز أخا عشق ورنح ضيغما
بكم معشر الحضار تزان أرضنا
ويصبح عرض الخسف فيها مكلما
تجلون عن أن تترشدوا من مماثلي
ولكنها ذكرى لما ليس مبهما
كفى عضركم فخرا وعزا إذا ادعى
أمير الورى عبد الحميد المعظما
ليجهد في استرجاع رونق شرقنا
وتجديد ما من مجده قد تهدما
فلا زال في عضر الخلافة قائما
لما اناد من أمر العباد مقوما
ينت عليه الخافقان بعدله
ثناء جميلاً بالدعاء مختما

وقلت في مثل ذلك عند حضور امتحان المدرسة السلطانية في السنة نفسها

بدور بأفق العلم هذي المواسم
على البدر قد لاحت لهن مواسم
لتغدو بها عين الفلاح قريرة
وتبدو ثغور السعد وهي بوايسم

[من الطويل]

يَقْدَرُ فِيهَا الْعِلْمُ مَا هُوَ كَاسِبٌ
وَيَعْرِفُ فِيهَا الْفَضْلُ مَا هُوَ عَانِمٌ
فَتَنْتِجُ مَا قَدْ حَاوَلَ الْجُهْدُ فِي الْعُلَى
وَتَسْفِرُ عَمَّا بَاشَرْتَهُ الْعِزَائِمُ
شَهَوْرٌ عَلَى صِدْقِ الْفِعَالِ أَمِينَةٌ
وَلَكِنْ قِضَاءُ السَّبَاقِ حَوَاكِمُ
مَضَامِيرُ أَقْرَانِ النَّبَاهَةِ وَالنُّهَى
يَمَيِّزُ مَرْغُومٌ لَدَيْهَا وَرَاغِمُ
هُوَ الْجَدُّ حَتَّى الْبَعْدَ لِلْقُرْبِ سَابِقُ
وَحَتَّى الْخَوَافِي خَلْفَهُنَّ الْقَوَادِمُ
وَحَتَّى تَرَى مَا كَانَ فِي نَيْلِهِ الرَّجَا
صَرِيماً قَدْ التَفَّتْ عَلَيْهِ الصَّرَائِمُ
وَهَلْ يَبْلُغُ الْأَمَالَ إِلَّا مَجَاهِدُ
وَهَلْ يَطْرُدُ الْأَهْوَالَ إِلَّا مُقَاوِمُ
وَهَلْ دُونَ غَايِ الْجُهْدِ تَدْرِكُ غَايَةً
وَدُونَ اخْتِرَامِ النَّفْسِ تَعْنُو الْمَخَارِمُ
وَكَيْفَ يَرْجِي الْوَصَلَ مَنْ لَيْسَ يَمْتَطِي
وَكَيْفَ يَزِيلُ الْقَرْنَ مَنْ لَا يُصَادِمُ
وَلَا بُدَّ مَنْ غَوَّصَ الْفَتَى قَصْرَ لَجَةٍ
لِتَخْرُجَ غُرَّانُ اللَّالِي الْخَضَارِمُ
وَمِنْ مُدْرِكٍ مَنْ فَاتَهُ وَهُوَ قَاعِدُ
وَمِنْ لَا حِقِّ مَنْ جَازَهُ وَهُوَ نَائِمُ

وَمَا التَّفْعُ مِنْ جَيْشٍ تَعَبَى صُفُوفَهُ
إِذَا لَأَزَمَتْ أَغْمَادَهُنَّ الصَّوَارِمُ
فَإِنَّ تَمَامَ الْجَهْدِ لِلنَّجْحِ وَاجِبٌ
وَلَيْسَ يَسُوعُ الصَّدُّ عَمَّا يَلَائِمُ
وَإِنْ الْمَسْمَى الْعَقْلَ فِي الْمَرْءِ صَاحِبٌ
لِإِلْعَامِ غَدَتٍ مِنْهُ عَلَيْهِ رِثَائِمُ
فَاجْدِرْ بِخِلِّ أَنْ يُصَاحِبَ خَلَّهُ
وَلَا يَتْرِكِ الْمَلْزُومَ مَا هُوَ لَازِمُ
وَلِلْعَقْلِ طَوْلُ الْعُمُرِ بِالْعِلْمِ صَبُوءٌ
بَلَا سَلُوءٍ وَالْإِلْفُ بِالْإِلْفِ هَائِمُ
أَلَيْفَانِ لَا يَنْفَكُ كُلُّ مَتِيْمًا
بِصَاحِبِهِ تَغْيَى لَدِيهِ اللِّوَائِمُ
فَإِنْ عَدَّ حَقًّا أَفْضَلَ النَّاسِ عَالِمُ
فَأَفْضَلَ مِنْهُ عَاقِلٌ وَهُوَ عَالِمُ
وَإِنْ أَمَكَنْتَ مِنْ دُونِ ذَا الْعِلْمِ عِزَّةً
فَبِالْعِلْمِ أَسْنَى مَا تَسُودُ الْعَوَالِمُ
كَمَا عَزَّ بِالْعِلْمِ الْأَعَارِبُ قَبْلَنَا
فَذَلَّتْ وَهَابَتْهُمْ لِذَاكَ الْأَعَاجِمُ
لِيَالِي لَا أَمْلَاكَ إِلَّا مُلُوكُهُمْ
تُعَدُّ وَلَا تِيْجَانٌ إِلَّا الْعِمَائِمُ
تَقَدَّمْنَا مِنْهُمْ رِجَالٌ تَقَدَّمُوا
وَسَادُوا وَمَا فِي الْقَوْمِ إِلَّا ضَبَارِمُ

رجالٌ مَضَوْا لِمَ تَلَهُهُمْ عَنْ عُلُومِهِمْ
 وَشُغِلَ الْوَرَى غَارَاتِهِمِ وَالْمَلَا حِمُّ
 بِهِمْ أَشْرَقَتْ تِلْكَ الدِّيَارُ وَأَزْهَرَتْ
 بِأَقْطَارِنَا أَنْجَادُهَا وَالتَّهَائِمُ
 قَدْ اسْتَخْرَجُوا دَرَّ الْمَعَارِفِ بِالْعَنَا
 وَمَوْجُ الْعَوَادِي حَوْلَهَا مُتَلَا طِمُّ
 فَمِنْهُمْ بِأَثَارِ الْعَدُوِّ صَوَائِفُ
 وَمِنْهُمْ لَأَثَارِ الْعُلُومِ مَعَالِمُ
 لَقَدْ أَوْسَعُوا الْأَمْرَيْنِ فَتَحًا كَأَنَّمَا
 مَكَارِمُهُمْ فِي الْحَالَتَيْنِ مَعَارِمُ
 فَغَنَّتْ رُهَاًمُ الطَّيْرِ فَوْقَ رِيَاضِهِمْ
 وَأَثْنَتْ عَلَيْهِمْ فِي النِّزَالِ الْقَشَاعِمُ
 وَسَادُوا الْعِدَى فِي كُلِّ أَمْرٍ فَأَصْبَحَتْ
 بِأَيْدِيهِمْ أَمْصَارُهُمْ وَالْعَوَاصِمُ
 وَأَصْبَحَ مِنْهُمْ هَوْلَاءُ عَلَى الثَّرَى
 كَمَا سَكَنْتْ بَطْنُ الثُّرَابِ الْأَرَاقِمُ
 يَخَافُونَ أَمْرَ الْعُرْبِ حَتَّى كَأَنَّمَا
 لَهَيْبَتِهِمْ فِيهِمْ رُقَى وَطَلَّاسِمُ
 وَلَمْ يَكُ إِلَّا الْعِلْمُ عِلَّةَ مَجْدِهِمْ
 فَجَادَهُمْ مَا لَا تَجُودُ الْعَمَائِمُ
 فَمَنْ يَعْتَصِمُ بِالْعِلْمِ يَمْسِ مَعَزَاً
 وَمَنْ يَفْتِنُ عَنْهُ تَطَاهُ الْمَنَاسِمُ

إِذَا مَا تَأَمَّلْتَ الزَّمَانَ رَأَيْتَهُ
 بِكُلِّ نَجَاحٍ فِي الْعِبَادِ يُسَاهِمُ
 فَإِنْ عَدَّ كَسْبُ الْعِلْمِ فِينَا فَرِيضَةً
 فَكُلَّ جِهَالَاتِ الْأَنَامِ مُحَارَمُ
 وَهَلْ نَرْتَضِي ذَا الْيَوْمِ ذَلَالًا بِتَرْكِهِ
 إِذَا سَادَ فِيهِ جِيلُنَا الْمَتَقَادِمُ
 لَعَمْرِي لَقَدْ كَانَتْ لَنَا بِجُودِنَا
 مَأْثَرٌ فِي حَقِّ الْقُصُورِ مَائِمُ
 فَلَا غَرَوْا أَنْ نَقْتَصَّ آثَارَ مَجْدِهِمْ
 طَرَائِفُهُمْ قَدَّامِنَا وَالْمَنَاجِمُ
 وَلِمَ لَا تَرْجِي كُلَّ فَوْزٍ وَمَا لَنَا
 سِوَى الْفَضْلِ فِي جَنْبِ الزَّمَانِ جَرَائِمُ
 وَنَعْلَمُ أَنَا إِنْ نَجَدْنَا نَجْدًا وَذَا
 مُجَرَّبَ أَمْرٍ لَيْسَ فِيهِ مَزَاعِمُ
 وَكَيْفَ يُرَى نَيْلُ الْفَلَاحِ بِدُونِهِ
 وَيَأْمَلُ دُونَ الْجَدِّ ذَا النِّيلِ حَازِمُ
 بَعْصِرٍ يَفُوتُ الْقَوْتَ فِيهِ مُعِدَّةُ
 وَيُغْدَمُ وَرْدَ الْمَاءِ مَنْ لَا يَزَاحِمُ
 وَقَدْ نَهَضَتْ كُلُّ الْخَوَاطِرِ لِلْعَلَى
 وَزَادَتْ جِيوشًا فِي الصَّدُورِ الشِّكَايِمُ
 فَكُلَّ فَخَارٍ نَاهِلُ الْفِكْرِ حَائِمُ
 لَهُ وَعَلَيْهِ طَائِرُ الذَّهْنِ حَائِمُ

فعزماً بني الأوطان فالجهد واجب
 بذاً وبحول الله فالنصر قادم
 فقد قيض الرحمن فينا ذرائعاً
 وقامت لهذا الفضل فينا دعائم
 ويوم هو المشهور أيامنا به
 مقلدة أجيادنا والمعاصم
 لدى مشهد يستوقف الركب عن ظما
 وتسكن من جفل إليه النعائم
 تناهب فيه الحمد من كل جانب
 كرام صنوف المجد فيهم مقاسم
 بهم رجع الفضل الأصيل لأهله
 وعادت إلى أصحابهن المكارم
 وهل ناجع بالأمر إلا رجاله
 وهل ساجع بالأيك إلا الحمائم
 وهل يتحرى الفضل إلا عميده
 وهل تسكن الآجام إلا الضراغم
 فسقيا لروض للمعارف ناضر
 بها وعليه عارض الفضل ساجم
 لأطياره في العلم شدو وإنما
 به الطائر المحكي في القول جائم^(١)

(١) كان الشيخ محمد عبده مدرّساً في تلك المدرسة .

يَضُوعُ لَهُ فِي الْأَرْضِ عَرَفُ مَعَارِفِ
تَنَاءَ عَلَى عُرْفِ الْخَلِيفَةِ دَائِمُ
سَلَامٌ عَلَى السُّلْطَانِ أَمَّا مَرَامُهُ
فَنَفْعٌ وَأَمَّا شُغْلُهُ فَالْعِظَائِمُ
سَلِيلُ بَنِي عُثْمَانَ أَمَّا جَدَاؤُهُ
فَغِيثٌ وَأَمَّا عَزْمُهُ فَلِهَازِمُ
أَطَاعَ لَهُ الْبَرَّانِ شَرْقٌ وَمَغْرِبُ
وَدَانَتْ لَهُ فِي الْعَدَوَتَيْنِ الْأَنَاسِمُ
لَهُ بَيْنَ أَعْبَاءِ الْخِلَافَةِ فِي الْعُلَى
صَرَائِمُ إِلَّا أَنَّهُنَّ صَوَارِمُ
أَقَامَ أُمُورَ الْعَرْشِ بَعْدَ تَظَاهَرَتْ
عَلَيْهِ خُطُوبٌ لِلظُّهُورِ قَوَاصِمُ
وَقَامَ بِأَمْرِ الْمُلْكِ حَقَّ قِيَامِهِ
يُدْفَعُ عَنْهُ تَارَةً وَيُهَاجِمُ
فَسَدَّ ثُعُورَ الْمُلْكِ بَعْدَ انْثِلَامِهَا
وَجَازَ إِلَى دَارِ الْوَعَى وَهُوَ نَائِمُ
وَأَحْكَمَ إِجْرَاءَ الْعَدَالَةِ فِي الْوَرَى
وَعَمَّتْ لَهُ كُلُّ الْعِبَادِ مَرَاحِمُ
فِيَوْمًا تَرَاهُ وَهُوَ لِلرِّزْقِ قَاسِمُ
وَيَوْمًا نَرَاهُ وَهُوَ لِلخُطْبِ حَاسِمُ
يَسْهَدُ جَفْنًا لَا يَطِيبُ لَهُ الْكَرَى
وَفِي أَرْضِ عُثْمَانَ ظَلِيمٌ وَظَالِمُ

فَلَا زَالَ بَدْرًا نَوْرُهُ مُتَكَامِلٌ
وَعَيْثَا عَلَيْنَا وَدُفُّهُ مُتَرَاكِمٌ
يَعِيدُ لَنَا عِزَّ الْخِلَافَةِ عَهْدُهُ
وَيَغْتَبِطُ الْإِسْلَامُ إِذْ هُوَ سَالِمٌ
تُضِيءُ عَلَى الدُّنْيَا مَطَالِغُ شُكْرِهِ
وَتَعَطِّرُ فِيهِ بِالِدَعَاءِ الْخَوَاتِمُ

وقلت أشكو الزمان

[من الطويل]

مِنَ الدَّهْرِ تَشْكُو أَمْ عَلَى الدَّهْرِ تَعْتَبُ
وَمَا صَاحِبُ الْأَيَّامِ إِلَّا مَعْدَبُ
شَكِيَّ بَلَا قَاضٍ شَجِيَّ بَلَا أَسَى
إِذَا بَاتَ فِي دُنْيَاهُ يَعْتَبُ يَعْتَبُ
يِلَاقِي الْأَسَى فِي صَدْرِهِ كُلَّ مَذْهَبٍ
مَتَى ضَاقَ عَنْهُ فِي الْبَسِيطَةِ مَذْهَبُ
هُوَ الْمَرْءُ فِي كَفِّ الزَّمَانِ مَقْلَبُ
يُقَاسِي عَذَابَ الْمَوْتِ وَالِدَّهْرُ يَلْعَبُ
تَوَلَّدَ فِي الدُّنْيَا حَلِيفُ مَصَائِبِ
فَلَمْ يَغْنِ عَنْهُ حِرْصُهُ وَالتَّجَنُّبُ
يَصَاحِبُهَا وَهِيَ الْعِدَاةُ وَأَنَّهُ
لَخَسَفَ بَأَنَّ تَشْنَا الَّذِي أَنْتَ تَصْحَبُ
إِذَا نَقَصَتْ مِنْ كُلِّ عَزٍّ حُظُوظُهُ
فَأَسْهَمَهُ مِنْ نَكْبَةٍ لَيْسَ تَغْلِبُ

طَرِيدُ لِيَالٍ بَاتَ فِي كَفِّ طَارِدٍ
 وَمَطْلُوبٌ دَهْرٍ عِنْدَ مَنْ هُوَ يَطْلُبُ
 فَبَيْنَا يُسَامُ الْخَسْفُ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ
 إِذَا هُوَ فِي بَطْنِ الصَّرِيحِ مَغِيْبٌ
 فَلَلَّهْ يَا دُنْيَا حَيَاتَكَ كُرْبَةً
 وَفِيكَ غُرَابُ الْبَيْنِ مَا زَالَ يَنْعَبُ
 رَأَيْتِكَ مَحْضَ الْغَشِّ فِي مَحْضِ قَدْرَةٍ
 فَلَا مِنْكَ رَهْبَانٌ وَلَا فِيكَ أَرْغَبُ
 وَإِنِّي وَإِنْ ضَاقَتْ عَلَيَّ مِذَاهِبِي
 لَدَيْكَ فَصَدْرِي مِنْ فَنَائِكَ أَرْحَبُ
 أَرَى بِكَ مِنْ نَكْدِي وَصَبْرِي عَجَائِباً
 وَأَعْجَبُ مِنْ حَالِي وَحَالِكَ أَعْجَبُ
 فَهَلْ فِيكَ ضِيْمٌ مِثْلَ بَعْدِ أَحْبَتِي
 مَضَى ذَلِكَ الْأَمْرُ الَّذِي أَتَهَيَّبُ
 بَكَيْتُ عَلَيْهِ وَانْتَحَبْتُ لِيَالِيَا
 فَلَمْ يَجِدْنِي مَا كُنْتُ أَبْكِي وَأَنْحَبُ
 فَكَمْ لَيْلَةٍ مِنْهَا قَضَيْتُ مَسَامِرَاً
 نَجُومَ السَّمَاءِ طَوْرًا تَضِيءُ وَتَغْرُبُ
 إِلَى جَانِبِ الْوَرْقَاءِ تَنْدُبُ فِي الدُّجَى
 شَجِيئِينَ طَوَّلَ اللَّيْلَ نَشْكُو وَنَنْدُبُ
 تَشَبُّ شَرَارَاتُ الْأَسَى بِتَرَائِبِي
 وَيُطْفِئُهَا مِنْ مَاءِ عَيْنِي صَيِّبُ

وقد كنتُ لا أبغي حُموَدَ صبابتي
 وأزجر طرفي إذ يجفُّ وينضبُ
 بصدري حرُّ الشوق بردُّ يلذ لي
 وعندي وردُ الدَّمعِ واللَّه طيبُ
 أبى الله أن أهوى السَّروَرَ وأنني
 على غير صوت النَّوحِ أشجى وأطربُ
 لئن عذب التَّعذيب لي قبل ذا النوى
 بوجدي فهل بعد النوى ليس يعذبُ
 فيا ليتَ شِعْري هل أَرَى الدَّهْرَ مرَّةً
 لدى غفلةٍ عن نكبتني يتنكبُ
 أليستَ لتصفوَّ منه يوماً سرائرُ
 فيحلَّوْ لي طعم وينساغ مشربُ
 أما تحفظُ الأيامُ مني وقِيعَةً
 وتغضب مني مثلما أنا أغضبُ
 فقد طال وصفي نكدها غير كاذب
 ألا ليتها تسعى بردَّ وأكذبُ
 فتباً لها من مُصمياتِ سهامها
 ولا ينفعُ الإنسانَ منها التَّائبُ
 هي الدُّجنُ أما صاعقاتِ خطوبها
 فَصَدْقٌ وأما البرق منها فخلبُ
 قضى قبلنا الكنديُّ^(١) أحمد حقبةً
 يعنقها في شِعْره ويؤنَّبُ

على أنّها الدنيا إِذَا شِئْتُ وَصَفَهَا
 وَإِنْ لَمْ أَشَأْ تَمَلِّي عَلَيَّ وَأَكْتُبُ
 وَإِنِّي وَإِنْ لَمْ تَحِينِي غَيْرَ صَبُوءٍ
 فَكَمْ نَاشَنِي مِنْهَا إِلَى الْيَوْمِ مَخْلُبُ
 سَأَشْكُرُهَا إِذْ أَنَهَا مُذْ حَدَّثَتْنِي
 لَقَدْ عَوَّدَتْنِي الصَّبَرَ وَهُوَ مُحِبُّ
 وَقَدْ نَجَّدَتْنِي الْحَادِثَاتُ وَأَدَّبَتُ
 وَلَيْسَ كَمِثْلِ الْحَادِثَاتِ مُؤَدِّبُ
 وَلَكِنَّهَا مَنِي تَمَارِسُ شِدَّةٍ
 وَقَدْ عَجَمْتُ عُودِي فَعُودِي أَصْلَبُ
 وَمَا عَدِمْتُ مِنْ شِدَّةٍ وَبِرَاعَةٍ
 وَلَكِنْ مَنْ لَأَقْتُ أَشَدُّ وَأَنْجَبُ
 وَلَكِنَّهُ لَا نَفْعَ فِيهَا لِصَابِرٍ
 إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهَا لِعَمْرُكَ مَهْرَبُ
 مُحَاكِةٌ لِلْبَحْرِ تَعْلُوهُ جِيْفَةٌ
 وَفِيهِ نَفِيسُ الدَّرِّ فِي الْقَعْرِ يَرْسُبُ
 فَيَعْدَمُ فِيهَا الْحِظُّ مَنْ يَسْتَحِقُّهُ
 وَيَحْرُمُ فِيهَا الْكَسْبُ مَنْ يَتَكَسَّبُ
 وَيَحْظَى بِهَا بِالْجَدِّ مَنْ لَا يَرُومُهُ
 وَيُشَوِّى بِهَا بِالسَّهْمِ مَنْ لَا يَصُوبُ
 إِذَا الْحَقُّ لَمْ يُضْبَحْ عَلَى الْكُلِّ سَائِدًا
 فَلَيْسَ لِحَرْفِي الْبَرِيَّةِ مَأْرَبُ

وإنْ عَدِمَ الْحَقَّ الْمُبِينُ نَصِيرُهُ
 فَمَا يَرْضَى بِالْعِيشِ حَرًّا مَهْذَبُ
 وَإِنْ لَمْ تَكُنْ فِينَا عَلَى الْخَيْرِ عُصْبَةٌ
 ففِيمَا سِوَاهُ سَاءَ مَا نَتَعْصَبُ
 فَلَيْسَ بِمَغْنٍ لِلْكَرِيمِ اتِّسَاعُهَا
 إِذَا كَانَ فِيهَا الْحَقُّ كَالْمَالِ يَنْهَبُ
 لَكُمْ بَتْ أَنْضَى هَمِّي لِأَقِيمِهِ
 وَأُظْهِرَهُ فِي بَعْضِ أَمْرِ وَيَحْجُبُ
 فَمَا زَالَ لِلْإِبْصَارِ تَحْتَ سَتَائِرِ
 إِذَا زَالَ عَنْهُ غِيهَبٌ جَنَّ غِيهَبُ
 فَقَدْ قُلْتُ مَا قَدْ قُلْتَ لَا عَنْ مَارِبِ
 أَجَلُ أَنَا مِنْ مِثْلِ ذَاكَ وَأَحْسَبُ
 وَإِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ هُمْ هُمْ
 إِذَا غَابَ مِنْهُمْ كَوَكَبٌ لَأَحَ كَوَكَبُ
 عَتَاقُ الْمَعَالِي قَدْ تَسَامَتْ جُدُودُهُمْ
 عَلَى الشَّمِّ مِمَّنْ أَنْسَلَ الشَّيْخَ يَعْرُبُ
 لَهُمْ نَسَبَةٌ فِي أَقْعَسِ الْمَجْدِ عَرْقُهَا
 لَا مَنْزِلُ فَوْقَ السَّمَاءِ مَطْنَبُ
 وَصَاحِبُهُمْ فِيهَا الْفَصَاحَةُ وَالْحَجِّي
 وَبَذَلَ اللَّهُيَّ وَالْمَشْرِفِيُّ الْمَذْرَبُ
 بِدَوْرٍ إِذَا الْهَامَاتُ بِالْبَيْضِ عَمَّتْ
 لِيَوْتُ إِذَا الْهَامَاتُ بِالْبَيْضِ تَضْرَبُ

بحورٍ إذا الأرزاءُ أَلْقَت جِرَانَهَا
 غِيوَتْ إِذَا الْأَعْوَامُ فِي الْقَوْمِ تَجَدَّبُ
 فَيَا صِلْ حَقَّ بِالْبَيَانِ وَتَارَةً
 فَيَا صِلْ إِذْ دَارَ الْأَصْمُ الْمَكْعَبُ
 لَهُمْ حَسَبٌ يَحْكِي الشَّمْسُ وَضُوحُهُ
 يُزَاحِمُ مِنْهُ مَنَكِبَ الشَّمْسِ مَنَكِبُ
 فَإِنْ كُنْتَ مَنْسُوباً إِلَيْهِمْ فَإِنَّهَا
 إِلَيْهِمْ لَتُعْزَى الْمَكْرَمَاتُ وَتَنْسَبُ
 فَدُونَ انْتِسَابِ الْمَرْءِ لِلْمَجْدِ وَالْعُلَى
 لَعَمْرُكَ لَا يُغْنِيهِ أُمَّ وَلَا أَبُ
 فَمَا دُمْتَ حَيًّا فِي الزَّمَانِ فَلَمْ تَزَلْ
 عَلَيَّ حُقُوقٌ لَيْسَ مِنْهُمْ أَوْجَبُ
 أَهْمٌ بِأَشْيَاءِ كِبَارٍ وَدُونِهَا
 مِنَ الْبُعْدِ فِي ذِي الْحَالِ عِنَقَاءُ مَغْرَبُ
 أَرَى الْفَتْحَ يَدُنُو كُلَّمَا أَنَا سَاكِنٌ
 وَيَبْعُدُ عَنِّي كُلَّمَا أَنَا أَقْرَبُ
 وَقَدْ غَادَرْتُ قَلْبِي الْعَوَارِضُ حَائِراً
 هُوَ الْقَلْبُ مِنْ تِلْكَ الْحَوَادِثِ قَلْبُ
 تَوَارَدَ أَنْوَاعاً كَثِيراً وَكُلَّهَا
 تَوَثَّرَ فِي الْقَلْبِ اللَّطِيفِ وَتَنْشَبُ

وقلت متغزلاً بالحُسن المعنوي مفتخراً بأصحابه

[من الكامل]

مَالِ الصَّبَا بِعَوَاطِفِ التَّشْوَانِ
 مِثْلَ الصَّبَا بِمِعَاطِفِ الْأَغْصَانِ
 وَلَوَى الْغَرَامُ عِنَانَهُ نَحْوَ اللَّوَى
 وَبَدَا الْحَنِينُ لَا بَرْقَ الْحَنَانِ
 وَهَوَى الْهَوَى بِالْقَلْبِ بَيْنَ أَعْقَةِ
 وَمَتَالَعٍ وَمَطَالَعٍ وَرِعَانِ
 فَغَدَا يُرَاوِجُ مِنْ مَعَاهِدِهَا الَّتِي
 فِي نَجْدٍ بَيْنَ مَعَالِمٍ وَمِغَانِ
 يَأْتِي اللَّصَابُ مِنَ الشَّعَابِ وَيَنْتَحِي
 مِنْ مَنْزِلِ الْجَزْعِ سَفُوحَ الْبَانِ
 فِي كُلِّ مُنْعَطَفٍ وَكُلِّ ثَنِيَّةٍ
 يَبْدُو لَهُ شَجَنٌ مِنَ الْأَشْجَانِ
 وَيُحِ الْمَحَبَّ لَقَدْ تَهَتَّكَ فِي الْهَوَى
 فَرَعَاهُ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلَانِ
 أَجْرَى الْعَقِيقَ بِطَرْفِهِ وَبَنَى بِأَوِ
 تَادِ الضُّلُوعِ مَضَارِبَ الْكُثْبَانِ
 صَبَّ أَلَمَ بِهِ الْهَوَى فَمَضَى بِهِ
 لِلْحُسْنِ تَحْتَ أَسِنَّةِ الْخِرْصَانِ
 أَنْذَرْتُهُ سُوءَ الْمَصِيرِ فَقَالَ لِي
 إِنَّ الصَّبَابَةَ عِزَّةُ الْفِثْيَانِ

أَطْلَقْتُ لِلْقَلْبِ الْعِنَانَ فَهَمْتُ لَا
 أَلْوِي وَلَسْتُ لَذَا الْعِنَانَ بِثَانٍ
 لَهْفِي عَلَيْهِ عَدْتُ بِمَهْجَتِهِ الظُّبَا
 حَباً إِلَى حَيْثُ الظُّبَى بِمَكَانٍ
 بَيْنَ الْبَوَارِقِ وَالصُّفُوفِ زَوَاجِفُ
 تَحْتَ الْبَيَارِقِ وَالرِّمَاحِ دَوَانٍ
 طَلَبَ الْمَحَاسِنَ فِي الْخِيَامِ وَدُونَهَا
 ضَرْبُ يَطِيحُ سَوَاعِدَ الشُّجْعَانِ
 وَإِذَا هَوَى نَجْدٌ تَحَكَّمَ فِي فَتَى
 جَعَلَ الرَّدَى فِي حَيْزِ النُّسِيَانِ



هَيْهَاتَ لَيْسَ لِعَاشِقٍ أُمْنِيَّةُ
 يَسْعَى إِلَيْهَا فِي طَرِيقِ أَمَانٍ
 وَإِذَا الْعَوَاسِلُ دُونَ مَعْسُولِ اللَّمَى
 يَزْدَادُ مَعَهَا الْقَلْبُ فِي الْخَفَقَانِ
 وَإِذَا الْخُدُودُ الْقَانِيَاتُ تَعَرَّضَتْ
 لِلْحَبِّ سَالَ لَهَا النُّجَيْعُ الْقَانِي
 وَإِذَا الْأَسْوَدُ وَقَدْ تَرَدَّتْ فِي الْحِمَى
 صَرَعَى أَمَامَ كَوَانِسِ الْغُزْلَانِ
 وَإِذَا رَجَالُ كِتَائِبِ التُّعْمَانِ قَدْ
 ذَلَّتْ لِعَزْ شَقَائِقِ التُّعْمَانِ

وإذا الأعزّ الأيهم الغسان قد
 أمسى رقيق الأهيف الغساني
 حال تطيش بها العقول وربما
 أخبت ذكاء ثواقب الأذهان
 تعيى فؤاد الأحوذى كأنه
 مما أصيب صريع خمر دنان
 ما إن يُقاوم بأسها بطل ولو
 حازت يده عزة العقبان
 تغشى مقاصير العظام ولم تكن
 عنها تعزّ مناسك الرهبان
 عمت فإن فاتت عديم القلب بال
 وجدان ما فاتته بالبرهان
 لكن ما أودى بعذرة حبه
 لم يختلف بشعوره اثنان
 وترى القلوب على المحاسن أقبلت
 مثل الدلاء جذبن بالأشطان
 وترى إلى وصل الحبيب حنينها
 يحكي حنين النجب للأعطان
 كيف الخلاف ولفؤاد تأثر
 بجميع ما مرّت به العينان
 أو كيف لا أهوى الجمال وقد بدا
 من نور ذاك العالم الربّاني

عَيْنُ الْوُجُودِ اللَّامِعِ النُّورِ الَّذِي
 مَا لَاحَ مِثْلَ سَنَاهُ لِلْأَعْيَانِ
 الْعَاقِبُ الْإِكْلِيلُ مُصْبِحُ الْهُدَى
 وَالصَّادِقُ الْمَبْعُوثُ بِالْفُرْقَانِ
 هُوَ أَحْمَدُ الْمَحْمُودُ مَنْ فِي حِلِّهِ
 كَنَفُ الْوُجُودِ تَشْرَفُ الثَّقَلَانِ
 فَاللَّهُ يَشْهَدُ أَنَّ طَهَ الْمُجْتَبَى
 هُوَ خَيْرُ مَنْ سَارَتْ بِهِ قَدَمَانِ
 وَادُّرَّ صَحَابَةُ صَاحِبِ الْمِعْرَاجِ مَنْ
 حَازُوا السَّبَاقَ بِأَوَّلِ الْمِيدَانِ
 الرَّاشِدِينَ الْعَامِلِينَ إِلَى الْهُدَى
 وَالنَّاشِرِينَ شَرِيعَةَ الْقُرْآنِ
 هُمْ عُصْبَةُ الدِّينِ الْحَنِيفِ وَشِيعَةُ الشَّ
 رِعِ الشَّرِيفِ وَفَتِيَّةُ الْإِيمَانِ
 تَلَقَّى أَبَا بَكْرٍ بِصَدْرِهِمْ أَنْبَرَى
 يَهْدِي الْأُلَى رَجَعُوا إِلَى الْكُفْرَانِ
 وَتَرَى أَبَا حَفْصٍ يَقِيمُ الْمَسْجِدَ الـ
 أَقْصَى بِهِمَّتِهِ عَلَى أَزْكَانِ
 يَرْمِي الْمَمَالِكَ بِالْجِيُوشِ وَقَدْ غَدَتْ
 فِي قَبْضَتِيهِ شَوَاسِعُ الْبُلْدَانِ
 ضَرَبَ الْقِيَاصِرَةَ الْعِظَامَ بِصَارِمِ
 أَنْسَى الْبَرِيَّةَ «سَيْفٌ» فِي غَمْدَانِ

فَعَنْتَ لَهُ بِالرَّغْمِ شَمَّ أَنْوْفَهُمْ
 وَخَلَا لَهُ كِسْرَى مِنْ الْإِيوَانِ
 وَأَبَادَ فَارَسَ سَيْفِ سَعْدٍ وَأَذْعَنْتَ
 مِصْرَ لَعَمْرَوْ أَيْمًا إِذْعَانِ
 وَقَضَى إِلَهَ عِلَاءَ ذَاذَةِ دِينِهِ
 بِالنَّصْرِ وَالْجَيْشَانِ يَلْتَقِيَانِ
 فَالْهَذِي فِيهِمْ ضَارِبٌ أَطْنَابُهُ
 وَالْحَقُّ مَلَقٌ فِي الْوَرَى بِجِرَانِ
 وَالْدَيْنُ تَعْصُفٌ بِالْمَمَالِكِ رِيحُهُ
 عَمَّا يُزَلُّ مَوَاقِفَ الْبُهْتَانِ
 بِجِهَادِ قَوْمٍ أَصْبَحَتْ أَعْمَالُهُمْ
 أَبْدًا بِجِيدِ الدَّهْرِ عَقْدَ جَمَانِ
 فِيهِمْ أَبُو الْحَسَنِ صَفْحَةُ سَيْفِهِ
 فَجَرُّ يَنْوَرٍ لَيْلَ كُلِّ طَعَانِ
 قَدْ كَانَ لَيْثٌ عَرِينَةٌ وَفَوَادُهُ
 بِحَقَائِقِ الْأَكْوَانِ بَحْرَ مَعَانِ
 وَافَى مَنَازِلَ فِي الْعُلُومِ تَقَطَّعَتْ
 عَنْ دَرْكِهِنَّ نِيَاطُ كُلِّ جَنَانِ
 فَلَكُمْ حَوْثٌ تِلْكَ الصَّحَابَةُ سَادَةٌ
 غَرًّا مِنَ الْأَنْصَارِ وَالْأَعْوَانِ
 صَرَفُوا إِلَى الْأَرْوَاحِ جَلَّ عَنَائِهِمْ
 وَتَجَانَّفُوا عَنْ خِدْمَةِ الْأَبْدَانِ

أَسْيَافُ حَقٍّ بِالْهَدَايَةِ قَطَعَتْ
بَيْنَ الْعِبَادِ هَوَادِي الْأَوْثَانِ
حَقَّ الْفَخَّارِ بِهِمْ لِكُلِّ مَوْحِدٍ
لثَبُوتِ مَجْدِهِمْ بِكُلِّ أَوَانٍ
فَاذْكُرْ فُتُوحَاتِ الْعُقُولِ بِرَشْدِهِمْ
تَهْدِي لِحَقِّ الْعِلْمِ وَالْعُرْفَانِ
وَإِذْكُرْ لَهُمْ فَتْحَ الْمَمَالِكِ فِي الْوَرَى
مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ وَكُلِّ لِسَانٍ
مِنْ مَشْرِقٍ ذَاقَ التَّكَالِ وَمَغْرِبٍ
طَلَعَتْ عَلَيْهِ كَوَاكِبُ الْفُرْسَانِ
هُمْ قُدُوءٌ لِلْعَالَمِينَ بِهَا اهْتَدَى
شَمَّ الْمَعَاطِسِ فِي أُولِي السُّلْطَانِ
أَهْلُ الْخِلَافَةِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ مِنْ
بَعْدِ الْخَلَائِفِ مِنْ بَنِي مَرْوَانَ
بَلَّغُوا جِدَارَ الصِّينِ مِنْ جِهَةٍ وَمِنْ
أُخْرَى تَخَطَّوْا شَاهِقَ الْبِيرَانِ
وَتَرَى حِذَاءَ فُرُوقٍ وَقَعَ سُيُوفُهُمْ
وَتَجَاوَبَ الْأَصْدَاءُ فِي السُّودَانِ
وَالْغَزَنَوِيَّةُ يُوغِلُونَ بِزَحْفِهِمْ
فِي السَّنْدِ آوَنَةً وَهِنْدِ سَتَانِ
وَبَنُو أُمَيَّةٍ فِي الْجَزِيرَةِ حَكُمُوا
أَمْضَى طُبَاهُمْ فِي ذَوِي التَّيْجَانِ

وانظر بني أيوب لما أعملوا
 في المعتدين عواسل المران
 وصالح دين الله أنزل بطشه
 بالقوم في حطين كل هوان
 ولواء يوسف تاشفين بمغرب
 حرث له الأعداء للأذقان
 ثم السلاجقة العظام وإثرهم
 أصوات ضرب الصيلم العثماني
 سيف الصناديد المساعير المغا
 وير القروم المعشر الغران
 ما كان ينضى في وعى إلا ملاً الد
 نيا برعب صليله الرنان
 سل عنه عثمان القديم وإن تمل
 لزيادة فاعطف على أرخان
 وانظر مراد وبا يزيد بغربه
 قادا الأعادي كلها بعيران
 وارمق أبا الفتح الأعز محمداً
 أحنى على جرثومة الرومان
 في مازق والجانبان تصادما
 وتقابل البران والبحران
 والخيل باشرت البحار فردّها الـ
 فُرسان فامتنت على الأرسان

والبيضُ تَخْطُبُ في الرؤوسِ رواكعاً
 طَوُوراً وتَنْطِقُ ألسُنُ النَّيرانِ
 حَتَّى تَصَاغِرَ الْبِلَادُ لِأَمْرِهِ
 وَاسْتَسَلَمَتْ لِيَدَيْهِ مِثْلَ الْعَانِي
 وَغَدَا سَلِيمٌ رَبُّ كُلِّ أَيْالَةٍ
 فِي الشَّرْقِ مُحْمِياً بِهِ الْحَرَمَانِ
 وَأَتَى سُلَيْمَانُ الزَّمَانَ بِفِيلِقِ
 خَضَعَتْ لَهُ الْأَفلاكُ فِي الدُّورَانِ
 مَادَتْ لِهَيْبَتِهِ الْبَسِيطَةُ مَيْدَةً
 لَمْ تَبْقَ مِنْ أَحَدٍ وَمِنْ ثَهْلَانِ
 وَسَعَتْ عِزَائِمُهُ الزَّمَانَ وَقَائِعاً
 مِنْ كُلِّ حَرْبٍ فِي الْعِدَاةِ عَوَانِ
 تَفْدِي بَنِي عِثْمَانَ كُلَّ قَبِيلَةٍ
 فِي الْأَرْضِ أَبْرَزُهَا لَنَا الْعَصْرَانِ
 حَمَلُوا الْخِلَافَةَ وَالْبِلَادَ طَرَائِقَ
 فِي كَفِّ أَهْلِ الْبَغْيِ وَالْعِصْيَانِ
 فَغَدَتْ وَقَدْ صَارَتْ لَهُمْ أَطْرَافُهَا
 تِيهًا تَجْرُ ضَوَافِي الْأُرْدَانِ
 وَلَهُمْ بِهَا الْعَدْلُ الَّذِي أَبْدَى لَنَا
 كَيْفَ اسْتَوَاءَ الشَّاةِ وَالسَّرْحَانِ
 حَقٌّ إِذَا مَا أَمَّنُوا فِيهِ الْوَرَى
 رَدُّوا غِرَارَهُمْ إِلَى الْأَجْفَانِ

فِيمِثْلِهِمْ فَلْنَفْتَحْزُ وَبِهِدِيهِمْ
فَلْنَهْدِ بَعْدَ تَقَاعُدٍ وَتَوَانٍ
فِي السَّالِفِينَ مِنَ الْأَفَاضِلِ عِبْرَةً
تَجْلُو الْمِرَاءَ بِأَقْصَرِ الْأَمْعَانِ
فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ بَرَاذِخِهِمْ لَنَا
دَاعٍ يَنْبَهُ خَاطِرَ الْعَفْلَانِ
أَوْ لَا نَجِيبُ وَنَحْنُ أَحْيَا فِي الْوَرَى
يَوْمًا نَدَا الْأَجْنَانَ فِي الْأَجْنَانِ
إِنْ نَعْتَذِرُ بِزَمَانِنَا وَطِبَاعِهِ
فَهِيَ الْعَوَارِضُ لَمْ تَخْصَّ بَانَ
إِنْ الْمِبَادِيءَ لَا تَزَالُ فَوَاعِلًا
مَا بَيْنَ مَا يَتَعَاقَبُ الْمَلَوَانِ
فِيهَا يَكُونُ إِلَى الْحَصُولِ تَوَسُّلٌ
وَبِدُونِ ذَلِكَ عِلَّةُ الْحَرَمَانِ
يَغْدُو الزَّمَانُ بِهَا عَلَى أَحْوَالِهِ
بِالنَّاسِ مِنْ زَيْدٍ وَمِنْ نُقْصَانِ
وَالْعَقْلُ لَا يَعْنُو لِحَالَاتٍ إِذَا
مَا شَاءَ أَوْقَعَهَا بِحَالٍ تَفَانٍ
وَإِذَا تَحَصَّلَتِ الشَّجَاعَةُ لَمْ تَكُنْ
عِنْدَ الْمُحَصَّلِ غَايَةَ الْإِمْكَانِ
فَلْنَعْمَلَنَّ فَالرَّأْيُ فِي نَيْلِ الْمُئْتَى
هُوَ أَوَّلُ وَهِيَ الْمَحَلُّ الثَّانِي

وقلت مفتخراً بالسلف

[من الطويل]

أقلُّ عذابي ما تصابُ مَقَاتلي
وأضيعُ نصحي ما تقولُ عواذلي
وأسعرُ ناري ما تكنُ جوانحي
وأهدأُ حالي ما تهيجُ بلابلي
تفيضُ دموعي كلما لآحَ بارقُ
وتطربُ من مرِّ النَّسيمِ شمائلي
وإنني لتشجُّوني الحمائمُ إن شدتْ
على عَذَبَاتِ البانِ عندَ الأصائلِ
سَواجِعُ بالشَّكْوَى يُنْحَنَ على النَّوى
نواعِمُ لا يعرفُنَّ غيرَ الخمائلِ
يبكِّينَ أوقاتِ الصِّفاءِ التي خَلَتْ
وأبكي لأيامِ الصِّباءِ الرواحلِ
وإنني لصبُّ لم أزلُ أندبُ اللَّقا
بدمعِ طويلِ الذَّيلِ هَامٍ وهَامِلِ
حنيني إلى عهدِ الوصالِ وأهلِهِ
وسُهدي على هَجَرِ الخليطِ المزايلِ
ولكنَّه قد دَمَّتِ الحبَّ مهجتي
ورَوَّقَ أعناتِ العَرَامِ مناهلي
تفرَّدتُ في طَبَعِ إلى الحبِّ نازعِ
وقَلْبُ على حُكْمِ الصَّبَابَةِ نازلِ

فيطربني همسُ القصائر في الحمى
 ويعجبني في الرمل هدى المطافلِ
 وأهوى لحاظ العين معسولة اللَّمى
 وأعشق ربات الخُصُور النواحلِ
 وأختال في غي الهوى غير عابىءٍ
 وأمرح في بذخ الصبا غير سائلِ
 وإنني ليجري في جناني هوى الحمى
 وحبّ الدمي مجرى الدما في مفاصلي
 فيا ظبية الكُثبانِ حُسْنُكِ فاتني
 ويا غادة الجرعاء حبك قاتلي
 ويا هذه الأعطافُ رُمحك طاعني
 ويا هذه الألحاطُ سحرُكِ بابلي
 ويا عاذلي أقصر فلست بوازعي
 أطلت بتعنيفي على غير طائلِ
 سَأْمَنْعُ عَنْ عَيْنِي لِأَجْلِكَ نَوْمَهَا
 وَأَقْسُمُ مَا تَبْكِيهِ بَيْنَ الْمَنَازِلِ
 وَأَجْرِي بِمُضْمَارِ الْهَوَى مَتَهْتِكاً
 أَجْرَرُ فِي شَوَاطِي فُضُولِ الْغَلَائِلِ
 لِأَعْشَقَ حَتَّى لَيْسَ لِي مِنْ مُعَادِلِ
 وَأَكْلِفُ حَتَّى لَيْسَ لِي مِنْ مِمَاثِلِ
 وَأَرْهُنُ هَذَا الْقَلْبَ لِلْغَيْدِ وَالْمَهَا
 وَأَجْعَلُ هَذَا الْعَقْلَ مَهْرَ الْعَقَائِلِ

وما الحبُّ إلَّا خُلْتُ كُلَّ مَهْدَبٍ
وما الوجدُ إلَّا شَأْنُ كُلِّ حَلاَحِلٍ
وما الحُسْنُ إلَّا دُونُ كُلِّ عَرِينَةٍ
وما الوضْلُ إلَّا فِي مَجَالِ الْعَوَائِلِ
إِذَا كُلُّ طَرْفٍ ذَابِلٍ عِنْدَ ذَابِلٍ
وَكُلُّ قِوَامٍ عَاسِلٍ دُونِ عَاسِلٍ
تَجُولُ جِيَادُ الْخَيْلِ فِي كُلِّ عَرَصَةٍ
وَأَنْضِي إِلَيْهَا كُلَّ يَوْمٍ رَوَاحِلِي
وَتَحْمِي سَيْوْفُ الْهِنْدِ عَنْ كُلِّ كَلَةٍ
لَقَدْ طَالَمَا عَلِقْتُ فِيهَا حَمَائِلِي
أَزُورُ خِيَامَ الرُّبْعِ غَيْرَ مُوَارِبٍ
وَأَغْشَى دِيَارَ الْحَيِّ غَيْرَ مَخَاتِلٍ
وَإِنِّي مِنَ الشَّعْبِ الَّذِينَ إِذَا سَعَوْا
يَجْلُونَ قَدْرًا عَنْ حَوُولِ الْحَوَائِلِ
أَلَمْ تَرَهُمْ بِالْأَمْسِ حَزْمًا وَقَوَّةً
مَفَاعِيلُهُمْ فِي الْأَمْرِ قَبْلَ الْمُقَاوِلِ
فَمَا آجِلٌ يَرْجُوْنَهُ غَيْرَ عَاجِلٍ
وَمَا عَاجِلٌ يَأْبُوْنَهُ غَيْرَ آجِلٍ
لَقَدْ خَيَّبُوا آمَالَ كُلِّ مُعَارِضٍ
وَقَدْ زَلْزَلُوا أَقْدَامَ كُلِّ مُنَازِلٍ
بِشُّقْرِ سَرَاحِيْبٍ وَسُمْرِ ذَوَابِلٍ
وَبَيْضِ أَصَالِيْتٍ وَصُفْرِ عِيَاطِلٍ

غَدَاةِ بِلَادِ النَّاسِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا
 اطلُّوا على أَقْطَارِهَا بِالْجَحَافِلِ
 لَقَدْ ذَكَّدَكُمُوهَا الْأَجْبَالَ فِيهَا وَشَيَّدُوا
 سِوَاهُنَّ شِمًّا مِنْ غِبَارِ الْقَسَاطِلِ
 سَقَوْا تَرَبَّةَ الْأَرْضَيْنِ سَهْلًا وَمَرْقَبًا
 مِنْ الدَّمِّ بِالْأَنْهَارِ لَا بِالْجَدَاوِلِ
 أَطَارُوا قُلُوبَ الْكَاشِحِينَ وَأَرْقَصُوا
 فَرَائِصَهُمْ مِنْ كُلِّ حَافٍ وَنَاعِلِ
 وَقَدْ سَحَقُوا بِطُشَاءِ رُؤُوسِ عِدَاتِهِمْ
 وَقَدْ نَزَلُوهُمْ مِنْ رُؤُوسِ الْمَعَاوِلِ
 فَمَا زَالَ مِنْهُمْ بَاخِعًا كُلَّ عَامِلٍ
 وَمَا زَالَ فِيهِمْ عَامِلًا كُلَّ عَامِلٍ
 إِلَى أَنْ وَلَّوْا بِالسَّيْفِ أَقْصَى بِلَادِهِمْ
 فَلَمْ يَدْعُوا فِيهَا مَجَالًا لَجَائِلِ
 فَهُمْ خَيْرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ سَلُّوا صَوَارِمًا
 وَقَادُوا عِتَاقَ الْخَيْلِ قَبَّ الْأَيَاطِلِ
 وَهُمْ خَيْرُ مَنْ ضَمُّوا الْيَرَاعَ إِلَى الْقَنَا
 وَهُمْ خَيْرُ حَدٍّ بَيْنَ حَقٍّ وَبَاطِلِ
 لَقَدْ نَشَرُوا الْعِلْمَ الْحَقِيقِيَّ فِي الْوَرَى
 عَلَى حِينِ تَغْلِي الْحَرْبِ عَلَيِ الْمَرَاوِلِ
 وَقَدْ خَطَبُوا فِي الْأَرْضِ بِالْحَقِّ مِنْ عَلَى
 مَنَابِرِ عِزٍّ مِنْ مُتُونِ الصَّوَاهِلِ

أَزَالُوا سَفَاهَاتِ الشُّعُوبِ وَقَابَلُوا
سَفَاسِفَهُمْ بِالْمَكْرُمَاتِ الْجَلَائِلِ
وَشَادُوا عَلَى تِلْكَ الرُّسُومِ حَضَارَةً
أُقِيمَتْ عَلَى أَسِّ التُّقَى وَالْفَضَائِلِ
فَأُضْبَحَ مِنْهُمْ عَامراً كُلَّ غَامِرٍ
وَأُضْحَى لَدِيهِمْ مَمَرَّ عَا كُلِّ قَاحِلِ
زَهَا وَنَمَا نَبْتُ الْوَشِيحِ بِأَرْضِهِمْ
وَفِي مُدُنِهِمْ زَادَتْ فَنُونُ الصِّيَاقِلِ
أُولَئِكَ آبَائِي فَجِئَنِي بِمِثْلِهِمْ
وِإِلَّا فَهُمْ فِي الْأَرْضِ خَيْرُ الْقَبَائِلِ
رِجَالٌ لَدِيهِمْ رَاقٌ جَمْعُ مَنَاقِبِ
عَفَافٍ وَإُقْدَامٍ وَحَزْمٍ وَنَائِلِ
بُدُورٍ بِآفَاقِ الزَّمَانِ أَوَافِلُ
نَحْيِي عَلَى تِلْكَ الْبُدُورِ الْآوَافِلِ
أَقَامُوا زَمَاناً ثُمَّ مَرَّ عَلَيْهِمْ
عَتَوُ الدَّوَاهِي وَاللِّيَالِي الدَّوَائِلِ
زَمَاناً قَضَوْهُ بِالْعَلَاءِ وَلَمْ تَكُنْ
لِيَالِي عُلَاهُمْ بِاللِّيَالِي الْقَلَائِلِ
كَذَلِكَ قَدْ كَانَتْ أَوَائِلُ قَوْمِنَا
أَلَا لَيْتَنَا نَبْنِي بِنَاءَ الْأَوَائِلِ
وَنَحْيِي رُسُوماً غَادَرُوا لَاعْتِبَارِنَا
فَأُضْبَحَ مِنْهَا دَارِساً كُلَّ مَائِلِ

أما نحن من حازُوا الغنى بعقولهم
وجادُوا على كلِّ الورى بالفواضلِ
وقدْ كانَ مِنَّا كلُّ نذْبٍ مجرَّبٍ
بنورِ الحِجَى جالٍ دياجي المعاضلِ
وكلُّ همامٍ مشبَّعِ الحِجَرِ راشدٍ
موفقٍ آراءٍ دليلٍ مجاهلِ
وكلُّ إمامٍ كالغزالي وهو مَنْ
إذا قالَ لم يتركْ مجالاً لقائلِ
وكلُّ حكيمٍ كالرئيسِ الذي جرى
وخلَّى أرسطو خَلْفَه بمراحلِ
وكلُّ أريبٍ كابنِ رُشدٍ ومَنْ على
هُدَاهُ وكالرازي نَدَّ الأوائِلِ
فبالشرقِ مِنَّا كالرَّشيدِ وقومه
وبالغربِ مِنَّا ناصِرٌ بعد داخلٍ ^(١)
ولا تَنسَ في وادي الفراتِ وجَلَقَ
في مصرَ آثارُ الصَّلاحِ وعادلٍ ^(٢)
ولا سَادَة مِنْهُمْ مُحَمَّدٌ ^(٣) جاعِلِ
بقبضَتِهِ البَرِّينِ دونَ مُطاولِ

(١) عبد الرحمن الناصر الأموي بعد جده عبد الرحمن الداخل .

(٢) صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقبله نور الدين زنكي الملقب بالملك العادل .

(٣) محمد الفاتح العثماني .

لَعَمْرِي إِذَا نَدَّرِي الْأُمُورَ فَإِنَّمَا
 زَوَالَ الْعِنَا بَيْنَ الْقَنَّا وَالْقَنَابِلِ
 وَغَرَّ الْعُلَى فَوْقَ الْعَوَالِي دَوَامِيَاً
 وَنِيلَ الْمُنى دُونَ الْمُنى وَالْمَنَاصِلِ
 لِنِعْمَ نِدَاءِ الْحَرْبِ فِي كُلِّ أُمَةٍ
 أَنَاخَ عَلَيْهَا دَهْرُهَا بِالْكَالِكِلِ
 لِيَنْشُرَ مَنْ أَكْفَانَهُ كُلِّ مَيِّتٍ
 وَيُوقِظَ مَنْ تَهْوِيْمِهِ كُلِّ غَافِلٍ
 فَذَلِكَ أَمْرٌ لَا يَزَالُ مُجَدِّدَاً
 نَشَاهِدُهُ فَلْيَذْكُرَنَّ كُلُّ ذَاهِلٍ
 إِذَا ضَاقَ عَنْهُ النَّثْرُ فَالْبَحْرُ وَاسِعٌ
 بَنَّا وَالْقَوَافِي رَافِدَاتُ الْفَوَاصِلِ

وكتبت إلى السيد جمال الدين الأفغاني رحمه الله

[من الخفيف]

يَا جَمَالَ الْإِسْلَامِ وَالْإِسْلَامُ
 صَدَّهُ عَنْ هَوَى الْجَمَالِ الْمُلَامُ
 مَثَلَمَا أَنتَ فِي الْحَيَاةِ وَإِلَّا
 فَحَيَاةُ الْمَتَى عَلَيْهِ حَرَامُ
 هَكَذَا إِنْ يَصِحَّ فِي الْأَرْضِ مُجَدُّ
 دُونَهُ كُلِّ مَا نَرَى أَوْهَامُ
 هِمَمٌ دُونَهَا الْكَوَائِبُ مَثَوَى
 وَمَضَاءٌ مَنْ دُونَهُ الْأَيَّامُ

قَاذِفَاتٌ عَلَى الْمَصَاعِبِ عِزْمًا
 لَوْ تَبَدَّى تَدَكُّدُكَ الْأَعْلَامُ
 مِثْلُ هَذَا حَوِيَتْ يَا رَجُلَ الْأَرْ
 ضِ فَمَاذَا عَسَى يَدُلُّ الْكَلَامُ
 لَمْ تَزَلْ تَحْرِزُ الْمَحَامِدَ حَتَّى
 كُلَّ حَمْدٍ لَهُ عَلَيْكَ ذِمَامُ
 أَنْتَ فَرُدُّ فِيمَا شَمَلْتَ وَلَكِنْ
 فِي اقْتِدَارِ الْجَنَانِ أَنْتَ لَهُامُ
 لَكَ نَفْسُ الْأَمَلِكِ فِي عَرَّةِ الْأَفْ
 سَاكِ فِي جُودٍ مِنْ يَدَاهِ الْغَمَامُ
 لَكَ طَبْعُ سَامٍ، وَوَجْهُ وَسِيمٍ
 أَذْبَرَ الظُّلُمَ مِنْهُمَا وَالظَّلَامُ
 وَرُمُوزُ مَلَأَ الْحَقَائِقِ طَرًّا
 وَعُلُومٌ فَوْقَ الْعُلَى أَعْلَامُ
 وَيَرَاعُ كَالْغَيْثِ مِنْهُ أَنْسَكَابُ
 وَذَكَاءُ كَالنَّارِ فِيهَا ضِرَامُ
 وَمَعَانٍ لَوْ أُوجِيَتْ لِحِمَادٍ
 هَزَّةُ الشَّقِيقِ نَحْوَهَا وَالْعَرَامُ
 حَيَّرْتُ كُلَّ ذِي حَصَاةٍ إِلَى أَنْ
 قِيلَ لَا شَكَّ أَنَّهَا إِلَهَامُ
 كُلُّ هَذَا حَوَى الْجَمَالَ وَأَوْفَى
 يَا جَمَالَ الدُّنْيَا عَلَيْكَ السَّلَامُ

كُلَّ حَيٍّ لَمْ يَحْذُ فَضْلَكَ حَذَوًا
 كُلَّ سَاعَاتِ عُمْرِهِ آثَامُ
 فَلَْتَطَاوُلُ بِكَ الْكَوَإِكِبُ وَلَيْفَ
 حَزْرُ بَعْلِيَاكَ آدَمُ لَا سَامُ
 وَنَجِبُ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ وَإِلَّا
 فَلَحَقَّ النُّفُوسِ مِنَّا اهْتِضَامُ
 كُلُّ نَفْسٍ قَضْدُ الْفَلَاحِ عَلَيْهَا
 طَلَقًا لَيْسَ تَخْلُقُ الْآنَامُ
 وَقَبِيحٌ يَا نَفْسُ قَوْلُكَ هَذَا
 فَوْقَ هَمَى وَقْوَةٍ لَا تُضَامُ
 أَبَدَعَ اللَّهُ فِي الْعِبَادِ أُمُورًا
 وَعَلَيْهَا عَلَيْهِمُ الْإِقْدَامُ
 حَسْبُنَا اللَّهُ مِنْ وَكِيلٍ وَلَكِنْ
 لِنَقْلُ مِثْلَ ذَا وَنَحْنُ قِيَامُ
 دُونَ نَيْلِ الْعُلَى رُبَّى وَوَهَادُ
 لَا نَنَالُ الْعُلَى وَنَحْنُ نِيَامُ
 نَطْلُبُ الْمَجْدَ مِنْ سِوَانَا وَلَكِنْ
 لَمْ يَسُوِّدْ عِصَامُ إِلَّا عِصَامُ
 يَا زَمَانًا أَتَى بِكُلِّ عَجِيبٍ
 أَيُّ يَوْمٍ كُنَّا وَخَسَفْنَا نَسَامُ
 جِيءَ بِمَا شِئْتَ يَا زَمَانُ غَرِيبًا
 وَتَحَكَّمْ إِذْ أَنْتَ لَسْتَ تُلَامُ

إِن أَمْرًا أَصْحَابُهُ تَرَكَوْهُ
 بَعْدَ مَا أَفْطَرُوا عَلَيْهِ وَصَامُوا
 فَعَدَّوْا مِثْلَمَا جُعِلَتْ وَمَا كَا
 نَ إِلَهِي مَغِيرًا لَوْ دَامُوا
 يَا جَمَالَ الْإِسْلَامِ إِنِّي أَمْرُؤُ مِمَّنْ
 مِنْ عَلَيْهِمُ اللَّهُ ضَاقَ الْكِظَامُ
 عَبَثًا يَجْهَزُ الزَّمَانُ عَلَيْنَا
 «مَا لَجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيْلَامُ»
 لَيْسَ يَخْلُو الزَّمَانُ يَوْمًا مِنَ الْعَبْ
 رَةِ لَكِنْ قَدْ شَلَّتِ الْأَفْهَامُ
 حَالَةً عَنْ فِصَالِ أَمْثَالِهَا الْأَيَّ
 َامِ قَدْ مَسَّهَا الْعَمْرِي الْعَقَامُ
 مِنْكَ يُرْجَى يَا سَيِّدِي يَا جَمَالَ الدِّ
 يْنِ وَضَلُّ الْجَبَالِ وَهِيَ رِمَامُ
 أَنْتَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي دِينِهِمْ حَجَّةٌ
 هُتَّةٌ حَقٌّ لْغَيْرِهِمْ إِلْزَامُ
 عَطْفِ النَّفْسِ مَا اسْتَطَعْتَ عَلَيْنَا
 نَحْنُ لَوْلَاكَ فِي الْوَرَى أَيْتَامُ
 مَا شَكَّكُنَا فِي أَنْ تَنَالَ الْأَمَانِي
 سَيِّدُ أَنْتَ وَالزَّمَانُ غُلَامُ
 مَا عَجِبْنَا لِلْفَرَسِ إِذْ بَصْنِيعِ الدِّ
 وَلَةِ الْيَوْمِ حَقَّكَ الْإِعْظَامُ^(١)

(١) كان هذا في أول ذهابه إلى إيران قبل أن ينكبه فيها الشاه ناصر الدين .

اظْهِرِ الْيَوْمَ يَا مُحَمَّدُ وَابْهَرِ
 أَنْتَ فِي الْمَشْرِقَيْنِ بَدْرَ تَمَامٍ
 وَتَغْلِبْ عَلَى الْعَوَائِقِ وَاجْعَلْ
 كُلَّ مَا لَا يُرَامُ مِمَّا يُرَامُ
 قَاطِعُ رَأْيِكَ الْمَسْدَدِ فِي الدَّهْرِ
 رِ الذِّي لَيْسَ يَقْطَعُ الصَّمْصَمُ
 فِيكَ يَأْتِي الْقَرِيضُ مُنْتَظِمًا عَفْ
 وَأَوْ تَنْسَابُ وَحْدَهَا الْأَقْلَامُ
 ذَا مَجَالٍ أَنْ تَجْتَنِبَهُ خَنَاذِيرُ
 ذِ الْقَوَافِي فَإِنِّي الضَّرْعَامُ
 فَامْهَرِ الْيَوْمَ مَا زَفَفْتَ قُبُولًا
 يَا جَمَالًا أَنَا بِهِ مُسْتَهَامُ
 خَدَمَ الدَّهْرُ بَابَ عَزَّكَ بِالْإِخْ
 صَاصٍ مَا وَاصَلَ افْتِتَاحًا خَتَامُ

وَقَلْتُ وَكُتِبَتْ بِهَا إِلَى الْأَسْتَاذِ الْإِمَامِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ عَبْدِ

[من الطويل]

لِقَلْبِي مَا تَهْمِي الْعَيُونُ وَتَأْرُقُ
 وَلِلْعَيْنِ مَا يَبْلَى الْفَوَادُ وَيَرْهَقُ
 وَمَا كُنْتُ مِمَّنْ يَرْهَقُ الْعَشْقُ قَلْبَهُ
 وَلَكِنْ مِنْ يَذْرِي فُنُونَكَ يَعْشَقُ
 وَمَا كُنْتُ مِمَّنْ يَرشُقُ السَّهْمَ لِحُظَّهُ
 فِيْهَوِي لِذَا لَكِنْ يَرَاْعُكَ أَشِيْقُ

أصْبَتْ بِهِ كُلَّ الْقُلُوبِ وَإِنَّهُ
لِيَنْضَحُهَا بِالنَّبْلِ قَبْلُ يَفُوقُ
تَرَكْتَ الْوَرَى أَسْرَى هَوَاكَ وَإِنَّمَا
أَسِيرُكَ فِي مَيْدَانِ فَضْلِكَ مَطْلُقُ
لَدَيْكَ اسْتَرْقَتْهُمْ مِنَ الطَّبْعِ رَقَّةٌ
فَأَنْتَ لَهُمْ حَقٌّ رَقِيقٌ وَمَعْتَقُ
جَذَبْتَ بِهَاتِيكَ الْمَعَانِي قُلُوبَهُمْ
وَتَيَّمَهَا وَاللَّهِ ذَاكَ التَّائِقُ
كَالَامٍ إِذَا أَلْقَيْتَهُ فِي جَمَاعَةٍ
عَدَا مِنْكَ مِثْلُ اللَّوْلُؤِ الرُّطْبِ يَنْسَقُ
عَلَيْهِ مِنَ النُّورِ الْإِلَهِيِّ مَسْحَةٌ
تَكَادُ عَلَى أَرْجَائِهِ تَتَأَلَّقُ
مَنَاهِلُ الطَّافِ وَأَعْيُنُ حِكْمَةٍ
تَظَلُّ عَلَى رَوْضِ الْمَعَارِفِ تَغْدُقُ
يَبِيتُ بِهَا غُضْنُ الْبَلَاغَةِ نَاضِرًا
وَرِيقًا عَلَى نَبْتِ الْفَصَاحَةِ يَسْمُقُ
سَلَامٌ عَلَى وَجْهِ الْإِمَامِ مُحَمَّدٍ
مَحْيَا بِهِ مَاءُ الْحَيَا يَتَرَفَّرُ
وَاللَّهِ دُرُّ الْبَحْرِ دُرُّ مُحَمَّدٍ
تَتَوَجُّ مِنْهُ لِلْمَعَارِفِ مَفْرُقُ
وَأَخْلَاقُهُ الْغَرَّا إِذَا شَتَّتْ وَصَفَهَا
وَإِنْ لَمْ أَشَأْ تُوحَى إِلَيَّ وَأَنْطَقُ

إِمَامٌ بِخَصْلِ الْعَقْلِ وَالتَّقْلِ فَائِزٌ
 سَبَقَ لَغَايَاتِ حَكِيمٍ مُحَقِّقُ
 إِذَا مَا انْبَرَى فِي حَلْبَةِ الْفَضْلِ قَصُرَتْ
 حَوَالِي مَدَاهُ حِيلَةٍ هُنَّ سَبَقُ
 خَطِيبُ الْوَرَى بِالْحَقِّ لِلْحَقِّ مَظْهَرُ
 ظَهِيرٌ وَلِلْبُطْلَانِ مَرْدٌ وَمَزْهَقُ
 إِذَا قَامَ مِنْ فَوْقِ الْمَنَابِرِ فَاصِلًا
 فَأَيُّ ضَالٍّ لَيْسَ يُمَحَى وَيُمَحَقُ
 تَمِيدُ الْوَرَى عِنْدَ اسْتِمَاعِ خُطَابِهِ
 وَتَعَجُّبُ لَلْأَعْوَادِ إِذْ لَيْسَ تُورَقُ
 فَمَا قَامَ بِالْحَقِّ الْحَنِيفِيَّ صَادِعًا
 وَلِلْفِكْرِ شَمْلٌ بَاتَ لَيْسَ يَمْزَقُ
 لَهُ الْقَلَمُ الْمَشْهُورُ يَزْرِي مَدَادُهُ
 بَتْبَرٍ إِذَا فِي مَهْرَقٍ هُوَ مُهْرَقُ
 عَجَائِبُ مَوْلَى فِي مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ
 وَرَبِّكَ يَعْطِي مَا يَشَاءُ وَيَرْزُقُ
 لَكَ اللَّهُ يَا مَوْلَايَ هَلْ مِنْ فَضِيلَةٍ
 بِهِذَا الْوَرَى إِلَّا بِهَا أَنْتَ الْيَقُ

ومنها :

وَفِي أَمَلٍ أَنِّي لَدَى فِعْلٍ وَاجِبٍ
 أَسْكُنُ قَلْبًا دُونَهُ بَاتَ يَخْفَقُ

إِذَا نَالَ مِثْلِي مِنْ كَلَامِكَ لَفْظَةً
 تَشْرُفُهُ فَهُوَ السَّعِيدُ الْمَوْفُوقُ
 وَقُلْتُ أَمْدَحُ الْأَمِيرَ الْكَبِيرَ عَلِيَّ بَاشَا صَاحِبَ تُونِسَ الْخَضِرَاءِ
 وَأَقْرُظُ تَأْلِيفَهُ الْمَسْمُومَ بِمَنَاهَجِ التَّعْرِيفِ فِي أَصُولِ التَّكْلِيفِ: [من البسيط]
 عَجَّ بِاللَّصَابِ وَعُنُقُ اللَّيْلِ مَقْتُولُ
 بَصَارِمِ ابْنِ ذَكَّاءٍ وَهُوَ مَسْلُوقُ

ومنها:

بَاتَتْ سُعَادُ عَلَى ذَا كُلِّهِ وَغَدَتْ
 تَضْفُو عَلَيْهَا مِنَ التُّعْمَى سَرَابِيلُ
 إِذَا تَمَرَ الصَّبَا فِي خِدْرِهَا غَلَسًا
 رَاحَتْ عَلَيْهَا مِنَ الرِّيَا مِثَاقِيلُ
 كَذَاكَ حَتَّى إِذَا شَمْسُ الضُّحَى طَلَعَتْ
 قَامَتْ وَمِنْهَا وَشَاحَ الصَّدْرُ مَحْلُولُ
 قَامَتْ سُعَادُ تَحْيِينًا فَمَا قَمَرُ
 عَلَى قَضِيبٍ عَلَى الْكُثْبَانِ مَحْمُولُ
 جَلَّتْ مَحَاسِنُ مَا يَلْفِي لَهَا مِثْلُ
 وَمَا لِمَلْتَمَسٍ مِنْهُمْ تَنْوِيلُ
 نَقُولُ بَدْرٌ وَغَصْنٌ كِي نَشَبَّهَهَا
 وَإِنَّمَا قَوْلُنَا يَا صَاحِ تَمَثِيلُ
 فَلَا يَغْرُنُّكَ فِي مِثْلِ لَهَا طَمَعُ
 فَدُونَ أَمْثَالِهَا الْعُنُقَاءُ وَالْغُولُ

حتى إِذَا شَغَفَ الْقَلْبُ الَّذِي اجْتَذَبَتْ
 «بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولٌ»
 يُحَاوِلُ الْجَهْدَ كِي يَقْتَصَّ مُذْرِجُهَا
 وَهَلْ يَطِيقُ تَبَاعَ الْعِيسِ مَغْلُولُ
 تَجُوبُ جُوزَ الْفَلَاحِ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ
 تَزَلُّ عَنْ مَتْنِهَا رَفْطَاءُ زَهْلُولُ
 مَرْتُومَةٌ بِالْبَرَى خَلَتْ مَخَاطِمَهَا
 جَذَبًا كَمَا غَوَدَ الثَّوْبُ الرَّعَابِيلُ
 فَاعْطَفَ عَلَى طَلَلٍ بِالْجَزَعِ إِنْ دَمَى
 مِنْهَا عَلَى طَلَلٍ بِالْجَزَعِ مَطْلُولُ
 كَانَتْ لَنَا غَرَّ أَوْقَاتٍ مَضَتْ مَعَهَا
 وَالْخَطْبُ مِنْهَزْمٌ وَالْهَمُّ مَعزُولُ
 تِلْكَ اللَّيَالِي الَّتِي مَا بَتَّ أَذْكُرُهَا
 إِلَّا شَجِيتُ وَبِي اهْتَاجَتْ عَقَابِيلُ
 كُنَّا نَهِيْمُ بِهَا وَالْعُمْرُ مُقْتَبِلُ
 وَالْعِيشُ غَضٌّ وَرُبْعُ الْأَنْسِ مَاهُولُ
 فِي كُلِّ وَادٍ مِنَ الْأَرَامِ لَيْسَ بِهِ
 إِلَّا أَعْنُ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ
 أَمَّا اللَّيَالِي فَقَدْ عَادَتْ وَهْنًا بَنَّا
 مِنْ بَعْدِ مَا كُنَّا أَطْفَالًا مَطَافِيلُ
 وَلَّتْ سُعَادُ وَبَدَّلْنَا بِهَا جَزَعًا
 وَكُلَّ شَيْءٍ لَهُ فِي الْأَرْضِ تَبْدِيلُ

فلا يغرّتك مِنْ دُنْيَاكَ زُخْرُفُهَا
 فما زَخَارِفُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيلُ
 إِنَّا نَزَّلْنَا عَلَى وَادِي تَضَلُّلٍ قَدْ
 تَدَفَّقَتْ مِنْ حَوَالِينَا الْأَصَالِيلُ
 يَمْدٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ لِلوَرَى شَرَكًا
 وَالنَّاسُ مِنْهُمْ بِهِ نَاجٍ وَمَحْبُولُ
 فَمَنْ سَعَى عَنْ طَرِيقِ الْغَيِّ مُبْتَعِدًا
 فَحَبْلُ مَسْعَاهُ بِالْخِيَرَاتِ مَوْصُولُ
 وَمَنْ تَهَافَّتَ عَمْدًا فِي ضَلَالَتِهِ
 فليَعْلَمَنَّ فَعَرْشُ الْكُفْرِ مَثْلُولُ
 كَمْ زَلَزَلَ اللَّهُ مِنْ قَوْمٍ لِكُفْرِهِمْ
 قُدُمًا وَأَهْلَكَ جِيلٌ قَبْلَهُ جِيلُ
 فَلَيْسَ تَبْرُحُ لِلرَّحْمَنِ حَامِيَةٌ
 لَتَزْهَقَ الْبُطْلُ إِنَّ الْبُطْلَ زَحْلِيلُ
 هَلْ بَايَ تُونُسَ إِلَّا السَّيْفُ جَرَدَهُ
 فِي الْأَرْضِ رَبِّي فَحَدَّ الْبَغْيِ مَقْلُولُ
 فَالْيَوْمَ لِلرُّشْدِ بَيْنَ النَّاسِ وَاسْطَةٌ
 وَلِلتَّعَسُّفِ وَالْإِلْحَادِ تَذْلِيلُ
 بِكَفٍّ أَبْلَجَ مَيْمُونٍ مَطَالِعُهُ
 فَخُمُ الْجَنَابِ وَقِيلَ قِيلُهُ الْقِيلُ
 أَشَدَّ أَوْسَعَ مَنْ فِي ذَرْعِهِ سَعَةٌ
 طَوْلًا وَأَطْوَلَ مَنْ فِي بَاعِهِ طُولُ

مشبوبٌ عَزُمَ بِحُسْنِ الْحَدْسِ مَتَّقِدٌ
 فَوَّادُهُ وَبُحْبُ اللَّهِ مَشْغُولُ
 يَلَا حِقُّ الْقَصْدِ بِالتَّسْدِيدِ مُنْتَهَجاً
 إِذَا انْتَحَتْ هَدْيَةُ السَّارِي الْعَوَاقِلُ
 إِذَا تَغَضَّفَ جَنَحُ الْخَطْبِ مُعْتَكِراً
 فَمَا عَلَى غَيْرِهِ فِي الْكَشْفِ تَعْوِيلُ
 مِنْ مَعْشَرِ الْمُؤْمِنِينَ الْغَرِّ مُحْتَدُهُ
 لَدَى عَمَامَتِهِ تَعْنُو الْأَكَالِيلُ

ومنها :

بِفَيْلَقٍ لَجَبٍ مِنْ كُلِّ مِلْتَمِ
 لَهُ صَدِيقٌ غَدَاةَ الْحَرْبِ عَزْرِيلُ
 مَقْدَفٌ يَقْدِفُ الْعَادِي بِصَهْوَتِهِ
 إِذَا عَلَا النَّفْعَ تَكْبِيرٌ وَتَهْلِيلُ
 لِلَّهِ هَذِهِ عَلَى بَايِ الزَّمَانِ فَهَلُ
 لِمِثْلِ مَحْصُولِهِ فِي الْمَجْدِ تَحْصِيلُ
 عَنْ مِثْلِ عُليَّاهُ كَفُّ الدَّهْرِ قَاصِرَةٌ
 وَأَعْيِنِ السَّخْطَ مِنْ حُسَّادِهِ حَوْلُ
 فَلَيْسَ يَنْضَى لِرُوعِ عَضْبِ هَمَّتِهِ
 إِلَّا وَتَنَجَّابُ فِي الْحَالِ الْعِرَاقِيلُ
 وَلَيْسَ يَمْسِكُ عَنْ عَافٍ مَوَاهِبَهُ
 إِلَّا كَمَا يَمْسِكُ الْمَاءُ الْغَرَابِيلُ

ومنها:

حَقَائِقُ طَيِّ ذَاكَ الصَّدْرِ مَحْرَزَةٌ
 عَلَى شَتَاتٍ فَمَعْمُولٌ وَمَنْقُولٌ
 تَزْهُو بِهِنَّ تَأْلِيفُ مُفْرَدَةٍ
 عَلَى افْتِرَاقٍ فَتَجْمِيلٌ وَتَفْصِيلٌ
 مِنْهَا مَنَاهِجٌ لِلتَّعْرِيفِ وَاضِحَةٌ
 يَدُلُّ سَالِكُهَا حُكْمٌ وَتَعْلِيلٌ
 تَجْلُو بِفَضْلِ خِطَابِ كُلِّ مَسْأَلَةٍ
 عَوْصاً وَإِنْ كَثُرَتْ فِيهَا الْأَقَاوِيلُ
 اللَّهُ أَكْبَرُ هَذَا فَضْلُ سَيِّدِنَا
 فَأَيْنَ مَنْ وَصَفَهُ مَدْحٌ وَتَبْجِيلٌ
 يَبْغِي جَمِيعَ الْوَرَى إِيْفَاءَ دَيْنِ نَنَا
 فَيَعْجِزُونَ وَدَيْنُ الشُّكْرِ مَمْطُولٌ
 مَهْلًا أبا حَسَنِ نَجَلِ الْحُسَيْنِ فَمَا
 أَنْتُمْ أَيَا سَادَتِي إِلَّا بِهَالِيلُ
 تَزْهُو بِكُمْ تُؤْنَسُ الْخُضْرَاءُ مَمْرَعَةٌ
 وَلَيْسَ يَزْعَبُ فِي أَغْوَارِهَا التَّيْلُ
 كَفَاكُمْ شِفَاءً أَهْلَ الْحُسَيْنِ فَهَلْ
 مَقْصَرُ عَنْكُمْ فِي الْوَصْفِ مَعْدُولُ
 أَتْنِي عَلَيْكُمْ بِتَقْصِيرِي عَلَى أَمَلٍ
 لَعَلَّ عَذْرِي عِنْدَ الْبَايِ مَقْبُولُ

وَقَدْ أَعَارِضُ فَيْكُمْ فَارِسًا^(١) بَطْلًا
 لَا يَتْرُكُ الْقِرْنَ إِلَّا وَهُوَ مَجْدُولُ
 فَيَا مَلِيكَاً تَقَاصَى فِي مَمَالِكِهِ
 لَكِنْ لِنِعْمَتِهِ فِي الْأَرْضِ تَظْلِيلُ
 إِنْ كُنْتَ بَدْرًا بِأَفْقِ الْغَرْبِ مَنبِلِجًا
 فَالْشَّرْقُ مِنْ لُطْفِ ذَاكَ النُّورِ مَشْمُولُ
 فَاسْلَمْ وَعِزَّكَ لِلْأَحْلَافِ مُعْتَصِمُ
 مِنَ الرِّزَايَا وَلِلْأَعْدَاءِ تَنْكِيلُ
 وَارِعَ الْحَنِيفِيَّةَ الْبَيْضَاءَ مُعْتَصِمًا
 بِالْحَقِّ وَاللَّهِ بِالتَّوْفِيقِ مَسْئُولُ

وقلت في الأستاذ الشيخ محمد عبده أهنيه بالأضحي

[من الطويل]

هَلِ الدَّهْرُ إِلَّا ذَا النَّهَارِ وَضَدَهُ
 يُعَاوِدُ كَلًّا مِنْهُمَا الدَّهْرُ نَدُّهُ
 يَدُورُ فَمِنْ أَيْ الْجِهَاتِ ابْتَدَرْتَهُ
 وَتَابَعْتَهُ تَبْدَأُ بِهِ وَتَحْدَهُ
 وَلَا خَيْرَ فِي يَوْمٍ يَمُرُّ عَلَى الْفَتَى
 إِذَا لَمْ يَنْلُ فِيهِ ثَنًا يَسْتَجِدُّهُ
 فَلَيْسَتْ حَيَاةُ الْمَرْءِ إِلَّا شَهَادَةٌ
 عَلَى فَضْلِ مَوْلَاهُ فَيُظْهِرُ مَجْدَهُ

(١) أحمد فارس الشدياق له في أحد بايات تونس قصيدة أولها:

زارت سعاد وستر الليل مسدول

إِذَا كَانَ لَا يَخْتَارُ تَمَجِيدَ رَبِّهِ
 فَإِنَّ إِلَهَهُ اخْتَارَ مَا فِيهِ نَكْدُهُ
 وَإِلَّا فَفِي دَارِ الْفَنَاءِ ثَنَاؤُهُ
 مَقَامٌ وَفِي دَارِ السَّعَادَةِ خُلْدُهُ
 وَحَيٍّ غَدًا فِي مَا سِوَى الرُّوحِ مَيَّتًا
 لَقَدْ حَلَّ عِنْدِي حَيْثُمَا حَلَّ وَأُدُّهُ
 وَمَنْ كَانَ لَا يُوتِي الْجَمَاعَةَ نَفْعُهُ
 فَاغْفُلْهُ فِيهَا سِوَاءَ وَعْدِهِ
 لَعَمْرُكَ لَيْسَ الْعُمَرُ فِي الْمَرْءِ عَيْشُهُ
 وَلَكِنْ حَقَّ الْعُمَرُ فِي الْمَرْءِ حَمْدُهُ
 فَأَحْجَى بِهِ إِجْهَادُ مَا بَاتَ فَاقْدًا
 لِأَحْرَازِ شَيْءٍ لَيْسَ يَحْسِنُ فَقْدُهُ
 فَيَغْنِيهِ عَنْ رَغْدِ الْمَعِيشَةِ شُكْرُهُ
 وَلَيْسَ بِمَغْنِيهِ عَنِ الْحَمْدِ رَغْدُهُ
 كَذَا السِّيفُ مَعْدُومٌ وَقَدْ غَابَ نَصْلُهُ
 وَلَيْسَ بِمَعْدُومٍ وَعَابَ فِرْنَدُهُ
 وَمَا الْحَمْدُ إِلَّا الْجَدُّ فَهُوَ وَرَاءَهُ
 وَمَا الْجَدُّ إِلَّا الْجَدُّ فَهُوَ مُعَدُّهُ
 وَهَلْ قِيَمَةُ الْإِنْسَانِ إِلَّا فِعَالُهُ
 وَهَلْ قَدْرُهُ إِلَّا عَنَاهُ وَجُهِدُهُ
 وَلَوْلَا اشْتِغَالُ الْمَرْءِ مَا ذَاعَ ذِكْرُهُ
 وَلَوْلَا اشْتِغَالُ الْعُودِ مَا ضَاعَ نَدُّهُ

فَأَجْمَلُ مَنْ خَضِبَ بِكَفِّكَ شُغْلُهَا
 أَحْسَنُ مَنْ كُحِلَ بِطَرَفِكَ سُهْدُهُ
 وَاصْلَحَ مِنْ ذُلِّ بِنَفْسِكَ مَوْتُهَا
 إِذَا كُنْتَ مَمَّنْ مُورِدُ الْعِزِّ وَرُدُّهُ
 كَذَا فَلْتَكُنْ تِلْكَ الْحَيَاةَ الَّتِي أَرَى
 وَإِلَّا فَكَمْ سَهْلٌ عَلَى الْحُرِّ لِحْدُهُ
 أَوْدُ بِهَا خَلَقًا كَثِيرًا وَإِنَّمَا
 أَوْدٌ مِنَ الْأَيَّامِ مَا لَا تَوَدُّهُ

ومنها:

لَقَدْ آثَرَ الْمَوْلَى بِنِعْمَاهُ أَنْفًا
 فَلَا غَرَوْ أَنْ يَسْعَدَ مُحَمَّدَ عَبْدَهُ
 هُوَ الْبَدْرُ لَكِنَّ الْمَعَالِيَ سَمَاوَهُ
 هُوَ النَّجْمُ لَكِنَّ الْفَضِيلَةَ سَعْدَهُ
 هُوَ الْلَيْثُ لَكِنَّ الْمَحَامِدَ غَابَهُ
 هُوَ السَّيْفُ لَكِنَّ الْمَكَارِمَ غَمَدَهُ
 هُوَ الْبَحْرُ عَنْ كُلِّ النِّقَائِصِ جَزْرُهُ
 وَلَكِنْ إِلَى كُلِّ الْكَمَائِلِ مَدَّهُ
 مُحِيطٌ بِأَشْتَاتِ الْعُلُومِ جَمِيعُهَا
 فَفِي أَيِّ عِلْمٍ جِئْتَ يَقْدَحُ زِنْدُهُ
 مُجَدِّدٌ رُوحٍ صَارَ فِي وَسْطِ نَزْعِهِ
 وَمُوضِحٌ أَمْرٍ أَقْلَعَ الْيَوْمَ رُشْدُهُ

حَكِيمٌ فَلَا تَلْهِيهِ إِلَّا جَوَاهِرُ
 عَدَا عِبْرَةٌ فِيمَا سِوَاهُنَّ زَهْدُهُ
 لَقَدْ ظَلَّ سُلْطَانُ الْكَلَامِ بِأَسْرِهِ
 فَأِعْلَامُهُ الْأَقْلَامُ وَالْكَتُبُ جُنْدُهُ
 لَهُ قَلَمٌ يَزِرِي بِكُلِّ مَهْنَدٍ
 يَصُولُ عَلَى الْعَادِي بِهِ فَيَقْدُهُ
 لَهُ فِي رِهَانِ الْمَكْرُمَاتِ مَآثِرُ
 كَبَتْ دُونَهَا قُبُ السَّبَاقِ وَجَرْدُهُ
 تَرَدَّى بِأَثْوَابِ الْمَحَامِدِ كُلِّهَا
 وَفَوَّفَ مِنْ كُلِّ الْمَحَاسَنِ بَرْدُهُ
 إِلَى كُلِّ مَا يَسْنِي الثَّنَاءَ صَبَاؤُهُ
 وَعَنْ كُلِّ مَا يُؤْذِي الْكَرَامَةَ صَدُّهُ
 أَيَا مَنْ وَرُودِي فِي الْبَيَانِ مَعِينُهُ
 فَأُضَبِّحُ فِي مَدْحِي لَهُ أَسْتَمِدُّهُ
 تُبَاهِي الْبَرَايَا مَضْرُوءُكَ نَجْلُهَا
 وَيَفْخُرُ هَذَا الْعَصْرُ أَنَّكَ فَرْدُهُ
 لَدَيْكَ رَقِيقُ الشَّعْرِ يَحْلُو نَشِيدُهُ
 وَفِيكَ دَقِيقُ الْفِكْرِ يَحْسُنُ نَشْدُهُ
 وَيَفْتَنِي مِدَادُ الْمَرْءِ فِيكَ لَدَى الثَّنَا
 وَإِنْ يَكُنِ الْبَحْرُ الْمَحِيطُ يَمْدُهُ
 وَمِثْلُكَ مَنْ تَبَدَّى الْمَوَاسِمَ فَضْلُهُ
 وَفِيهَا مَعَ الْعُلْيَا يَجْدَدُ عَهْدُهُ

فَهَئَاكَ الْأُضْحَى وَلَا زَالَ عَائِدًا
 عَلَيْكَ سَعِيدًا دَائِمًا لَكَ شُكْدُهُ
 عَلَيْكَ مِنَ الْمَوْلَى يَصْبُ سَلَامُهُ
 وَفِي قَلْبِكَ الْوَقَادِ يَنْزِلُ بَرْدُهُ
 ولي تهنئة للشيخ محمد عبده بزفافه في بيروت وهي بنت
 ساعتها:

[من البسيط]

مَاذَا يُحَاوِلُ مِثْلِي فِي قَوَافِيهِ
 وَإِنْ تَكُنْ جُمِعَتْ كُلُّ الْقَوَى فِيهِ
 مِنْ مَدْحٍ مَنْ حِينَ لَاحَتْ لِي مَكَائِثُهُ
 مِنَ الْعُلَى لَمْ أَصُوبْ رَأْيٍ مَدْحِيهِ
 تَعْنُو الْمَعَانِي لَدِيهِ وَهِيَ صَاغِرَةٌ
 كَأَنَّهَا فِي الْبَرَائِيَا مِنْ جَوَارِيهِ
 تَأْتِي سِوَاهُ فَتَسْمُو فَوْقَ هَامِهِمْ
 وَتَنْتَحِيهِ فَلَا تَرْقَى مَوَاطِيهِ
 رَبِّ الْمَقَامِ الَّذِي بَاتَتْ تَحْفَ بِهِ
 غَرَّ الْفَضَائِلِ تَعْلِيهِ وَتَغْلِيهِ
 قَدْ حَازَهُ وَاللَّيَالِي مِنْ مَوَانِعِهِ
 مَنْ دُونَهُ وَالْعَوَادِي مِنْ عَوَادِيهِ
 بِفِكْرَةٍ مَا انْتَضَى فِي الْخُطْبِ صَارِمُهَا
 إِلَّا تَمَكَّنَ قَطْعًا مِنْ هَوَادِيهِ
 أَذَلَّ كُلَّ جَمَاحٍ لِلزَّمَانِ بِهَا
 وَلَا حُسَامٌ وَلَا رُمُحٌ يَرْوِيهِ

وإنما الفكرُ إذ صَحَّتْ مبادئه
عن الجيوشِ عَدَاً واللَّه يغنيه
فهو الذي كلُّ رأيٍ مِنْهُ منبجُ
في الرُّوعِ عَنْ كُلِّ فجرٍ في حواشيه
مَنْ يَكْشِفُ الأَمْرَ خافيه كظَاهِرِه
ويبلغُ القَصْدَ قاصيه كَدَانِيهِ
ما إنْ جَلَا عِلْمُهُ فِي مَطْلَبِ لَبِّكَ
إِلَّا وَأَسْفَرَ صُبْحاً عَنْ دِيَاغِيهِ
مجددُ رُوحِ هذا الدِّينِ مُنْعِشُهَا
مِنْ بَعْدِ مَا بَلَغَتْ مِنْهُ تَرَاقِيهِ
مَنْ مِنْهُ دَهْرُكَ ماضيه وحَالِيهِ
مقلدٌ جِيَدَهُ بِالْفَخْرِ حَالِيهِ
أَلَى عَلَى نَفْسِهِ أَلَّا يُفَارِقَهَا
إِلَّا عَلَى مَبْدَأِ الدِّينِ يَحْيِيهِ
فَسَلْ نُجُومَ العُلَى عَنْ شَأْوَهِمَّتِهِ
والشَّرْقَ والعَرَبَ فَاسْأَلْ عَنْ مَسَاعِيهِ
لا أَخْتَشِي إِنْ أَقْلُ مَنْ ذَا يُسَاجِلُهُ
مَنْ ذَا يُسَاوِرُهُ مَنْ ذَا يُسَاوِيهِ
إِذْ يَنْتَضِي قَلَمًا كَالْعَضْبِ يُظْهِرُهُ
عَلَى حُسَامِ صَقِيلِ الحَدِّ ماضِيهِ
أَوْ إِنْ يَقْلُ كَلِمًا تَعْدُو وَقَائِلُهَا
ذَا الْبَحْرِ يَزْرِي وَذِي تَزْرِي لآلِيهِ

فليس تتلو الورى من قوله غرراً
 إلا ونادوا جميعاً جلّ باريه
 نالت فؤادي رغباه فوائده
 وبلغتني آمالي أماليه
 يا ليت مقدرتي في وصف حكمته
 كانت تُعادل بين الناس حبيه
 فكنت أشعر أهل الأرض قاطبة
 إذ بت أهيمهم من فطرتي فيه
 لكنتني دون ذا مع ذاك مُعتمد
 على مقالة أن الفعل أنويه
 إني امرؤ لم تكن تُحصي مطامعه
 ولم يخل في الورى شيئاً ليكفيه
 حتى رآه فأمسّت دون مبلغه
 من كل ماثرة صرعى أمانيه
 وإنه والذي سوى محمد من
 لم أرض عن ناظري حتى أرانيه
 فهو الهمام الذي فخر القلوب به
 إذا ابتدا اللب يروي عن معانيه
 المُسترق قلوب الخلق منطّقه
 إذا أفاض فلا حرّ بواديه
 وقد غدا طالب التّاهيل عن رشيد
 وشيمه الحرّ تأبى غير أهليه

آتاه رَبِّي مِنَ التُّعْمَى مَوْفَرَهَا
 إِذْ يَمْنَحُ الْفَضْلَ رَبِّي مُسْتَحَقِّيهِ
 أَرَاهُ أَنْجَالَ أَنْجَابٍ وَأُسْعَدَهُ
 بِخَفْضِ عَيْشٍ رَفِيعِ الشَّانِ سَامِيهِ
 وَمَدَّ فِي عُمُرِهِ ذُخْرًا لِمَلَّتْهُ
 بِالذُّودِ عَنْ حَرَمِ الْإِسْلَامِ يَقْضِيهِ
 فَهُوَ الَّذِي فِي الْوَرَى غَرَّانُ أَنْعَمَهُ
 قَدْ أَنْطَقْتَنِي ارْتَجَالًا فِي تَهَانِيهِ

تاريخ

بَارَكَ اللَّهُ لِمَوْلَانَا زَفَا
 فَأَقْرِينَا لَلرِّفَا وَالْوَلَدِ
 جِئْتَ فِيهِ الْيَوْمَ أَرْخَ قَائِلًا
 حَلَّتِ الشَّمْسُ بِبُرْجِ الْأَسَدِ

١٣٠٤

ولي رثاء لحرم واصبا باشا متصرف لبنان وهي من نظمي يوم
 كنت في الرابعة عشرة من العمر:

[من الطويل]

أَتَنْكُرُ نَبْذَ الصُّبْحِ فِيمَا تُحَاوِلُهُ
 بَعْذِلُ وَبَاكِي الْعَيْنِ جَارَتْ عَوَاذِلُهُ
 وَتَحْجُو أَنْصَابَ الدَّمْعِ وَيُحَكُّ مُنْكَرًا
 إِذَا دَبَّجَتْ خُضْرُ الرِّوَابِي هَوَاطِلُهُ

فأروذ فاقصر، عمرك الله، واتئذ
فانأى من العنقاء ما أنت آملُهُ
تحاول تجفيفاً لدَمْعِي كعامدٍ
لتجفيف بحرِ محوَرِ الأرضِ ساحلُهُ
وإطفاء نارٍ بالحشأ مثلُ مَنْ أَتَى
لَطَى سَقَرٍ يَطْفِي الصَّلا وهو آكلُهُ
أيا لائمي في الحُزْنِ كلني للأسى
شَجِيأ فَقَدْ طَابَتْ لَدَيَّ مَنَاهِلُهُ
ولا تتعبنَّ أو تعتبَنَ حيث لم أضغ
فهيهاةِ إصغائي لما أنت قائلُهُ
عذلت بما قد ظَلَّتْ تجهلُ همَّه
ألا فاعذلني بالذي أنت عاقِلُهُ
ولو كُنْتَ تدري ما الرّزِيئة لم تَلُم
ولكنما يُسْتَصَغَرُ الأمرُ جَاهِلُهُ
مصابٌ بدتْ للموتِ فيه شَدَائِدُ
بما لم تَكُنْ تدريهِ يوماً غَوَائِلُهُ
به ذهب اليوم الرّدى كلّ مذهب
كأنّ الرّدى لم يَدْرِ ما هو فاعِلُهُ
أزال بأفقِ المَجْدِ شَمْسَ فَضِيلَةٍ
تميدُ بها منْ ذا الزمانِ جَلَائِلُهُ
عَقِيلَةُ صَوْنٍ قَدْ أُصِيبَ بِهَا العُلَى
على مثْلِها ماتَ العُلَى وعَقَائِلُهُ

تَعَطَّلَ خَسَفًا جِيدَ ذَا الدَّهْرِ بَعْدَمَا
تَحَلَّى بِهَا دَهْرًا مِّنَ الدَّهْرِ عَاطِلُهُ
مَضَتْ فَمَضَى مِنْهَا إِلَى اللَّهِ مَمْتَعًا
بِنُعْمَاهُ شَخْصٌ لَا تَعْدُ كَمَائِلُهُ
فَقَامَتْ لَهَا فِي كُلِّ حَيٍّ نَوَادِبُ
لِحُسْنِ ثَنَاءٍ يَفْعُمُ الْبِرَّ نَائِلُهُ
أَلَا إِنَّ لِبَنَانِ الْأَعْرَ تَخَضُّبَتْ
رُبَاهُ دَمًا مِّمَّا بَكَتُهُ قَبَائِلُهُ
تَمَثَّلَ دَكُّ الطَّوْرِ فِي صَعَقَاتِهِ
دَمَادِمَهُ مِمَّا تَمِيدُ مَعَاقِلُهُ
أَمْضَرَعُهَا يَوْمُ الثُّلَاثَا وَقَدْ سَرَى
بِهَا نَعَشُهَا كَالْفُلْكِ وَالْدَّمْعُ حَامِلُهُ
تَصْعَدُ فِيهِ النَّاسُ كُلَّ شَرَارَةٍ
بِمَا فِيهِ قَدْ سَاوَتْ ضُحَاهُ أَصَائِلُهُ
فِيَا قَبْرُهَا فِي الْحَازِمِيَةِ فَوْقَهُ
غَطَاءٌ مِّنَ الْعَفْوِ الْمُهَيِّمِ سَادِلُهُ
سَقَّتْكَ شَابِيبُ الرِّضَى كُلَّ غَدْوَةٍ
وَوَظَلَّ الْحَيَا يَنْهَلُ فَوْقَكَ وَابِلُهُ
أَرَا حِلَّةً مِّنْ عَالَمِ الْمَوْتِ لِلْبَقَا
وَيَا حَبِّذَا مِنْ ذَلِكَ الْحَيِّ رَا حِلَّةُ
لَكَ اللَّهُ بِالصَّبْرِ الَّذِي قَدْ قَضَيْتَهُ
بِدَاءِ مَدَى السَّبْعِ السَّنِينَ يَنَاضِلُهُ

تَخَذَتِ اللَّيَالِي التَّابِغِيَّةَ مَأْلَفًا
فَمَا شَأْنُ طَرْفِ حَالِكِ اللَّيْلِ كَاجِلُهُ
وَتَصْبِرُ حَتَّى أَصْبَحَ الدَّاءُ عِنْدَهَا
أَوْ آخِرُهُ قَدْ سُويْتُ وَأَوَائِلُهُ
فَوَيْحَ الرَّدَى كَيْفَ أَنْبَرَى لِاخْتِطَافِهَا
وَلَمْ تُذَمِّ مُذْ مَدَّتْ يَدَاهُ أَنْامِلُهُ
تَخْرِمُهَا لَا يَرْهَبُ الْبَاسَ مِنْ حَمَى
وَزِيرٌ وَفَتْ أَسْيَافُهُ وَعَوَامِلُهُ
فَلَمْ يَتَهَيَّبْ لِلْوَزِيرِ بَسَالَةً
تَسَامَتْ وَلَمْ تُغْنِ الْوَزِيرَ مَنَاصِلُهُ
أَقَامَ السَّرَايَا فَوْقَ لَبْنَانٍ تَنْجَلِي
فَأَيْنَ السَّرَايَا لِلْحَمَامِ تُنَازِلُهُ
أُصِيبَ لَعَمْرِ اللَّهِ لَيْسَ تُفِيدُهُ
فَتِيلاً عَلَى دَرِّ الْمَصَابِ جَحَافِلُهُ
وَلَا غَرَوْ فِيهِ مِنْ مُصَابٍ مَعْظَمٍ
فَمَا وَائِبَ الضَّرْعَامِ إِلَّا مِمَّا ثَلُهُ
وَإِنَّ الَّذِي جَلَّ الزَّمَانُ بِفَضْلِهِ
لَأُخْرِى بِأَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَوَازِلُهُ
لَقَدْ جَلَّ أَنْ يَخْشَى مِنَ الدَّهْرِ بَاسَهُ
بَلِ الدَّهْرُ يَخْشَاهُ فَلَيْسَ يُعَادِلُهُ
وَزِيرٌ إِذَا قَلَّ الثَّنَاءُ فَإِنَّمَا
شَمَائِلُهُ بِالْأَلْتِفَاتِ شَوَامِلُهُ

هنيئاً للبنان به إنَّ ذِكره
يَضُوعُ بأذكى ما تَضُوعُ خَمَائِلُهُ
تولاه وَاَصَا حيثُ وَاَصَى أَيَادِيَا
تواصى الثَّنا طُولَ المَدَى وتواصِلُهُ
فَدُنْيَاكَ طُراً لَا تَطْعُ بِاعِثِ الأَسَى
فإنَّكَ لَا يُعْنِيكَ فِي الحَظْبِ هَائِلُهُ
وإنَّ الذي قد صَلَّتَتْهُ يَدُ القَضَا
حُسَامٌ غَدَتْ أَمْرَ الإِلَهِ حَمَائِلُهُ
فهلْ فِي قَضَاءِ اللَّهِ تُنْجِيكَ حِيلَةٌ
إِذَا نَصَبَتْ لَلْأَقْتِنَاصِ حَبَائِلُهُ
وَهَلْ كُلِّ شَأْنٍ مَبْتَغِيهِ وَسَائِلُهُ
يَصْحَحُ بِهِ فِيمَا يَرُومُ وَسَائِلُهُ
فجدلت ذا العِدْوَانِ بالسَّيْفِ عُثُوةً
وَلَكِنَّ هَذَا المَوْتَ لَيْسَ يُشَاكِلُهُ
فَعَطْفٌ عَلَى المَكْرُوهِ نَفْساً فَإِنَّهُ
قَضَاءٌ عَمِيمٌ مَقْصِدَاتُ مَقَاتِلُهُ
فمَثَلُكَ لَا يَغْنُو لاثْقَالِ نَكْبَةٍ
عَلَى أَنَّ حَزْمَ الرَّأْيِ إِذَاكَ كَاهِلُهُ
ومَثَلُكَ فِي لُبْنَانَ هَمَّتْهُ انْتَضَتْ
فَوَائِقُ مَا كَانَتْ تُرْجَى أَوَاهِلُهُ
نَشَرَتْ لَوَاءَ العَدْلِ فَوْقَ هَضَابِهِ
خَفُوقاً بِآلَاءِ غَدَتْ لَا تُزَايِلُهُ

فَدُمْتُ عَلَيْهِ وَالْيَا تَسْعُدُ الْوَرَى
كَمَا دُمْتُ جُوداً فِيهِ يَخْضُرُ وَابِلُهُ

[من البسيط]

ولي بعد ذلك تهنئة بزفافه

أَدِرْ لَنَا رَاحَ تَذْكَارِ الْجَمَى ادرِ
وَصِفْ لَنَا الْيَوْمَ مَجْلَى سَفْحِهِ النَّصْرِ
وَارْمُقْ سَنَاوَتَهُ وَأَنْظُرْ سَمَاوَتَهُ
تَرَى دَرَارِيَّهَا تَزْدَانُ بِالْذُّرْرِ
تَرَى قُبَابَ السَّنَا فِي الْأَفْقِ صَاعِدَةً
عَلَى أَسَاطِينِ نُورٍ نَاشِرِ الْأَكْرِ
أَنْعِمْ بِهَا لَيْلَةً لِبَنَانُ تَاهَ بِهَا
وَبَاتَ يَرْفُلُ فِي ثَوْبٍ مِنَ الْحَبْرِ
جَادَ الزَّمَانُ بِأَهْلِيهِ بَطْلَعَتِهَا
مِنْ بَعْدِ ضَنْ بِهَا فِي سَالِفِ الْعَصْرِ
كَأَنَّمَا كَانَ مِنْذُ الْبَدءِ حَامِلُهَا
حَتَّى تَمْخَضَهَا ذَا الْيَوْمِ عَنْ كِبَرِ
يَزِينُ قِبَتَهَا نُورٌ وَسَاحَتَهَا
نُورٌ فَتَزْهَرُ بَيْنَ الزَّهْرِ وَالزَّهْرِ
حَتَّى كَأَنَّ ضِيَاءَهَا امْتَدَّ مُتَّصلاً
بِیَوْمِهَا وَكَأَنَّ الْأَرْضَ لَمْ تَدِرِ
مَشَاهِدُ كُمَلَتْ أَنْوَارُ زِينَتِهَا
مَا بَيْنَ مَنْتَظِمٍ مِنْهَا وَمَنْتَشِرِ

يَكَادُ لِبْنَانُ أَنْ يَهْتَزَّ مِنْ طَرْبٍ
وَأَنْ يَمِيسَ بِمَا يَحْوِيهِ مِنْ مَدْرِ
عَمَتْ بِذِي الْبَهْجَةِ الْعُلْيَا مَسْرَتَهُ
جَمِيعَ أَهْلِيهِ مِنْ بَادٍ وَمَحْتَضِرٍ
تَأَرَّجَتْ مِنْ ثَنَا الْمَوْلَى الْوَزِيرِ لَنَا
أَرْجَاؤُهُ بِأَرْيَجِ ضَائِعِ عَطِيرٍ
هُوَ الْوَزِيرُ الَّذِي مَا شَتَّ مِنْ وَزَرَ
مِنْهُ عَلَى دَهْرِنَا أَلْفِيَتَ مِنْ وَزَرَ
أَقَسَمْتُ مَا دَامَ مِنْهُ الْخَيْرُ مَنْصَرَفًا
إِلَى الْعِبَادِ فَمَا زِنْدُ الزَّمَانِ وَرِي
كُنَّا نَحَاذِرُ دَهْرًا قَبْلَ هَمَّتِهِ
فَالآنَ نَحْنُ وَمَا نَبْقِي عَلَى حَذَرٍ
يَرْتَدُّ عَنْ مَجْدِهِ الْوَضَّاحُ مُنْكَسِرًا
طَرَفٌ عَنِ الشَّمْسِ أَضْحَى غَيْرَ مُنْكَسِرٍ
بَدْرٌ يَنْبِيرُ عَلَى الْأَقْطَارِ قَاطِبَةً
بَحْرٌ سِوَاهُ جَمِيعِ النَّاسِ كَالْغَدْرِ
مَهْذَبٌ تَبْخَعُ الْجَلِيُّ لِحُكْمَتِهِ
يَرَى وَيَمْضِي مِضَاءُ الصَّارِمِ الذِّكْرِ
مُؤَيَّدٌ سَنَةَ الْعَدْلِ الَّتِي شَرَفَتْ
وَرَافِعٌ رَايَةَ الْإِرْشَادِ فِي الْبَشَرِ
طَافَتْ بِكَعْبَتِهِ الْأَمَالُ وَاعْتَمَرَتْ
وَلَيْسَ إِلَّا الْبَنَانُ الرُّطْبُ مِنْ حَجَرٍ

إِلَى مَكَارِمِهِ الْآنَامُ وَارِدَةٌ
 تَتَرَى وَلَكِنَّهُ وُزِدَ بِلا صَدْرٍ
 بَاتَتْ تَحَدَّثُ عَنْ مَعْنَى سَمَاحَتِهِ
 وَعَدْلُ أَحْكَامِهِ الْغَرَاءِ عَنْ عُمَرٍ
 أَبْدَى فَأَيْدِ الْمَكْرُمَاتِ بَنَا
 جُوداً كَمَا كَفَّ كَفُّ الرِّزِّ وَالْغَيْرِ
 أَيْنَ الرِّزْيَةُ تَجْتَاحُ الْعِبَادَ فَقَدْ
 رَمَى بِهَا بَيْنَ سَمْعِ الْأَرْضِ وَالْبَصْرِ
 لَهُ بِكُلِّ مَكَانٍ كُلِّ مَأْثَرَةٍ
 غَرَاءَ مَعْلُومَةِ الْأَحْجَالِ وَالْغُرَرِ
 إِذَا أَفَاضَ عَلَى الْعَافِي مَوَاهِبُهُ
 أَزْرَى بَغِيْثٍ مِّنَ الْوُطْفَاءِ مِنْهُمْ
 وَإِنْ سَطَا بَطْعَانٍ مِّلٍّ مِنْ يَدِهِ
 قَرَى الْوَشِيحَ وَغَرَبَ الصَّيْلِمَ الْبَتْرِ
 يَا مَنْ لِّتَأْيِيدِ عُليَّاهُ وَسُلْطَتِهِ
 تَدْعُو الرِّعْيَةَ فِي الْأَصَالِ وَالْبَكْرِ
 بِكَ انْقَضَتْ غَصَّةُ الْأَيَّامِ وَانْكَشَفَتْ
 صُرُوفُهَا بِالزَّمَانِ الْأَخْضَرِ النَّضِيرِ
 لَكَ الْإِيَادِي عَلَى لِبْنَانٍ تُرْسِلُهَا
 سُحْباً عَلَى رَائِحِ فِيهَا وَمُبْتَكِرِ
 لَكُمْ رَأَيْتَ لَهُ صَدْعاً وَكَمْ شَعِثٍ
 لِمَمَّتْ فِيهِ وَكَمْ قَوْمَتْ مِنْ صَعْرِ

سَقَيْتُهُ الْغَيْثَ مِنْ رَغْدٍ وَمِنْ دِعَةٍ
 كَذَاكَ يُسْقَى جَدِيبَ الْأَرْضِ بِالْمَطَرِ
 فَعَادَ بَعْدَ ذَوِي عَيْشِهِ نَضْرًا
 وَشَبَّ بَعْدَ وُضُوحِ الشَّيْبِ فِي الشَّعْرِ
 مَا إِنْ تَرَى مَاسَ بَيْنِ النَّاسِ غُضُنْ هُنَا
 إِلَّا وَلِبْنَانُ أَمْسَى خَيْرَ مَهْتَصِرٍ
 مَا لِي أَعُدُّ مَا وَاصَيْتُ مِنْ نَعَمٍ
 عَلَى حِمَاكَ وَمَا شَيَّدْتَ مِنْ أَثَرٍ
 فَمَثَلُ فَضْلِكَ بَحْرًا لَيْسَ يَحْضُرُهُ
 لِسَانٌ مِثْلِي فِي ذَا الْعِيِّ وَالْحَصْرِ
 فَاهْنَأْ بِسَعْدِ هِدَاءٍ لَا تَزَالُ بِهِ
 مِقَارُنُ الْعِزِّ وَالنُّعْمَى مَدَى الْعُمَرِ
 تَزْهُو لَنَا الْيَوْمَ فِي تَارِيخِهِ جُمْلٌ
 فَقُلْ تَجَلَّى قِرَانُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ

ولي للمرحوم حسن أفندي بيهم من أعيان بيروت تهنئة بزفافه
 وهي أيضاً من أوائل شعري .
 [من الطويل]

إِلَيْكَ التَّهْنِائِي تَسْتَحِثُّ وَفُودُهَا
 وَفِيكَ الْقَوَافِي يُسْتَمَالُ شُرُودُهَا
 وَتُسَلِّكُنَا فِيهَا مَعَانِيكَ هِينَةً
 إِذَا اسْتَضْبَحَتْ أَقْبَالُهَا وَنُجُودُهَا

ومنها :

تَعَاتِبَ عَزَمِي فِيكَ كُلَّ خَلِيقَةٍ
 عَلَيْهَا سَرَابِيلُ الْعُلَى وَبِرُودُهَا

كَأَنِّي قَرَضْتُ الشُّعْرَ قَبْلَ زَمَانِهِ
 لِيُوجِبَ فِي يَوْمٍ عَلَى نَشِيدِهَا
 وَكُنْتُ إِذَا مَا اعْتَمْتُ صَمْتِي عَنِ الثَّنَا
 أَكْلَفُ نَفْسِي خُطَّةً مَا تَرِيدُهَا
 فَإِنَّ كُنْتُ لِلْحُسْنَى عَمِيداً وَصَاحِباً
 فَإِنِّي مَدِيحاً صَبَّهَا وَعَمِيدُهَا
 وَإِنْ صَيَغَ عَقْدُ الْمَدْحِ فِيكَ فَطَالَمَا
 تَحَلَّتْ بِكَ الْعُلَيَاءُ وَازْدَانَ جِيدُهَا
 كَأَنَّكَ مِنْ مَاءِ الشَّهَامَةِ مِنْهَلٌ
 تَظِلُّ الْعُلَى حَرَى إِلَيْهِ كُبُودُهَا
 لَقَدْ شَمِلَتْ مِنْكَ الْجَمِيعُ بِلُطْفِهَا
 شَمَائِلُ يَزْرِي بِالشُّمُولِ وَرُودُهَا
 وَقَدْ فُزْتُ حِظاً بِالْمَعْلَى مِنَ الْعُلَى
 فَتَقْدَحُ نَاراً فِي يَدَيْكَ صُلُودُهَا
 حَصَلَتْ عَلَى شَمِّ الْمَعَالِي فَلَمْ يَزَلْ
 بِأَفْقِ الْعَنَانِ الْبَدْرُ وَهُوَ حَسُودُهَا
 صَبَوْتَ إِلَيْهَا وَهِيَ نَحْوُكَ قَدْ صَبَتْ
 فَلَا غَرَوَ أَنْ تَفْتَنَ بِحُسْنِكَ غِيدُهَا
 غَلَبَتْ الْقَوَافِي كُلُّهَا وَسَبَقَتْهَا
 وَإِنْ يَزُرُ بِالْدَّرِ النَّضِيدِ نَضِيدُهَا
 بِهِمَّةٍ مَقْدَامِ الْعَزِيمَةِ لَا تَرَى
 عِيَاءً وَلَا وَفَعَ الصَّعَابِ يُؤْوِدُهَا

وأخلاق ميمونِ النقيبةِ ما ينَى
 يصبوبُ بها غيثُ الثَّنا ويجودُها
 فتى لو أعارَ الشَّمْسَ ضوءَ جبينه
 لما ساعَ تحتَ الدجنِ يوماً ربودُها
 ولو لأبسَ الظلماءَ نُورَ جنانه
 لما احتيجَ من نورِ الصُّباحِ وقودُها
 ولو مزجَ اللهَ الحياةَ بلطفه
 لما احتملتْ سُقمَ الجسومِ جلودُها
 نشأ كلفاً بالمكرُماتِ فلم تزلْ
 له نَفحاتٌ ليس يجحدُ جودُها
 إلى الغايةِ القُصوى مَنازعُهم
 فأقربُ هاتيكِ المغازي بعيدها
 توليه ذاتُ الأروعيَّةِ نفسُه
 على عَقباتٍ لا يرامُ كؤودُها
 يهتكُ أستارَ المغالِقِ حزمه
 لدى مُعضلاتٍ لا يُنادى وليدها
 إذا اعتَرَضَتْ دُهمٌ عوايسُ في الورى
 فمنه لهم مَهديُّها ورشيدها
 على مُلتقى سُبُلِ المعاني تخالُه
 فمبتدرٍ من كلِّ صوبٍ يصيدها
 أمالتْ له كلَّ القُلوبِ من الورى
 مَكَارِمُ تَتَرى في القُلوبِ قيودُها

لَقَدْ أَلْفَ الْإِفْضَالَ وَهُوَ رَبِيبُهُ
وَهَلْ تَأْلَفُ الْأَغْيَالَ إِلَّا أَسْوَدُهَا
وَلَا قَتْ بِهِ زَهْرَ الشُّعُودِ جَدُودُهُ
كَمَا تَتَلَاقَى فِي الْبُرُوجِ سُعُودُهَا
رَعَى اللَّهُ مَنْ يَرْعَى الْمَوَدَّةَ وَالْوَلَا
بِبَاصِرَةٍ مَا يَطَّيَّبُهَا هَجُودُهَا
أَيَا حُسْنًا لَمْ يَبْقَ حُسْنًا لغيره
بِرَفْعَةِ شَأْنٍ لَمْ يَزَلْ يَسْتَزِيدُهَا
وَيَا مَخُولًا لَا تَارِكًا طَارِفَ الْعُلَى
إِذَا كَانَ أَوْلَاكَ الْغِنَاءَ تَلِيدُهَا
عَشِقْنَا مَعَانِيكَ الْحَسَانَ وَإِنَّهَا
وَحَقَّقَ عَيْنٍ لَا يُطَاقُ صَدُودُهَا
تُضَاحِكُ تُغَرِّ الْأَفْحَوَانَ تُغَوِّرُهَا
وَتَفْضَحُ وَاللَّهُ الشَّقِيقُ خَدُودُهَا
تَبَاهَتْ بِكَ الْأَقْلَامُ إِنَّكَ رَبُّهَا
وَإِنَّكَ مَطْبُوعُ الْمَعَانِي مُجِيدُهَا

ومنها:

فُخِذَهَا مِنَ الشُّعْرِ الْعِرَاقِيِّ غَادَةً
تَنَاهَتْ إِلَى مَاءِ السَّمَاءِ جَدُودُهَا
عَلَى غَيْرِ عَهْدٍ بِالشَّنَاءِ وَلَمْ يَكُنْ
حَدَاها إِلَى نَادِيكَ إِلَّا عَهْدُهَا

وَقَدْ أَنْقَذَتْهَا نَحْوَ مَدْحِكَ هَمَّةٍ
تَجَاذِبُهَا إِقْدَامُهَا وَقَعُودُهَا
أَخَا الْحُسْنِ فَاهِنًا بِالزَّفَافِ الَّذِي زَهَا
وَدَامَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَأَنْتَ سَعِيدُهَا
وَدُمْ بِهِنَا هَذَا الْقِرَانِ مَمْتَعًا
قَرِينُكَ مِنْ هَذِي الْحَيَاةِ رَغِيدُهَا
بَقِيَتْ بَقَاءَ الدَّهْرِ فَخْرًا لِأَهْلِهِ
وُخِلِدَتْ لَوْ نَفْسٌ يُرْجَى خُلُودُهَا
وَلَا زِلْتَ بِدَرْ الشَّرْقِ مَا ذَرَّ شَارِقُ
وَمَا طُلَعَةَ الْإِصْبَاحِ لَاحَ عَمُودُهَا

**ولي ثناء على جمال بك نجل رامز بك قاضي بيروت لذلك
العهد وكان من أفذاذ القضاة في العدل والنزاهة .**
[من الخفيف]

لَيْسَ مَنْ يَمَلَأُ الْعَيُونَ جَمَالًا
غَيْرَ مَنْ يَمَلَأُ الْقُلُوبَ كَمَالًا
وَأَخُو الْعِشْقِ ذُو الْهَيْامِ الَّذِي قَدْ
تَّخَذَ اللَّيْثَ فِي هَوَاهُ الْغَزَالَ
يَا جَمَالًا عَشِيقَتُ مِنْهُ خِصَالًا
لَسْتُ أَرْجُو لَغِيرَهِنَّ وَصِيَالًا
رَادَكَ اللَّهُ رَفْعَةً وَيَقِينِي
بِكَمَالٍ إِذَا رَأَيْتُ الْهَلَالَ
جُمِعَتْ فِيكَ يَا جَمَالُ مَعَانٍ
يَتَمَنَّى الْمَدِيحُ مِنْهَا الْمُحَالَ

أَوْ مَا فِيكَ ذَلِكَ الْعَزْمُ مَا وَجَّهَ
 هـ يَوْمًا إِلَّا اسْتَخَفَّ الْجِبَالَا
 يَسْبِقُ الْقَوْلَ مِنْكَ فِعْلٌ إِذَا مَا
 سَبَقَ الْقَوْلَ فِي الْأَنَامِ الْفِعَالَا
 يَا ابْنَ مَنْ قَصَرَ الْأُمَثَلُ طَرَا
 أَنْ يَرُونَا لِدَاتِهِ أُمَثَالَا
 نَجَلُ قُطْبِ الزَّمَانِ عَدْلًا عَلَى الْإِ
 طْلَاقِ لَمْ يُبْدِ نِدَّةَ الدَّهْرِ حَالَا
 لَسْتُ أَبْغِي وَصْفًا لَا أَنْتَ فِيهِ
 أَنَا مَا إِنْ أَطِيقَ هَذَا الْمَجَالَا
 لَا وَلَا شُكْرَ مَا مُحَضَّتْ مِنَ الْوِ
 دِّ صَدِيقًا تَرَاهُ بِاسْمِكَ أَلَى
 مَكْرُمَاتٍ وَرَقَّةٌ وَذَكَاءُ
 ذِي الْمَعَالِي فَلْيَعْلَوْنَ مَنْ تَعَالَى
 وَزَمَانٌ يَظَلُّ يَنْشُدُ عَنْهَا
 هَكَذَا هَكَذَا وَإِلَّا فَلَا لَا

وكتبت إلى صديقي أيوب أفندي عون مدير مدرسة الكاثوليك في
 حلب الشهباء . [من الكامل]

حَتَّامَ تَجْذِبُنِي الْقُدُودُ وَأَجْنَحُ
 وَيَصَدَّنِي عَنْهَا الصَّدُودُ وَأَجْمَحُ
 وَيَهِيْجُنِي سَوْقَ الْحَسَانِ وَأَدْمَعِي
 أَبْدَأُ عَلَى سَفْحِ الْمَعَاهِدِ تَسْفَحُ

غاضتْ دموعي بعد فَيْضِ شؤونها
 وعهدتْ عين الدَّمعِ ليست تنزحُ
 وبقيتْ فيما بين لدعِ صبايةٍ
 يكوي وَبَرَحُ دائِمٌ لا يبرحُ
 أحيي الليالي آمالاً أن تنجلي
 صباحاً وليس بأمثلٍ ما تصبحُ
 إن كان يوحشني الظلامُ لذي التوى
 فالهجرُ في يومي لعيني أوضحُ
 ولقد أتوقُّ إلى الكرى فلربما
 طيفُ الحبيبِ بزورةٍ قد يسمَحُ
 فلئن يَكُنْ ذاك العَزالُ محرماً
 وُضلي فحسبي في الكرى ما يسنحُ
 يا ليلةً بالجزعِ تجزعني بها
 نوحاً وُراقى الأيكِ مما تصدحُ
 باتتْ تذكري ليالي بيئها
 كنّا وكان المنحنى والأبطحُ
 ما بين هاتيكَ الظباءِ سوانحاً
 تمشي بحبّاتِ القلوبِ وتمرحُ
 باتتْ تتيهُ بها العقولُ إذا بدتْ
 تيهاً كباناتِ النقا تترنحُ
 من كلِّ مياسٍ أغنّ إذا انبرى
 فالعقلُ يعقلُ والنواظرُ تطمحُ

يلهو ويجرحُ في النهارِ وإنما
 قد ظلّ يجرحُ مهجتي إذ يجرحُ
 يا مَنْ يُعذِّبني ويحسبُ أنني
 لعذابه طُولُ الزمانِ مرشحُ
 يسطو عليّ ولا يرقّ فعنده
 قلبٌ ولكِنْ بالحديدِ مصقّحُ
 دلّهُتني في ذا الغرامِ فها أنا
 قيسٌ ولكِنْ بالفراقِ ملوّحُ
 فإلى مَ تهجرني وقد كاد الصّبا
 يذوي ورطبُ غصونه يتصوّحُ
 ما كنتُ أيوبَ الصبورِ وإنْ يَكُنْ
 بالصّبرِ معنًى أسمى بفارسٍ يشرّحُ
 ذاك السميّ الباهرُ الشيم التي
 أخلاقه بالأروعيّة تطفحُ
 المشبعُ العقلِ الذي أخلاقه
 غرُّ الوجوه حسيبة لا ترجحُ
 الواسعُ الفضلِ الذي لثنائه
 في كلّ خُلُقٍ منْ علّاه مفتحُ
 الناصحُ الجيبِ الذي آثاره
 عن حُسنٍ ما يطوي عليه تصرّحُ
 يثني عليه بالوفاءِ وإنما
 تمديحه بوفائه لا يمدحُ

حرّ تفتّحُ للودادِ فؤاده
 وكَلَامُهُ عند الثّنا يتفتّحُ
 فهو الذي إن ضاق في الخلق الولا
 ففؤاده بالودّ مغنّى أفيحُ
 وإذا ترحّزَ ركُبه عن أرضنا
 فهو الذي في العهد لا يترحّزُ
 لا غرو إن شَطَّ المزارُ فإنه
 قَلَمُ اللَّيْبِ بكلِّ مسكٍ ينفعُ
 سَمَحُ القريحة في رهانِ قريضه
 يجري كما يجري الجوادُ الأقرحُ
 تلقاهُ يرفعُ في الطّروسِ يراعُه
 كالسَّيْلِ في بطنِ الجوى يتبطّحُ
 ويخوضُ في لججِ الفُنونِ ويجتني
 دُرّاً بها صَدْرُ الزمانِ موشّحُ
 تزهُو جَنانِ العِلْمِ بين سُطُوره
 إذ كلُّ ما فيها العينِ مسرّحُ
 غررٌ تترجمُ عن علوِّ مقامه
 ولعلّها من كلِّ مَدحٍ أفصحُ
 يا صاحباً سَمَحَ الزمانُ ببعده
 وببعده وجهُ الزمانِ مكلّحُ
 لا بدّع أن تبعدَ وأنتَ عزيزه
 فالدهرُ يُبعدُ في الورى ما يمنحُ

أُثْوِيَتْ فِي الشَّهْبَاءِ أَفْسَحَ مَنْزِلٍ
لَكِنْ مَحَلُّكَ فِي فُؤَادِي أَفْسَحُ

وقلت في رثاء لأحد الأعزّة وهي من أوائل نظمي . [من الوافر]

هِيَ الْأَحْكَامُ يَصْدُرُهَا الْقَضَاءُ
فَلَيْسَ لِمَبْرَمٍ إِلَّا الْمَضَاءُ
وَلَا يَنْبُو حُسَامُ الْمَوْتِ مَهْمَا
أَتِيحَ لَهُ عَلَى الْخَلْقِ انْتِضَاءُ
لَقَدْ عَمَّ الرَّدَى كُلَّ الْبَرَائِيَا
وَمَاتَ النَّاسُ حَتَّى الْأَنْبِيَاءُ
وَأَصْبَحْنَا رَعَايَا لِلْمَنَايَا
عَلَيْنَا مَنْ وَلَا يَتِيهَا لَوَاءُ
أَلْسِنَا الْخَلْقِ غَايْتُنَا زَوَالُ
وَعُنْصُرُ خَلْقِنَا طِينٌ وَمَاءُ
وَسَفَرُ مَرَا حِلٍّ وَذَوِي حَيَاةٍ
لَهَا بِالْوَيْلِ خَتْمٌ وَابْتِدَاءُ
نُهْلٌ إِلَى الْبُكَاءِ مَتَى وَلِدْنَا
وَيَضْحَبُنَا إِلَى الرَّمْسِ الْبُكَاءُ
وَلَا نَرْجُو بِذِي الدُّنْيَا بَقَاءُ
أَلَا إِنَّ الْبَقَاءَ مَتَابِرَاءُ
حَيَاةٍ كَانَسِيَابِ الطِّيفِ مُرّاً
بَدْنِيَا لِلْفَنَاءِ هِيَ الْفَنَاءُ

إِذَا كَانَتْ نَهَايْتُهَا خُفُوتًا
 فَأَطْوَلُهَا وَأَقْصَرُهَا سَوَاءٌ
 يَغَرُّ الْمَرْءُ مِنْهَا وَرَدُّ عَزٍّ
 يَخَالُ بِهِ السَّعَادَةُ وَهُوَ دَاءٌ
 مَوَارِدُ عَلَقَمٍ تَبْدُو عَذَابًا
 كَذَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا رِيَاءٌ
 يُدِيرُ الدَّهْرُ فِينَا كُلَّ كَأْسٍ
 لَنَا مِنْ صَرْفِ خَمَرَتِهَا انْتِشَاءٌ
 وَيَرْهَقُنَا مِنَ الْأَرْزَا بِطِشٍ
 تَقْصُرُ دُونَهُ الْأَسْلُ الظَّمَاءُ
 يَمَزُقُ فِي الْبَرِيَّةِ كُلَّ شَمْلٍ
 فَيَصْبُحُ مِثْلَمَا نَثَرُ الْهَبَاءُ
 وَيَهْدُمُ لِلْمَعَالِي كُلِّ رُكْنٍ
 فَيَشْمُلُهُ بِأَيْدِيهِ الْعَفَاءُ
 كَذَا قَضَتِ اللَّيَالِي مِنْ بَنِيهَا
 بِأَنْ لَا يَسْتَتَبَّ لَهُمْ هِنَاءٌ
 لَعَمْرُكَ فِي الْبَرِيَّةِ أَيُّ أُمَّ
 عَلَى أَوْلَادِهَا مِنْهَا اعْتِدَاءٌ
 فَوَاعِجِبْ لِمُضَاهِدَةٍ لَدَيْهَا
 أَوَاصِرُ مَا بِهِنَ لَهَا اعْتِنَاءٌ
 لَقَدْ آلَتْ رَعَايَا اللَّهِ قَدَمًا
 يَمِينًا أَنْ تَسْرَّ بِمَا نُسَاءُ

تفجّعنا بكلّ فقيدٍ فُضِّلَ
عليه يلطمُ الوجهَ العلاءُ
لقد كانت تتيه به المعالي
وكان عليه من شرفِ رداءِ
رويدك أيّها المنعِي نعيّاً
به تنعى المكارم والرجاءِ
ويا مترحلاً مهلاً لعمري
فذاك الناسُ لو صحّ الفداءُ
ورددَ حمّامك الآسَونَ لكنْ
دويّ الموتِ ليس له دواءُ
تناديك الفُضائلُ وهي تبكي
ولكنْ ليس ينفعُها النداءُ
وكم جفّت عليك شؤونُ دمع
بعينٍ لم تجفّ لها دماءُ
ألا منْ مبلغُ الأفضالِ عني
توفّى ندبه وله البقاءُ
فإنْ يجزعُ فليس عليه لومٌ
كذا تبغي الصداقة والولاءُ
وإنْ يصبرَ فذاك على فقيدٍ
بنشرِ حياته كفل الثناءِ
أغرّ أبرّ سمح الخلقِ كانت
تصرفه السّماحة ما تشاءُ

عليه مدّت التّقوى وشاحاً
 وشدّ به مناطقهُ الصفاء
 إذا أمّ العفّة ندى يديه
 فكمّ يعرفو الحيا منه الحياء
 حوى غرر الخلال وكلّ حرّ
 له بسنيّ شيمته اقتداء
 فتبكيه المفاخر والمعالي
 وتندبه الطلاقة والسخاء
 وظلّ ثناؤه في القوم طراً
 يذوّق ولا كما ضاع الكباء
 فإنّ يكّ فارق الدنيا مجداً
 فأثوته مراقبيها السماء
 لينعم باللقا أبداً وفيها
 يكون به احتفال واحتفاء
 فيا أنجاله الأنجاب مهلاً
 عزاءكم وإنّ عزّ العزاء
 ولست أزيدكم حباً بصبر
 جميل بُرد لا بسّه بهاء
 ولا راع البلاء لكم قلوباً
 ولكنّ في البلاء لكم بلاء
 ولا يبكي على من فات دنيا
 ليخلّد في النعيم له ثواء

فَيَا صَوْبَ الْحَيَا بِأَكْرَثَرَاهُ
 فَمِنْهُ طَالَمَا سَحَّ الْعَطَاءُ
 وَزُرَّ جَدَثًا بِقَرَبِ الْبَحْرِ تَعَثُّرُ
 عَلَى بَحْرَيْنِ بَيْنَهُمَا اللَّقَاءُ
 هُنَالِكَ غَيَّبَ الْأَقْوَامُ شَهْمًا
 وَغُيِبَتِ الْمَرْوَةُ وَالْوَفَاءُ
 وَيَا ذَاكَ الْفَقِيدُ أَذْهَبَ فَحَاشَا
 مَقَامَكَ أَنْ يَقُومَ بِهِ الرِّثَاءُ
 عَلَيْكَ سَلَامُ رَبِّكَ مَا تَوَالَى
 صَبَاحُ مَنْذِيَوْمِكَ أَوْ مَسَاءُ
 وَمَنْ كَانَ الصَّلَاحُ لَهُ ابْتِدَاءُ
 فَبِالْأَجْرِ الْجَزِيلِ لَهُ انْتِهَاءُ

وكتبت مجيباً صديقي الطيب الذكر أيوب أفندي عون . [من الخفيف]

مَا لِيذَاتِ الْوَشَاحِ جَاءَتْ تَبْخَتُرُ
 وَالضَّوَاحِي يَرْدُنُهَا تَتَعَطَّرُ
 تَقْتُلُ الصَّبَّ بِالرَّنَوِ فَيُرْدِي
 وَتَلَا فِيهِ بِالْدَنَوِ فَيَنْشُرُ
 غَادَةً فِي خُدُودِهَا جَنَّةٌ لِلـ
 عَيْنِ ، وَالتَّغْرِ لِلْمَرَاشِفِ كَوَثُرُ
 تَخْجُلُ الْبَدْرَ طَلْعَةً حِينَ تَبْدُو
 تَفْضُحُ الْبَرْقَ مَبْسَمًا حِينَ تَفْتَرُ

جَرَدْتُ مِنْ قَوَامِهَا كُلَّ رُمَحٍ
 وانتَضَيْتُ مِنْ لِحَاطِهَا كُلَّ أَبْتَرٍ
 كُلَّمَا أَسْلَمْتُ لِحُدَيْهِ رُوحٌ
 صَاحَ يَا مُسْلِمُونَ اللَّهُ أَكْبَرُ
 مَا انْثَنْتُ أَوْ رَنْتُ لِعَمَرِي إِلَّا
 حَارِبْتُنَا بِأَبْيَضٍ بَعْدَ أَسْمَرٍ
 دَمِيَّةٌ بَيْعَةُ التَّفُوسِ أَحَلَّتْ
 مَا رَأَاهَا الْحَنِيفُ إِلَّا تَنْصَرُ
 تَتَجَلَّى عَنْ جِبْهَةٍ وَضَحَاهَا
 فَلِهَذَا مِنْهَا سَنَا الشَّمْسِ أَسْفَرُ
 ذَاتُ وَجْهِ إِذَا تَلَاهَا مِنْيَرُ
 ذَاتُ ثَغْرِ عَنْ مِثْلِهِ صَلَّ وَانْحَرُ
 وَصَلَتْ بَعْدَ هَجْرَةٍ فَأَقَامَتْ
 مِنْ هَوَانَا كَمَقْلَةٍ مِنْ مِخْجَرٍ
 أَنْسَتُنَا حَتَّى إِذَا مَا ائْتَلَفْنَا
 فَتَكَّتْ فَتَكَّةَ الرَّشِيدِ بِجَعْفَرٍ
 إِنَّمَا الْحَبُّ مِثْلَمَا قِيلَ قَتْلُ
 وَارِدُ الْحَبِّ مَالُهُ مِنْ مَضَدَرٍ
 مَا لَنَا نَعِشْقُ الْحَسَانَ وَنَدْرِي
 أَنَّ حُمْرَ الْخُدُودِ مَوْتُ أَحْمَرٍ
 وَيَحَ قَلْبِي يَهِيْمُ فِي كُلِّ وَادٍ
 وَهُوَ يَسْعَى وَرَا الطَّبَاءِ النَّفَرُ

تستبيه بكلّ العس أخوى
أفلج تحت كل أدعج أحور

ومنها:

مالك للقلوب في دولة الحب
غدا داعياله كل منبر
هو كسرى الملوك لحظاً ولكن
فعله بامرئ الهوى فعل قيصر
لا أزال الإله دولته الغر
أ، وإن كان قد طغى وتجبّر
إن في ظلّها رعايا معان
نصرتها في الفتك نصراً مؤزّر
جالد الثغر كل قلب إلى أن
فتقت ريح ذا الجلال بعنبر
ورمى الوجد كل صدر بنار
وغزا الحب كل نفس بعسكر
إن سهم العيون ينفذ في الصّد
ولو أليس الحديد المعصفّر
موطن عنده يهي كل عزم
ويولي قذاله كل مسعر
ينفذ الصبر فيه من جعبة الصّد
ر لعمري حاشاك بل أنت أصبر

يا عَجِيبَ الذِّكَاءِ يَا نَادِرَ المِثْلِ
 لِي الَّذِي ظَلَّ لِلْعَجَائِبِ مَظْهَرُ
 أَنْتَ وَاللَّهِ مِنْ كُنُوزِ اللَّيَالِي
 أَبْرَزْتُكَ الْأَقْدَارُ كُلَّكَ جَوْهَرُ
 كَيْفَ نَحْكِي عُلاكَ يَا كَامِلَ الْعِ
 دَةِ إِذْ نَحْنُ فِي مَجَالِكَ حَسْرُ
 يَطْرِبُ الشَّعْرُ مِنْكَ أَحْسَنَ مَا يَطُ
 رَبُّ صَوْتِ الْخُلُخَالِ فِي سَاقٍ أَعْفَرُ^(١)
 يَا لَكَ اللَّهُ مِنْ أَدِيبٍ إِذَا مَا
 عَدَّ يَوْمًا فغیره لیس يُذْكَرُ
 بَيْنَهُ فِي الذِّكَا وَبَيْنَ سِوَاهِ
 فَرَقٌ مَا بَيْنَ أَمِيلٍ وَمَكْفَرُ
 جَاءَنِي مِنْكَ يَا خَلِيلِي كِتَابُ
 لَا تَسْأَلْ كَمْ سَرَى كَرْوَبِي وَكَمْ سَرُ
 طَالَمَا اشْتَاقُهُ فَوَّادِي حَتَّى
 ضَاعَ مِنْهُ فَتَيْقُ مِسْكِ أَذْفَرُ
 مَا كَفَى يَا فَرِيدَةَ الْعِقْدِ حَتَّى
 أَصْبَحَ الْيَوْمَ أَكْتَبَ الْقَوْمِ أَشْعَرُ
 مَا تَرَى فِي فَتَاةٍ خَدْرٍ سَبْتَنِي
 بِمَعَانٍ بِهَا الْمَدَارِكُ تَخْدُرُ

(١) إشارة إلى قول صالح التميمي العراقي «كما يطرب الخلخال في ساقٍ

بطرازٍ منَ الفصاحةِ أرى
 صنْعُ صنعاءٍ وهو وشيٌّ محبَّرُ
 أنتَ يا معدنَ اللَّالي الغوالي
 مثلَ ذا الدرِّ منك لا يُستكثرُ
 جئتَ تشني على بياني وفضلي
 ذاك تالِّله أنتَ أذكى وأمهَرُ
 قد كفَّتني منك الشَّهادةُ في إثـ
 باتٍ منَ قالَ بالخلافِ وأنكرُ
 وبعونِ الإلهِ يا صادقَ الأفـ
 عالٍ قد ردَّ شأنِّي وهو أبتَرُ
 قُلْ لمن رامَ سَتَرَ فضلي بُغضاً
 لم تكن شمسَ ضحوةٍ لتستَرُ
 إنَّ لي كل طعنةٍ في مجالٍ
 عَفَرْتُ عارضَ العزيزِ الأصغرُ
 لي منَ الحزمِ جُنَّةٌ ودِلاصُ
 ومِنَ العزمِ لأمةٌ وسنورُ
 وبكفِّي منَ المضاءِ حُسامُ
 وعلى هامتي من العزِّ مغفَرُ
 لا ترى منَ يريدُ بي السوءَ إلَّا
 واقعاً تحت ظفْرِ ليثٍ مظفَّرُ
 منذريّ يفي النذور إذا أنـ
 ذر يوم اللِّقا أطيح وأنذرُ

قيل في اسمي ليث صبور لعَمري
 لا يكون الصُّبورُ إلَّا غُضنْفُ
 لستُ ممن يقولُ شيئاً فرياً
 أنتَ في كُنه حال خَلِّك أبْصُرُ
 وَلَكُم كُنْتَ لِلضَّعِيفِ مُعِيناً
 وَكَمَا قُلْتَ لي مجيراً للمعشُرِ
 إنَّ يكونوا بي استجاروا فمني
 يستظلُّون تحت لِبْدَةِ قُصُورِ
 يا صديقاً نأى على متنِ شهبَا
 ءَ سُبُوحٍ مِنَ الجِيَادِ الضُّمَرِ
 إنَّ أَرُمَ تَرَكَ ذِكْرَهُ فَهُوَ أَشْهَى
 أَوْ أَرُمَ ذَكَرَ فَضْلَهُ فَهُوَ أَشْهَرُ
 وَلَعَمري مَنْ كَانَ بالسَّعْيِ أَجْدَى
 فَهُوَ بِالذِّكْرِ والمَدَائِحِ أَجْدَرُ
 إنَّ شَوْقِي إِلَيْكَ جُمٌّ وَلَكِنْ
 جُمٌّ عَثْبِي عَلَيْكَ أَوْفَى وَأَغْزَرُ
 أَيْنَ كُتُبُ الْأَصْحَابِ تَطْلُعُ تَتَرَى
 مِثْلَمَا يُحْتَسَى السَّلَافُ الْمَكْرُ
 هَلْ نَسِيتَ الْعُهُودَ هِيَهَاتَ مَا كَا
 نَتْ عُهُودٌ مَا بَيْنَنَا الْعَمْرُ تُخْفَرُ
 يَا رَعَى اللَّهَ عَيْشَنَا سَابِقاً وَالِدِ
 هَرُّ وَلَّى بِذَيْلِهِ يَتَعَثَّرُ

تلك أيامنا تقضت سريعاً
 كخيال المَنام ليلاً إذا مر
 كم رَشَفْنَا كَأْسَ السُّرُورِ دِهَاقاً
 وهَصَرْنَا غُصْنَ الصَّبَابَةِ أَخْضَرُ
 جَمَعَ اللَّهُ لِي بِكُمْ عَنْ قَرِيبٍ
 خَيْرَ شَمْلٍ بِجَاهِ طَهَ الْأَزْهَرُ

واقترح علي الرثاء الآتي لأحد الأعيان الفقهاء . [من الكامل]

أَعْلِمْتَ مَنْ فُجِعَتْ بِهِ تِلْكَ الْعُلَى
 وَسَأَلَتْ أَيُّ رِجَالِهَا صَدَعَ الْبِلَا
 حَتَّى اكْتَسَتْ نُوبَ السَّوَادِ لِفَقْدِهِ
 وَتَنَاوَحَتْ بِالنَّدْبِ نَوْحاً ثَاكِلاً
 وَعَرَفْتَ مَنْ لِبْنَانٍ أَيُّ شِيُوخِهِ
 غَالَ الرَّدَى حَتَّى أَمِيلَ وَزُلْزَلَا
 مَنْ كَانَ أَسْبَقَ قَوْمِهِ فَضْلاً وَمَنْ
 قَدْ كَانَ صَدْرَ دَوَى الْمَآثِرِ مُحْفَلاً
 مَنْ كَانَ نُبْلُ الْقَصْدِ فِي أَعْمَالِهِ
 شُرْعاً وَكَانَ الْقَصْدُ فِيهِ مِنْهَلاً
 مَنْ كَانَ أَمْضَى هِمَّةً مِنْ صَارِمٍ
 فِي كَفِّ مَخْطَرٍ وَأَفْتَكِ مَقْتَلَا
 مَنْ كَانَ فِي عَزَمَاتِهِ فِي جَحْفَلٍ
 أَمْسَى يَفْلُ مِنَ الْحَدِيدِ الْجَحْفَلَا

مَنْ كَانَ فِي حَزْمِ النُّهَى فِي حَزْمَةٍ
 تَزْرِي مَطَاعِنُهَا الرِّمَاحَ الذُّبَالَا
 سَبَقَ الرِّجَالَ إِلَى الْمَآثِرِ فَاغْتَلَى
 شَرَفًا وَبَرَزَ مَجْدُهُ فَتَأَثَّلَا
 وَقَضَى زَمَانًا بِالسَّدَادِ وَرَأْيِهِ
 فِي الْفِقْهِ لَا يَرْتَدُّ إِلَّا فَيَصَلَا
 وَقَضَى حَقُوقَ الْمَجْدِ إِذْ لَمْ يَعْتَزَلْ
 إِلَّا وَقَدْ بَلَغَ السَّمَاءَ الْأَعْزَلَا
 حَتَّى قَضَى وَالْمَوْتُ فِينَا سُنَّةٌ
 وَسَيُوفُ مَدْرَجِهِ رَوَاتِعُ فِي الطَّلَا
 جَارَ الْقَضَاءِ عَلَى الْقَضَاءِ بِمَوْتِهِ
 لَوْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْخَلَائِقِ مَنْزِلَا
 فَهُوَ الَّذِي أَحْيَا رُسُومَ الشَّرْعِ فِي
 لِبْنَانٍ تَنْسِفُ سَوُوحَهُ أَيْدِي الْبِلَا
 وَهُوَ الَّذِي فِي مَا مَضَى غَرَسُ الْمَنَى
 فَجَنَاهُ أَهْلُ زَمَانِهِ مُسْتَقْبَلَا
 عَمَّتْ فَوَاضِلُهُ الْبِلَادَ كَأَنَّمَا
 قَدْ كَانَ مِنْهَا بِالْفَلَاحِ مَوَكَّلَا
 رَنَ الزَّمَانُ بِذِكْرِهِ، وَبِفَضْلِهِ
 حَفَلَتْ مَغَانِي الْعِلْمِ وَامْتَلَأَ الْمَلَا
 هُوَ رَاجِحُ الْعَقْلِ الَّذِي مِنْ عَقْلِهِ
 وَثَبَاتِهِ بَنَتِ الْحَصَافَةُ مَعْقِلَا

رَبُّ الْبَيَانِ الْبَيِّنِ اللَّسَنِ الَّذِي
 قَدْ كَانَ أَذْلَقَ مِنْ سِنَانٍ مَقُولًا
 رَحْبُ الذَّرَاعِ إِذَا الْجِدَالُ تَدَافَعَتْ
 أَفْوَاجُهُ تَرَكَ الْخَصِيمَ مَجْدَلًا
 مَا كَانَ يَقْصُرُ فِي السَّمَاحِ تَفْضُلًا
 يَمْتَحُ مِنْهُ وَلَا يَرُدُّ مُؤْمَلًا
 يَا قَاضِيًا بَاتَ الْقَضَا مِنْ بَعْدِهِ
 يَبْكِي وَجِيدُ الْمَكْرُمَاتِ مَعْطَلًا
 مَنْ عَاشَ دَهْرًا لَا يُشْقُ غُبَارُهُ
 فَضْلًا وَكَانَ بِنَارِهِ لَا يُضْطَلَى
 وَلَيْتَ عَنْ دَارِ الْفَنَاءِ إِلَى الْبَقَا
 فَوَلَّيْتُ فِي الدَّارَيْنِ وَضَاحَ الْوَلَا
 وَالنَّاسُ رَكْبٌ سَائِرُونَ بِمُهْيَعٍ
 لِلْمَوْتِ يَتَّبِعُ الْأَخِيرُ الْأَوَّلَا
 يَسْعَوْنَ لِلْآخِرَى وَتِلْكَ حَقِيقَةٌ
 مُذْ كَوْنْتُ هَذَا مُجَازًا مُرْسَلًا
 وَالْمَرْءُ رَهْنُ كَوَارِثٍ مَا تَنْقُضِي
 تُلْقِي عَلَيْهِ كُلَّ يَوْمٍ كَلْكَلًا
 وَالتَّنَفُّسُ تَمَلًّا جِسْمُهُ فَإِذَا مَضَتْ
 وَجَدْتَ مَضِيقَ لِهَاتِهِ مَتَسَهَّلًا
 لَا تَخْدَعِ الدُّنْيَا اللَّيِّبَ فَكَلَّنَا
 بِثَنَّا عَلَى حُكْمِ الْمَنِيَّةِ نَزَلَا

فأذهبْ عليك من الإله تحيةً
تجني بها ثمرَ النعيم معللاً
تُحدَى السحائب في السّما حتى إذا
بلغتْ تُرى مثواكَ سَحَتْ هُطْلاً

وقلتُ أرثي العلامة الشيخ الإمام محي الدين اليافي الشهير تغمده
الله برضوانه .
[من الطويل]

أحقاً علينا الدهرُ دارَتْ دوائرُهُ
أما أنه للدين صارتْ مصائرُهُ
فشَدَّ على الإسلام ذا اليوم ريبُهُ
بخطْبٍ وكانت لا تَعْدُ كبائرُهُ
ألا أنه الدَّهرُ المَصْرُحُ باسمِهِ
بأنْ لا فِتْنَى إلا غَدَا وهو دَاهِرُهُ
بواتِرُهُ فينا مجردةٌ وما
بواتِرُهُ واللَّه إلا بوائِرُهُ
لها كلَّ يوم في البريّة فتكةٌ
تناديكْ لا مَنجاةَ مما تحاذِرُهُ
فكَمْ مَلِكٍ ضَخْمٍ تَخَطَّفَهُ الرَّدَى
فَسَاوَرُهُ مِنْ حَوْلِهِ وَأَسَاوَرُهُ
تخرَّم كِسْرَى كاسراً حدَّ بطشه
وقَيَّصَر أزدى ما وقته مَقاصِرُهُ
وما زال يُفنى كلَّ عزٍّ يؤمُّهُ
ببأسٍ ويُلقى كلَّ قرن يساوِرُهُ

هو الموت مَنْ ذا دافع مبرم القضا
إذا الواحد القهار وافت أوامره
فسُبْحان مَنْ تَعْنُو الوجوه لوجهه
وَلَا حَيَّ إِلَّا وَهُوَ بالموتِ قاهره
دَعَا اليوم محي الدين نحو جنابه
يقربُه مِنْ قُدْسِهِ ويجاوره
سَرَى نَعْيُهُ فِي كل حَيٍّ فِي الوري
تعاذيه لَكِنْ فِي الْجَنانِ بِشائره
وباتَتْ شؤون الدين تجري شؤونها
على فَقْدِهِ والفِقْهُ تدمى محاجرُه
وَكُلَّ امرئٍ يبكي عليه دَمًا فما
عَوَّذْلُهُ فِي الحُزْنِ إِلَّا عَوَّاذِرُه
لَعَمْرُكَ ما لِلشَّرْقِ ذا اليوم اقتمت
مِشَارِقُهُ وَالْيَوْمِ أَظْلَمَ نَاطِرُه
وَلِلدِّينِ وَجْدٌ لَيْسَ تُطْفَأُ نارُه
وَلِلشَّرْعِ طَرْفٌ لَيْسَ يَقْلَعُ ما طِرُه
أصابَ بني الإسلام خُطْبٌ عرمرمٌ
بِذا اليوم فالإسلامُ تبكي منابره
لَقَدْ كان فيه الشيخُ ركنًا مشيدًا
وكانتْ طِلاعُ الخافقين مآثره
فطَبَّقَ آفاقَ البرية ذِكْرُه
وَسَارَ به بادي الزمانِ وحاضِرُه

إمامٌ بأفواه الجميع علومُهُ
 وبحرٌ بأعناقٍ الجميع جواهرُهُ
 مباركٌ خلق طيبُ الذِّكرِ عابدٌ
 مهذبٌ طبع مُشرقُ الوجهِ سافرُهُ
 بقيَّةُ ذاك السَّالفِ الصَّالحِ الذي
 بأمثاله الأقطابُ جَلَّتْ ذخائِرُهُ
 قد ارتفعت أسرارُهُ وتطهَّرتْ
 له سَيْرٌ غرٌّ حكَّتْها سرائِرُهُ
 وأصبح في أيامه عَلمُ الهُدَى
 تعمُّ البرايا بالضياءِ منائرُهُ
 تداعتْ بيوتُ العِلمِ يومَ وفاتِهِ
 وخرَّ عِمَادُ الفَضْلِ وانهَدَّ عامِرُهُ
 وراحَ عليه الفِقهُ يلطُّمُ وَجْهَهُ
 إذ انتكثتْ مما دَهاهُ مرائرُهُ
 ولم أدرِ أَنَّ الصبرَ تَفْنَى دُرُوعُهُ
 إلى أنْ قَضَى والعزمُ تُفَرِّى مغافِرُهُ
 فَقَدْ فرغتْ من كلِّ باكٍ دُمُوعُهُ
 كما نَزَفَتْ من كلِّ راثٍ محابِرُهُ
 ترحَّلَ عن دارِ الفناءِ إلى التي
 بها عيشُهُ في الخُلْدِ تجري كواثرُهُ
 فَقَدْ دَكَّ طَوْدٌ باذِخُ المجدِ شامِخٌ
 وغَيَّضَ بحرٌ زاعبُ الفيضِ زاخِرُهُ

وَأُغْمِدَ سَيْفُ صَارِمٍ الْحَدَّ بِاتِرُ
وُعْيِبَ بَذْرُ ثاقِبِ النُّورِ بِاهِرُهُ
سَلَامٌ عَلَى قَبْرِ تَضَمَّنَ تَرْبُهُ
فَذَلِكَ لَحْدُ سَاطِعِ الْعُرْفِ عَاطِرُهُ
سَقَتْ تَرْبُهُ الْوُطْفَا وَلَا بَرَحَ الْحَيَا
يَرَاوُحُهُ فِي رَجْعِهِ وَيَبَاكِرُهُ
وَمَا الْمَوْتُ إِلَّا مَسَلَكٌ عَمَّ نَهْجُهُ
وَجِسْرٌ جَمِيعُ الْخَلْقِ لَا بُدَّ عَابِرُهُ
وَمَا الْمَرءُ إِلَّا مَيِّتٌ وَابْنُ مَيِّتٍ
وَمَنْ بَدَّوْهُ الْمِيلَادُ فَالْمَوْتُ آخِرُهُ

وكتبت إلى أحد الأدباء . [من الكامل]

مَا بَيْنَ غُزْلَانِ الْعَقِيقِ وَبَانِهِ
حَرْبٌ بِهَا بَطُلُ الْهَوَى كَجَبَانِهِ
حَرْبٌ تَضُرُّمُ بِالْحَضِيضِ سَعِيرُهَا
وَعُجَا جُهَا بِالْجَنْعِ فَوْقَ رُعَانِهِ

ومنها :

عَبَثْتُ بِعَشَّاقِ الْعَقِيقِ وَأَوْغَلْتُ
فَدَمَاؤَهُمْ تُرْبِي عَلَى غُدْرَانِهِ
لَمْ يَزْهَبُوا بِأَسَا لِقَاءَ أَسْوَدِهِ
فَأَبَادَهُمْ حَتْفًا لِقَا غُزْلَانِهِ
يَا زَائِرًا تِلْكَ الرُّبُوعَ وَسَائِرًا
بِعِرَاصِهَا الْفِيحَاءِ فِي رُكْبَانِهِ

إِنَّ تَنْزِلَنَّ سَفَحَ الْعَقِيقِ فَاشْرِفْنَ
 وَاسْفَحْ عَقِيقَ الدَّمْعِ مَعَ عُقْيَانِهِ
 وَتَأْمَلْنَ صُنْعَ الْهَوَى بِفَرِيقِهِ
 فَإِذَا رَضِيتَ فَبَعْدَ ذَلِكَ عَانِهِ
 سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الْفُرَادَ وَطَامَهُ
 أَبْدَأَ عَلَى حَبِّ الْجِمَى وَحَسَانِهِ
 وَأَعَزَّ سُلْطَانَ الْهَوَى حَتَّى غَدَتْ
 أَسْمَى مَلُوكِ الْأَرْضِ مِنْ عُبْدَانِهِ
 رَقًا كِمَارِقِ الْقَرِيضِ لِمَنْ غَدَا
 بِالْأَلْمَعِيَّةِ مَالِكًا لِعَنَانِهِ
 الشَّاعِرُ الْمُتَفَنُّنُ النَّدْبُ الَّذِي
 يَرُوي حَدِيثَ النَّظْمِ عَنْ حَسَانِهِ

ومنها:

هَذَا أَبُو الْفَضْلِ الَّذِي لَا بَدَأَ أَنْ
 يُمَسِّي بِبِقَعَتِنَا بَدِيعَ زَمَانِهِ
 وَاقَى وَمَا انْصَحَ النَّهَارُ بَلِيلِهِ
 زَمَنًا فَحَلَّ الصَّدْرَ مِنْ إِيْوَانِهِ
 يَلْهُو بِأَنْوَاعِ الْفُنُونِ وَيَحْتَسِي
 مِنْ عَصْرِ مَنْ سَلَفُوا سُلَافَةَ حَانِهِ
 وَلَهُ الرِّقَائِقُ فِي الْكَلَامِ يَجِيدُهَا
 نَظْمًا يَسْلِي الْمَرْءَ عَنْ أَشْجَانِهِ

قَدْ أْبْرَزْتُهُ قَرِيحَةً سَيَّالَةً
 تَزْرِي بِصُوبِ الْمُزْنِ فِي تَهْتَانِهِ
 يَا سَامِعاً عَنْهُ الْبَدَائِعَ مُعْجَباً
 مَهْلاً فَلَيْسَ سَمَاعُهُ كَعْيَانِهِ
 إِنْ سَرَتْ فِي الْوَطَنِ الْعَزِيزِ فَاشْمَلْنِ
 وَأَنْزِلْ بِذَاكَ السَّفْحِ مَنْ لَبْنَانِهِ
 فِي مَعْلَمٍ كَالرُّوْضِ فِي حَسَنَاتِهِ
 تَجْنِي ثَمَارَ الْخَيْرِ مِنْ أَفْنَانِهِ
 فَانْزِلْ عَلَى سَعَةِ بَرْحٍ فِنَائِهِ
 وَأَنْظُرْ مَآثِرَ مَنْ عَجِبْتَ لَشَانِهِ

وقلت أرثي الطيب الذكر العزيز سليم أفندي البستاني صاحب
 جريدة الجنة ومجلة الجنان وكانت وفاته سنة ١٨٨٥ وكنت ابن
 خمس عشرة سنة. [من الكامل]

الدَّهْرُ أَفْتَكُ فَارِسَ بَطْرَادِهِ
 أَبْدَأُ وَأَكْثُرُ فَتُكِّهِ بِجِيَادِهِ
 يَخْنَى فَإِنْ قَصْدُ الْفَتَى لَمْ يَنْتَفِعْ
 بِمِضَاءِ صَارِمِهِ وَطُولِ نَجَادِهِ

ومنها:

يَسْطُو عَلَى الْمَرْءِ الْمُنَى بَعْدَ الْعَنَا
 قَسُراً فَمَاذَا التَّفْعُ مِنْ إِيجَادِهِ
 يَرِثُ الْفَنَاءَ وَقَدْ يَرَى مَنْ لَمْ يَرِثْ
 شَيْئاً سِوَى ذَا الْمَوْتِ عَنْ أَجْدَادِهِ

لا يشفَعَنَّ بالمرءِ غَضُّ شَبَابِهِ
 عِنْدَ الْحِمَامِ وَلَا ذِكَاؤُ فُؤَادِهِ
 الْبَيْنُ يُخْتَرَمُ الْجَمِيعَ وَلِيَتِمَّا
 قَدْ كَانَ كُلُّ الْبَيْنِ بَيْنَ سَعَادِهِ
 بَيْنَ كَفَى الدُّنْيَا نُعَابُ غُرَابِهِ
 وَبِهِ كَفَى مِتَشَائِمًا بِسَوَادِهِ
 يَرْدِي الْحَبِيبَ وَخَلَّهُ مُتَقَلِّبٌ
 فِي مَضْجَعِ أَهْنَاهُ شَوْكُ قُتَادِهِ
 مُتَعَرِّضًا بِالنَّائِبَاتِ الْعُجْبَرِ فِي
 إِصْدَارِهِ أَبَدًا وَفِي إِيرَادِهِ
 يَا أَيُّهَا الْبَيْنُ الْمَفْرَقُ بَيْنَنَا
 إِذْ فِيهِ مَعْنَى الدَّهْرِ فِي اسْتِبْدَادِهِ
 الدَّهْرُ أَنْزَقُ شِيْمَةٍ مَنْ أَنْ يُرَى
 بِالْحَزْمِ ذَا بَقِيٍّ عَلَى أَفْرَادِهِ
 مَا زَالَ يُفْجِعُنَا بِهِمْ حَتَّى غَدًا
 شَرَفُ الْفَتَى بَيْنَ الْوَرَى بِمَعَادِهِ
 فَلْبئْسَ عَيْشٌ بَاتَ مُخْتَرَمًا بِهِ
 مِثْلُ السَّلِيمِ رَزِيئَةً لِبِلَادِهِ
 وَلْبئْسَ إِفْضَالٌ وَمَجْدٌ بَعْدَهُ
 وَلْبئْسَتِ الْأَيَّامُ بَعْدُ بَعَادِهِ
 مَنْ هَزَّ هَذَا الْقُطْرَ فَاجِعُ فَقْدِهِ
 حَتَّى تَفْطَرُ فِيهِ قَلْبُ جَمَادِهِ

وَسَطًا عَلَى الصَّبْرِ التَّفَجُّعُ بِالْغَا
 سَيْلُ الْأَسَى الطَّامِي ذُرَى أَطْوَادِهِ
 وَتَوَفَّيْتُ آمَالَنَا مِنْ بَعْدِهِ
 مَا الدَّهْرُ يُخَيِّبُهَا إِلَى أَبَادِهِ
 الْأَزْوَغُ الشَّهْمُ الَّذِي بَعْلُومِهِ
 وَجِدَائِهِ كَالْبَحْرِ فِي إِزْبَادِهِ
 الطَّائِرُ الصَّيْتُ الرَّفِيعُ مَقَامُهُ
 وَالْبَاهِرُ الْحَسَنَاتِ فِي إِسْعَادِهِ
 مَنْ كَانَ بَابًا لِلرَّجَاءِ مَبْلَغًا
 فِي الْخَطْبِ مَنْ يَرْجُوهُ شَأْوُ مُرَادِهِ
 وَقَفَ الْحَيَاةَ لَخْدَمَةِ الْعِلْمِ الَّذِي
 قَدْ كَانَ حَقًّا بَاسِطًا لِمَهَادِهِ
 فَقَضَى بُعِيدَ أَبِيهِ^(١) فِي أَجْلِ أَبِي
 إِلَّا اتِّصَالَ حَدَادِهِ بِحَدَادِهِ
 أَسْفًا عَلَيْهِ وَكَانَ رُكْنًا لِلْعُلَى
 وَقَوَامُهَا بِطَرِيفِهِ وَتَلَادِهِ
 أَيَّامَ بَاهِرٍ مُجْدِهِ يَذُرُّ الشُّهَى
 وَكَوَاكِبَ الْأَفْلَاكِ مِنْ حَسَادِهِ
 أَيَّامَ لَا تَلْقَاهُ إِلَّا جَاهِدًا
 وَمُجَاهِدًا فِي الْعِلْمِ حَقَّ جِهَادِهِ

(١) أبوه العلامة بطرس البستاني صاحب محيط المحيط ودائرة المعارف.

أَيَّامَ إِنْ صَعَدَ الْمَنَابِرَ خَاطِباً
 تَهْتَزُّ مِنْ عَجَبٍ ذُرَى أَعْوَادِهِ
 يَا رَاحِلاً عَنَّا رَوَيْدَكَ إِنَّمَا
 مَنْ سَارَ لَمْ يَنْدَمْ عَلَى إِرْوَادِهِ
 مَهْلاً لَتَبَصِّرَ حَالَ مَنْ عَادَرْتَهُمْ
 وَتَرَى قَضَاءَ اللَّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ
 مِنْ كُلِّ مَنْ تَخَذَ السَّهَادَ سَمِيرَهُ
 وَأَقَامَ نُوَّاحاً عَلَى تَعْدَادِهِ
 مِنْ كُلِّ مَنْ نَظَّمَ الْمِرَاثِي جَاعِلاً
 مِنْ دَوْبٍ عَيْنِيهِ سَوَادَ مِدَادِهِ
 عَادَرْتَ ذِكْرَكَ فِي الْوَرَى لَا نَافِداً
 بَلْ تَنْتَهِي الْأَيَّامُ قَبْلَ نَفَادِهِ
 فَاذْهَبْ إِلَى مَوْلَاكَ يَا مَنْ قَدْ قَضَى
 وَالشُّكْرُ لِلرَّحْمَنِ أَكْثَرُ زَادِهِ

وقلت مجاباً أحد الأدباء:

[من البسيط]

أَخْفُ مَا نَالَ مِنِّي الطَّرْفُ مَا أَرْقَا
 وَخَيْرُ مَا سَرَّ مِنِّي الْقَلْبُ مَا خَفَقَا
 وَنَزَرَ مَا كَادَنِي ذَا الدَّهْرِ جَوْرُ نَوَى
 أَصَابَنِي بِسِهَامٍ تَخَرَّقُ الدَّرَقَا
 طَمِعْتُ بِالْوَصْلِ مُشْتِاقاً فَمَا طَلَنِي
 وَجَدْتُ رِكَبَ التَّنَائِي بِي فَمَا رَفَقَا

مَا إِنْ دَنْتَ مِنْ فُؤَادِي مَنِيَّةً قَصَدْتَ
 إِلَّا وَسَدَّ لَهَا مِنْ دُونِي الطَّرِيقَا
 كَأَنَّمَا حَلَفَ الدَّهْرُ الْخَوْوُنُ بِأَنْ
 يَحُولَ بَيْنَ فُؤَادِي وَالَّذِي عَلَقَا
 وَرَابِنِي صَرْفُهُ فِيمَا يَعْنَتَنِي
 أَنْ كَيْفَ خَلَفَ لِي مَنْ بَعْدِهِ رَمَقَا
 لِلَّهِ أَيُّ نَسِيمٍ لَيْسَ يُذَكِّرُنِي
 وَأَيُّ سَاجِعَةٍ لَمْ تَجِدْنِي قَلِقَا
 يَمِيلُ قَلْبِي وَقَدْ لَجَّتْ نَوَازِعُهُ
 مَا مَيَّلْتُ نَسَمَاتُ الْفَجْرِ غُصْنَ نَقَا
 يَا غَائِباً مُخْلِصاً لِي فِي مَوَدَّتِهِ
 وَلَسْتُ أَعْرِفُ مِنْهُ غَيْرَ مَا نَطَقَا
 فَدَرَّ دَرَكٌ مِنْ خُلِّ سَمَا خُلُقَا
 لِأَنْتَ أَفْضَلُ مَنْ فِي وَدِّهِ صَدَقَا
 تُفْدِي الْقَلَائِدُ أَثَاراً لَهُ سَبَقْتُ
 إِلَيَّ وَالْفَضْلُ لَا يَخْفَى لِمَنْ سَبَقَا
 لَا غَرَوَ إِنْ أَرَاهَا مِنْ قَبْلِ صَاحِبِهَا
 إِنِّي أَرَى الصُّبْحَ لَكِنْ قَبْلَهُ الشَّفَقَا
 لِلَّهِ مِنْ صَاحِبِ صُغْرَى مَحَامِدِهِ
 مَوَدَّةَ مَحَضَّتْ لَا تَعْرِفُ الْمَلَقَا
 مَهْدَبٌ إِنْ بَدَأَ مِنْهُ الثَّنَاءُ فَفِي
 شَرِيفِ أَخْلَاقِهِ رَوْضُ الثَّنَا عَبَقَا

أَهْدَى إِلَيَّ قَرِيضاً مِنْ طَرَائِفِهِ
يَوْمًا فَقَلَّدَ مِنِّي الصَّدْرَ وَالْعُنُقَا
كَالْبَدْرِ مُتَسِقًا وَالِدَرْ مُنْتَسِقًا
وَالصَّبْحِ مُنْبِثًا وَالْعَيْثِ مُنْدَفِقًا
شِعْرٌ لِكُلِّ اخْتِرَاعٍ جَاءَ مُفْتَتِحَا
مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ هَذَا الْبَابُ مُنْعَلِقَا
سِحْرٌ لَقَدْ لَعِبْتَ بِالْقَوْمِ فِتْنَتُهُ
بَلَا طَلَّاسِمٌ تُخْفِي سِرَّهُ وَرُقَى
جَازِيكَ مِنْ شَاعِرٍ إِنْ تَسْتَجِدُّهُ إِلَى
نَظْمٍ مَضَى فِيهِ مِثْلُ السَّهْمِ إِذْ مَرَقَا
إِذَا أَنْبَرَى فِي مَضَامِيرِ الْبَيَانِ غَدَتْ
جِيَادُهُ فِي الْمَعَانِي تَرْكُضُ الرَهَقَى
يَرِقُّ فِي النَّظْمِ حَتَّى يَسْتَرْقَّ بِهِ
وَيَسْتَرْقُ إِذَا مَا جَاءَ مُسْتَرْقَا
لَبَّيْكَ يَا خَاطِباً مِنِّي الْوَدَادَ تَرَى
مِنِّي فَتَى مَا دَرَى نَكْشاً وَمَا مَذَقَا
قَدْ طَالَمَا سَمِعْتَ أَذْنِيَّ وَمَا نَظَرْتُ
بَوَاصِرِي فَلْيُفَاخِرْ مَسْمَعِي الْحَدَقَا
فَإِنْ عَرَفْتَ فَإِنِّي نَاطِرٌ ثَمَرًا
لِكِنِّي لَمْ أَصِبْ عُودًا وَلَا وَرَقَا
يَا قَاتِلَ اللَّهِ حَظِّي وَالْفِرَاقَ هُمَا
عَلَى مَنَاصِبَتِي دَهْرًا قَدْ أَتَّفَقَا

فهل أرجي من الدنيا الصَّلاح ولم
تَزَلْ وفيها غرابُ البينِ قد نَعَقَا
لَكِنْ على المرءِ عركُ الدهرِ طاقته
ولو تحمَّلَ ذو الهَمَّاتِ كلَّ شَقَا
حبَّ السَّلامةِ يثني عَزَمَ صاحبه
فإنَّ جَنَحَتْ إليه فاتَّخَذَ نَفَقَا^(١)

وقلت وأنا في المدرسة وهي من أوائل نظمي في العلامة الطيب
الذكر المطران يوسف الدبس مؤسس مدرسة الحكمة التي درست
بها .
[من المتقارب]

أَبْدُرْ بَدَا أَمْ سَنَا بَاهِرُ
وَعِطَّرْ سَرَى أَمْ ثَنَى عَاطِرُ
أَمْ انْبَلَجَتْ غَرَّةُ الْعِيدِ حَتَّى
تَزَاهَى بِهَا وَجْهُهُ السَّافِرُ
وَفَتَّقَ فِيهِ نَوَافِجَ مَدَحِ
أَرِيحُ الْعَطَايَا بِهِ ذَافِرُ
فَأَنْعِمَ بِهِ عَيْدُ يُمْنٍ جَلَا
هُمُومَ الْوَرَى بِشْرُهُ الظَّاهِرُ
وَأَنْسَاهُمْ الْيَوْمَ نُعْمَاهُ مَا
يَعْنَتْهُ أَمْسُهُ الدَّابِرُ

(١) هذا بيت مضمن مأخوذ من شطري بيتين للطغرائي :

حبَّ السَّلامةِ يثني عزم صاحبه عن المعالي ويغري المرء بالكسل
فإنَّ جَنَحَتْ إليه فاتَّخَذَ نَفَقَا في الأرض أو سلماً في الجو فاعتزل

فَلَا الْخَلْقُ فِي دَهْرِهِمْ ضَاجِرُونَ
وَلَا الدَّهْرُ فِي خَلْقِهِ جَائِرُ
فَهَلْ غَفَلَ الدَّهْرُ فِي الْعِيدِ أَمْ
تَعَاْفَلَ عَنْ أَنَّهُ ذَاهِرُ
مَآثِرُ طَابَتْ بِهِنَّ النُّفُوسُ
جَمِيعاً وَقَرَّبَهَا النَّظَرُ
تَبَدَّدَ جَيْشُ الْهُمُومِ بِهَا
لَدَى كَسْرَةِ مَالِهَا جَابِرُ
أَغَارَ عَلَيْهِ سُرُورُ الْوَرَى
وَسَعَدَ السُّعُودُ لَهُ نَاصِرُ
وَلَيْسَ سِوَى هَزَّةٍ عَامِلِ
وَلَيْسَ سِوَى بَهْجَةٍ بَاتِرِ
وَلَيْسَ سِوَى نِعْمَةٍ سَابِحِ
وَلَيْسَ سِوَى مَنَّةٍ ضَامِرِ
فَأَيْنَ التَّكَالُ الْأَكُولُ الَّذِي
تَوَعَّدْنَا الزَّمَنُ الْفَاجِرُ
إِذَا كَانَ يَأْتِي عَلَى سَالِفِ
بَلَاءُهُ وَيَسْطُو لَهُ غَابِرُ
فَقَدْ صَارَ يَأْتِي عَلَيْهِ الَّذِي
جَنَأُهُ وَيَعْنُو لَهُ حَاضِرُ
إِلَّا وَالْمَعَالِي وَبَيْضُ الْعَوَالِي
لئن نَاصَبَ الْحَادِثُ الْقَاهِرُ

فَلَسْنَا وَلَسْنَا بِمَنْ يَحْذَرُونَ
 إِذَا الذَّمُّ مِنْ حَادِثٍ حَازِرُ
 وَأَنَا وَإِنَّا لَلْقَوْمُ إِذَا
 فَخِرْنَا فَمَا فِي الْوَرَى فَاخِرُ
 نُبَاهِي الْمَلَا كُلَّ يَوْمٍ بِمَا
 حَبَاهُ بِنَا السَّيِّدُ الطَّاهِرُ
 عَوَارِفُ بَحْرِ لَهَا نَائِلُ
 مَعَارِفُ عِضِّ لَهَا آثِرُ
 فَضَائِلُ بَرٍّ لَهَا مَادِحُ
 فَوَاضِلُ حَرٍّ لَهَا شَاكِرُ
 تَظَلُّ الْبَرَايَا تَنَوَّلُ مِنْ
 نَدَاهُ الَّذِي مَالَهُ آخِرُ
 مَنَائِحُهُ غِبْطَةُ الْمُعْتَفَى
 مَدَائِحُهُ الْمَثَلُ السَّائِرُ
 فَلَيْسَ لِإِفْضَالِهِ جَاوِدُ
 وَلَيْسَ بِنَعْمَائِهِ كَافِرُ
 مَدِيدُ الثُّهَى قَوْلُهُ كَامِلُ
 طَوِيلُ الثُّهَى طَوْلُهُ وَافِرُ
 حَقِيقُ بَتْمَدِيحِ كُلِّ الْوَرَى
 عَلَى أَنَّ كُلَّ ثَنَا قَاصِرُ
 فَكَمْ بَتَّ أَنْضَى لَهُ خَاطِرِي
 فَمَا ظَلَّ أَنْ خَانَنِي الْخَاطِرُ

وما زِلْتُ عن وُضْفِهِ عاجزاً
على أنني المِدرَةُ الشَّاعِرُ
أَلَا دُمْتُ بِالْخَيْرِ مُسْتَمْسِكاً
يُنَارُ بِكَ الْوَطَنُ الْعَامِرُ
سَعِيدُ الْجُدُودِ جَدِيدُ السُّعُودِ
يَعَارُ لَكَ الْفَرْقَدُ الزَّاهِرُ

وقلت فيه وأنا في المدرسة . [من الوافر]

لِمَنْ يَا مِيَّ هَاتِيكَ الْقِبَابُ
على جبلٍ تَضَلُّ بِهِ الشُّعَابُ
أَشِيْمُ خِلَالِهَا يَا مِيَّ بَرْقاً
فَهَلْ جَادَتْ بَطَلْعَتِهَا الرِّبَابُ
قِبَابٌ تَسْطَعُ الْأَنْوَارُ فِيهَا
وَيَسْطَعُ فِي جَوَانِبِهَا الْمَلَابُ
قَدْ اسْتَنْكَهَتْهَا فَنَشَيْتُ عُرفاً
يَضُوْعُ كُلَّمَا مَرَّتْ كَعَابُ
تَقُومُ عُلاَ على سُمْرِ الْعَوَالِي
ويَحْرُسُهَا مِنَ الْبَيْضِ الْقِبَابُ
وترمي لِلْمُطَلِّ على حِمَاها
سِهَاماً فَوْقَ مَا حَوَتْ الْجِعَابُ
عَدَّتْ لظَبَائِهَا وَظَبِي ذَوِيهَا
فُلُوبُ الْقَوْمِ تَخْضَعُ وَالرَّقَابُ

لَعَمْرِي نِعَمَ حَيِّ أَبِيكَ حَيَا
كَمَا وُصِفَتْ بِمَنْعَتِهَا الْعِقَابُ
وَأَبْنَاءُ لَأَمِكَ مِنْ نِزَارٍ
كَأَسَدِ الْبِرِّ أَحْذَرُهُنَّ غَابُ
كُمَاةٌ تَسْبِقُ الْأَرْوَاحَ شَدَا
سَوَابِحُ تَحْتَهَا الْخَيْلُ الْعُرَابُ
لَهُمْ غُرُرُ مَوَاطِنٍ، صَادِقَاتِ
وِغَارَاتِ تَمِيدُ بِهَا الرِّحَابُ
يَخْوِضُ فَتَاهُمْ الْغَمَرَاتِ حَرْبًا
وَنِيرَانُ الْقِتَالِ لَهَا التِّهَابُ
وَيَرْجِعُ بِالْغَنِيمَةِ بَعْدَ صِدْقٍ
وَلَيْسَ غَنِيمَةُ الْبَطْلِ الْإِيَابُ
يَطُولُ وَلَيْسَ يُجْهَضُهُ خَطَارُ
فَيْنَكَ أَوْ يَغِيْبُهُ الْغِيَابُ
يَذُوقُ عَذَابَ بَدْءِ الْأَمْرِ لَكِنْ
عَوَاقِبُهُ لِمُورِدِهِ عَذَابُ
تَقَابَلَتِ الْأُمُورُ فَكُلٌّ مَرٌّ
يَعَاقِبُهُ اللَّذِيذُ الْمُسْتَطَابُ
وَلَوْلَا الْمُرُّ لَمْ تَشْعُرْ بِعَذْبٍ
وَلَوْلَا الْعَذْبُ لَمْ يُشْعِرْكَ صَابُ
وَكُلَّ صَعُوبَةٍ فَلَهَا سُهُولٌ
وَكُلَّ سَهُولَةٍ فَلَهَا عِقَابُ

أَمَّا لَوْ لَمْ يَكُنْ طَرْفًا نَقِيضُ
لَمَّا قِيلَ الْخَطَابُ لَهُ جَوَابُ
وَأَفْضَلُ ذِي شُرُوعٍ مَنْ تَرَاهُ
يُقَارِنُ غَبَّ مَبْدِئِهِ الصَّوَابُ
وَمَنْ طَلَبَ الصَّوَابَ وَلَمْ يُقَابِلْ
وَجُوهَ الْأَمْرِ أَغْجَزَهُ الطَّلَابُ
وَمَنْ عَدِمَ الصَّوَابَ وَقَدْ نَحَاهُ
بِأَحْسَنَ مَا يَجْدُ فَلَا يُعَابُ
وَمَنْ خَاضَ الْعُبابَ بِقَصْدٍ رُبِحَ
فَإِنَّ الدَّرَّ مَا ضَمَّ الْعُبابُ
وَمَنْ حَسِبَ الْحَيَاةَ مَدًى طَوِيلًا
يُكَذِّبُ ظَنَّهُ الْأَجَلَ الْقِرَابُ
إِذَا وَلَّى شَبَابَ الْمَرْءِ يَوْمًا
فَلَيْسَ يُعِيدُ صَبَوَتَهُ الْخِضَابُ
أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا
تَقُولُ وَإِنَّمَا ذَهَبَ الشَّبَابُ
فَلَا يُشْغَلُ فَوَاذُكَ فِي شَبَابٍ
عَنِ الْعَمَلِ السَّمَاعُ أَوْ الشَّرَابُ
وَلَا يُقْعِدُكَ عَنْ عَمَلٍ فَرَاغُ
وَلَوْ لَمْ يَعْقُبِ الْعَمَلُ اِكْتِسَابُ
فَإِنَّ السِّيفَ طَبَعَ الْهِنْدَ يَصْدَا
إِذَا مَا طَالَ يُخَبِّئُهُ الْقِرَابُ

وإنَّ المرءَ إنَّ يلزمُ سُكوناً
تولَّى هيكَلَ الجسدِ الخرابِ
سَيَعْلَمُ كُلٌّ مَنْ عَرَفَ المعالي
بأنَّ الشُّغْلَ للعلِّيا نَصَابُ
وَمَنْ فِي طَوْقِهِ أَمْرٌ فَعِيبُ
لدى إجرائه فيه اِزْتِيَابُ
وَمَنْ أَضْحَى لِأَمْرٍ غَيْرِ كَفٍ
فَأَلِيقُ مَا يَلِيقُ بِهِ اجْتِنَابُ
أَلَمْ تَرَ مَا أَصَابَ السُّحْبَ لَمَّا
تَبَارَى كَفُّ يَوْسُفَ والسَّحَابُ
وَلَمْ تَرَ مَا أَصَابَ الشُّهْبَ لَمَّا
تَرَاءَى وَجْهُ يَوْسُفَ والشَّهَابُ
فَلَا عَجَبَ إِذَا مَا نَالَ فَوْقاً
فَفَضَّلُ اللَّهِ ذَاكَ وَلَا حِسَابُ
بِهِ رَاجَتْ مِنَ الْعَلِيَاءِ سَوْقُ
وَعَزَّ بِهِ مِنَ الْحُسْنَى جَنَابُ
وَقَدْ زَهَرَتْ زِنَادُ الْعِلْمِ لَمَّا
بِهِ عَنْ شَبْهَةِ رُفْعِ الْحِجَابُ
وَقَدْ نَلْنَا رَغَائِبُنَا وَكَأَنَّ
أَمَانِيًّا مَا لَمَعَ السَّرَابُ
غَدًا مِنْ عُصْبَةِ الْأَفْرَادِ فَضْلاً
بِمَا يَغْدُو مِنَ السَّيْفِ الدَّبَابُ

يَظِلُّ إِذَا انْتَحَى الْعُلَيَاءُ يَوْمًا
 هُوَ السَّبَّاقُ لَيْسَ لَهُ صَحَابُ
 لَقَدْ جَابَتْ مَدَائِحُهُ الْبَوَادِي
 عَلَى نَكْظٍ وَعَنَّاها الرِّكَابُ
 فَلَيْسَ لِبَذْرِ شَهْرَتِهِ مَغِيبُ
 وَلَيْسَ لَشَمْسِ بِهِجَتِهِ ضَبَابُ
 كَأَنَّ خِلَالَهٗ إِنْ رُمْتَ مَدْحًا
 لِأَنْوَاعِ الثَّنَا مِنْهَا انْتِهَابُ
 أَرَوْمُ بِهِ الْوَفَاءَ فَمِنْ قُصُورِي
 يَقُومُ بِكُلِّ بَيْتٍ لِي عِتَابُ
 تَكُلُّ مَنَاطِقُ الْبُلْغَاءِ فِيهِ
 وَلَوْ كَانَتْ مَنَاطِقُنَا الْحِرَابُ

ومنها:

[من الوافر]

لَقَدْ شَيَّدَتْ مَدْرَسَةً تَعَالَتْ
 عَلَى هَامِ السَّمَاكِ لَهَا كِعَابُ
 نَظَمَتْ بِهَا مِنَ الْأَضْقَاعِ وُلْدًا
 يَبْلُغُهُمْ لِسَاحَتِكَ اجْتِيَابُ
 وَمَنْ يَتْرُكُ لِعَمْرُكَ وَالِدِيهِ
 إِلَيْكَ فَمَا يَعْتَفُّهُ اغْتِرَابُ
 لِيَهْنِكَ بِالسَّلَامِ مَرُورُ عِيدِ
 وَلَكِنْ مَا لِبِهِجَتِهِ ذِهَابُ

ولا زالت بك الأعياد تزهر
وعيشك للسعود له اجتذاب
قدم للغوث غيثاً مستمراً
وبدراً ليس يُدرّكه غياب

وقلت وداعاً لمدرسة الحكمة في ختام سنة ١٨٨٦ كنت ابن ست

عشرة سنة :

[من الطويل]

مفارقةً واللّه عزّ نظيرها
أسيرُ غداً عنها وقلبي أسيرها
تخلّيتُ عن قلبي لها غير مكره
ولكنّ نفس الحرّ تغلو مهورها
رهنتُ فؤادي في هواها لمدة
فلم يغن عنه عند نفسي مروّرها
فليست ترى للعلق عندي علاقة
وعندي يدٌ لم توف عني نذورها
وإن كان نقلاً ما سمحت فإنها
صنائع في رأيي تُزاد أجورها
فإني رأيت الفضل فضل زيادة
على حقّه يمسي خطيراً نزيورها
وإنّ المزايا من قليل وربّما
لعمري قليل المكرّمات كثيرها
فإن كنت لم أوثّر على النفس مجدها
فلا أحمّد الآثار عني أثيرها

وما الفرق ما بين الكريم وضده
إذا لم يحمل نفسه ما يضيرها
وما الحر من يلوي لضر يمسه
إذا لفحته في الليالي حرورها
ولكن من يقوى وللروع نضلة
يطير فؤاد الفحل إذ يستطيرها
ولكن من يطوي على المر مرة
تظل عليه مستمرا مبرها
ولكن من يغدو وتغدو عزيمة
له مثل حد السيف وهو شهيرها
ولكن من يفري الستور إذا عدت
عليه خطوب لا تزاح ستورها
ولكن من يغشي صدور مجالس
وتغشاؤه من جرد المذاكي صدورها
ولكن فتى عند الرزايا صبورها
وفي وسط أجوال المنايا ضبورها
ألا في سبيل المجد أن شكيمة
أجيش بها لم يخب يوما سعيها
وإني حلبت الدهر أشطره وقد
مضت لي كأعوام الرجال شهورها
إذا لم يكن ماء الشّهامة منهلي
ولم يهديني نحو الحفيظة نورها

فلا وافقت للمكرّمات عقيلة
 أخاها ولا صاع القوافي أميرها
 يفتجر فيها للقريحة أنهرأ
 غزاراً فلا تخشى المغاض بحورها
 وما ذاك إلا أنه متخرج
 على ذات فضل لا يخيب سميها
 ممتعة للفضل فيها معاقل
 أقام بها الإرشاد وهو خفيها
 مؤسسة أركانها فوق حكمة
 مرفعة تعلقو السماك قصورها
 تميل بأعطاف النجاح خصورها
 وتضحك عن مثل الأقاح ثغورها
 وتزهو ولا زهو الكواكب في الدجى
 إذا في ليالي الجهل تم سفورها
 يقر لها من كل بدر تماؤه
 ويحسدها من كل شمس ذورها

ومنها:

[من الطويل]

فقد خولتني نعمة فوق نعمة
 وكل إذا عدت فإنني شكورها
 فألبسني نسج الحبور حبيها
 وأوطأني مهد السرور سريها

لَقَدْ رَشَحْتُ حَلْمِي فَجَاءَتْ خِلَاتِي
مِنَ الطَّبَعِ أَوْلَاهَا وَلَا أَسْتَعِيرُهَا
لِيَالِي هَاتِيكَ الْمَهَارِقِ حَوْلَنَا
يَدُورُ بِنَا دَوْرَ الْأَسَاوِرِ دَوْرُهَا
لِذَاكَ غَدَتُ تَحْكِي بِيَاضَ طُرُوسِهَا
وإنْ أَشْبَهْتَهَا بِالظَّلَامِ سَطُورُهَا
مَجْرَى وَمَجْرَى سُمْرِ أَقْلَامُنَا الَّتِي
يَهِينُ صَلِيلَ الْمَشْرِفِيِّ صَرِيرُهَا
أَلَا حَبَّذَا تِلْكَ اللَّيَالِي فَإِنَّهَا
هِيَ الْغُرُّ لَكِنْ لَيْسَ يَدْرِي غُرُوهَا
قَضَيْتُ بِهَا أَنْسَاءً كَأَنْ لَمْ أَفْزُ بِهِ
وَرَشَفْتُ كُؤُوسٍ لَمْ تَحْرَمْ خُمُورُهَا
فَمَا أَنْسَ لَا أَنْسَ الرِّيَاضَ الَّتِي جَرَى
وَأُورَدَنِي مَاءَ النِّعِيمِ غَدِيرُهَا
وَلَا أَنْسَ أَوْقَاتاً قَضَيْتُ بِرَبْعِهَا
وَلَا صَحْبَةً مِنِّي كَرِيمٌ عَشِيرُهَا
فَإِنْ يُقْضَ بِالْبَعْدِ الْقَضَاءُ فَإِنَّهُ
عَذِيرِي مِنْهَا وَهُوَ مِنِّي عَذِيرُهَا
مَضَتْ فَأَمَضْتُ مَهْجَتِي وَكَأَنَّمَا
نَظِيرُ كَرَى عَيْنِي كَانَ كَرُورُهَا
فَلَا تَنْكَرَنَّ مِنِّي الَّذِي قَدْ شَهِدْتَهُ
وَجُوماً بِنَفْسٍ قَدْ تَسَامَى زَفِيرُهَا

فَبِي مَنْ جَوَى الْأَحْشَاءَ مَا لَوْ جَعَلْتُهُ
عَلَى قِنَنِ الْأَجْبَالِ دَكَّتْ صَخُورُهَا
تَصْعَدُ مِنِّي زَفْرَةٌ فَتَثِيرُنِي
وَأَجْهَدُ فِي إِرْجَاعِهَا فَأَثِيرُهَا
فَإِنْ كُنْتُ أَظْهَرْتُ الْفَتُورَ بِلُوعَتِي
فَرَبَّ عِيُونِ شَبِّ نَاراً فَتُورُهَا
أُودِعَ مَغْنًى قَدْ قُضِيََتْ بِهِ الصَّبَا
وَأَرْضِيَتْ نَفْساً كَالنَّهَارِ ضَمِيرُهَا
وَمَارَسْتُ أَعْلَاماً وَدَارَسْتُ عَلِيَّةً
وَأَنْسَيْتُ أَنْوَاراً تَمَاماً بِدُورُهَا
عَلَيَّ لَهُمْ فَضْلٌ بِجِيْدِي دُرَّةُ
وَكَمْ فَتِيَّةٍ مِنْهُمْ تَحَلَّتْ نَحُورُهَا
تَحَاشَيْتُ نَفْسِي مِنْ سَلْوِ عَهْدِهِمْ
فَإِنَّ نَجَارِي الْمُنْذَرِيِّ نَذِيرُهَا
فَمَا قَصُرْتُ إِلَّا وَقَامَتْ مَآثِرُ
مِنْ الْأَصْلِ لَا يُدْرَى لِعَمْرِي قُصُورُهَا
فَذَكَّرَهَا عَهْدَ الْخَوْرُنُقِ شَأْنَهَا
وَإِنْ سَدَرْتُ مَا غَابَ عَنْهَا سَدِيرُهَا
مَآثِرُ أَجْدَادٍ جَدِيدٌ فَخَارُهَا
يَذَرِّي وَإِنْ طَالَتْ خَلَوْا عَصُورُهَا
عَلَى أَنَّهُ مَا تَمَّ فَضْلٌ لِأَوَّلِ
بِعَصْبَتِهِمْ حَتَّى أَجَادَ أَخِيرُهَا

وقلت وهو من شعر المدرسة .

[من الطويل]

أَمَعْلَمُهَا بَيْنَ الْعَذِيبِ وَبَارِقِ
 تَغَزَلْتُ مِنْ غَزْلَانِهِ بِالْحَقَائِقِ
 فِدَيْتِكَ رُبْعًا قَدْ تَرَحَّلَ إِلَهُ
 بِكُلِّ إِمَامٍ لِّلْمَآثِرِ سَابِقِ
 عَفَا وَخَلَّتْ مِنْهُ الْمَنَازِلُ بَعْدَ مَا
 لَقَدْ كَانَ زِينًا لِلنُّهَى وَالْمَنَاطِقِ
 وَأَقْوَى وَأَقْوَى مَا حَوَى مِنْ مَعَاقِلِ
 أَنَاخْتُ عَلَيْهِ عَادِيَاتِ الْبَوَائِقِ
 وَأَجْدَبَ بَعْدَ الْخَضْبِ إِذْ كَانَ زَاهِرًا
 بِكُلِّ كِتَابٍ لِّلْفَوَائِدِ وَاسِقِ
 سَلَامٌ عَلَى تِلْكَ الرَّبُّوعِ فَإِنَّهَا
 رِيَاضُ الْمَعَالِي وَالْمَعَانِي الدَّقَائِقِ
 لَكُمْ قَدْ حَوَتْ تِلْكَ الْخِيَامُ عَقَائِلًا
 يَضِيءُ سَنَاهَا مِنْ خِلَالِ السَّرَادِقِ
 رَوَاشِقُ قَلْبِي عَنْ قَسِيٍّ جُفُونِهَا
 أَلَا بَارَكَ الْبَارِي بِتِلْكَ الرُّوَاشِقِ
 تَبِيحُ لَنَا أَلْحَاطُهَا حَيْثَمَا رَنَتْ
 بِسِحْرِ بَيَانٍ صَادِقٍ كُلِّ صَادِقِ
 وَإِنْ خَطَرْتُ سَكْرَى فَمَنْ كُلِّ رَائِقِ
 مِنَ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى وَمِنْ كُلِّ شَائِقِ

لَقَدْ أَطْلَعْتُ مِنْ تَحْتِ لَيْلِ فِرْعَوْنَ
 هَالاً مَحْيَاهَا أَسْنَى الْمَشَارِقِ
 فَلَيْلٌ وَبَدْرٌ عِنْدَهَا مَا هُمَا سِوَى
 سَوَادٍ مِدَادٍ فِي بَيَاضِ مِهَارِقِ
 بِرُوحِي هَاتِيكَ الثَّنَا يَا فِينَاهَا
 زَهَتْ فِي رِيَاضِ الْفَضْلِ زَهْوُ الشَّقَائِقِ
 أَتْلِحُونَنِي يَا أَيُّهَا النَّاسُ وَيُحَكِّمُ
 عَلَى الْحَبِّ مَا أَنْتُمْ لَهُ بِالْعَوَائِقِ

ولي أيضاً وهو من أوائل نظمي: [من الوافر]

عَلَيْكَ أَقَمْتُ أَسْنَاءَ الثَّنَاءِ
 فَأَنْتَ أَقَمْتَ أَثْنََاءَ السَّنَاءِ
 جَعَلْتَ عَلَيَّ حَقَّ ثَنَاكَ فَرَضاً
 وَقَدْ أَحْيَيْتَ لِي مَيِّتَ الرَّجَاءِ
 تَوَقَّدُ فِطْنَةً وَتَسِيلُ لُطْفاً
 كَطَبْعِ السَّيْفِ مِنْ نَارٍ وَمَاءِ
 وَحُلْمِكَ رَاجِحٍ بِرَعَانٍ رَضْوَى
 وَعَزْمِكَ كَالْمِهْتَدِ فِي الْمَضَاءِ
 وَمَجْدُكَ ظَاهِرٌ فَوْقَ الدَّرَارِيِّ
 وَذِكْرُكَ فَائِقُ عُزْفِ الْكِبَاءِ
 بِرُوحِي أَنْتَ لَا وَحْدِي وَلَكِنْ
 فِدَاكَ الْقَوْمُ مِنْ دَانٍ وَنَاءِ

إذا فتشت يوماً في عروقي
 ترى سريان حبك مع دمائي
 فأين تكون يا مولاي مني
 لأسنى عند منزلك احتفائي
 ففي قلبي أعيدك من غليلي
 وفي عيني أعيدك من بكائي
 لقد أناك بالقدّر التداني
 وقد أدناك بالحبّ التنائي
 أرى لك هزة للفضل حتى
 طباعك أصبحت مجرى الطلاء
 أراك لطفت حتى كدت تخفى
 على أبصار مختبر وراء
 فلا بست الضمائر مثل سرّ
 ولا مست الظواهر كالهواء

وكتبت تحت أول صورة فوتوغرافية استخرجت لي وكنت في

الرابعة عشرة:

[من المتقارب]

ونفسك فابداً بتصويرها
 بما أنت من خاليد فاعل
 وإلا مَضَى الجسم مع رسمه
 ولا يخلدُ الزائلُ الزائلُ

رثائي لحجة الإسلام

«وبينما كنا مباشرين طبع هذا الديوان بمطبعة المنار تحت إشراف صاحبها العلامة الإمام حجة الإسلام السيد محمد رشيد رضا إذ أصيب العالم الإسلامي كله بفقد هذا السيد الإمام الذي تتعاقب القرون ولا ينسى الإسلام عظمة مصابه قدس الله روحه فأنا ملحق بهذه القصائد التي كانت تطبع تحت ملاحظته بقصيدة رثاء له واحسرتاه عليه والله يفرغ علينا الصبر الجميل من بعده، وهي» .

[من البسيط]

تَحَدَّرِي يَا دُمُوعِي بِالْمِيزَابِ
وَعَارِضِي السُّحُبِ أُسْكُوبًا بِأَسْكُوبِ
وَأَدْرَكِي كَبِدَ لَجِّ الْأَوَارِ بِهَا
عَنْ مَارِجٍ فِي صَمِيمِ الْقَلْبِ مَشْبُوبِ
هِيَ هَاتِ أَيُّ الرِّزَايَا بَعْدُ تَرْمِضُنِي
وَأَيُّ دَاهِيَةٍ دَهِيَاءَ تَلْوِي بِي
وَأَيُّ خَطْبٍ مَلِيٍّ أَنْ أَقُولَ لَهُ
يَا عَمْرِي انْقُضْ أَوْ يَا مَهْجَتِي ذُوبِي
مَضَى الَّذِي كَانَ فِيهِ مُنْتَهَى أَمَلِي
وَمَنْ نَشَدْتُ لِتَعْلِيمِي وَتَهْذِيبِي
وَمَنْ عَنِ الْأَخْذِ عَنْهُ شَدُّ رَاحِلَتِي
وَمَنْ لِلْقِيَاءِ إِسَادِي وَتَأْوِيلِي

شعرتُ أنْ خلتِ الدُّنيا بمصرِعه
 لم يكفني طول تشريدي وتغريبي
 فَمَنْ أُنَاجِيهِ بَعْدَ الْيَوْمِ فِي حَزْنِي
 وَمَنْ أَرَى بَثَّهُ بَثِّي وَتَعْذِيبِي
 وَاهِماً عَلَى حُجَّةِ الْإِسْلَامِ حِينَ خَبَا
 ذَاكَ الشَّهَابُ بَلِيلَاتٍ غَرَابِيبِ
 وَاهِماً عَلَى عِلْمِ الْأَعْلَامِ حِينَ هَوَى
 فَلَا تُصَادِفُ قَلْباً غَيْرَ مَنْخُوبِ
 هَوَى وَكُلَّ جِبَالِ الْعِلْمِ دَانِيَةً
 عَنْ شَأْوِهِ فَهِيَ مِنْهُ كَالْأَهَاضِيبِ
 أَيْنَ الَّذِي كَانَ إِنْ أَجْرَى يِرَاعَتَهُ
 فِي أَيِّ فَنٍ أَتَانَا بِالْأَعَاجِيبِ
 هَذَا الْمَصَابُ الَّذِي كُنَّا نَحَازِرُهُ
 نَظْلُ نَلْبِسُ مِنْهُ جُلْدَ مَرْعُوبِ
 مِنْ قَبْلِ رِزْنَاهُ فَقَدْ أَغْيَرُ ذِي عَوْضِ
 وَكَمْ حَسْبُنَا هُ صَدْعاً غَيْرَ مَرْوُوبِ
 حَتَّى إِذَا حَلَّ لَمْ تُعَقِّدْ مَنَاحِثُهُ
 إِلَّا عَلَى حَادِثٍ مِنْ قَبْلِ مَرْهُوبِ
 قَضَى الْإِمَامُ الَّذِي كَانَتْ مَكَائِثُهُ
 بَيْنَ الْأَثَمَةِ فِي أَعْلَى الشَّنَاحِيبِ
 لَوْ كَانَ أَنْصَفَهُ الْإِسْلَامُ يَوْمَ ثَوَى
 لَبَاتِ يَرْفُلُ فِي سُودِ الْجَلَابِيبِ

كَانَ الْمَقْدَمَ فِي عِلْمٍ وَفِي عَمَلٍ
 وَالْجَمْعُ مَا بَيْنَ مَنْسُوبٍ وَمَكْسُوبٍ
 لَهُ شَمَائِلُ أَمْثَالُ التَّسِيمِ سَرَى
 تَذَكِّيهِ نَفْحَةُ نَوَّارِ التَّعَاشِيْبِ
 سَمَحُ السَّجِيَّةِ لَا يَلْوِي عَلَى حَسَكِ
 وَيَكْرَهُ الْعَفْوُ أَنْ يَنْأَى عَنِ الْحُوبِ
 لَمْ تَعْرِفِ الْحَقْدَ فِي يَوْمٍ سَرِيرَتُهُ
 وَلَا وَعَى سِرِّهِ شَيْئاً سِوَى الطَّيِّبِ
 كَمْ قَدْ تَلَقَّى أَعَادِيهِ وَقَدْ كَشَحُوا
 بِفَضْلِ ذَيْلٍ عَلَى الْآثَامِ مَسْحُوبِ
 يَلْقُونَهُ حِمَالاً حَتَّى إِذَا عَبَثُوا
 بِالذِّينِ أَصْبَحَ كَالْبَزْلِ الْمَصَاعِيْبِ
 هُنَاكَ لَا هَدَنَةٌ يَذْرِي وَلَا خَصِمٌ
 إِلَّا سَيَأْخُذُ مِنْهُ بِالتَّلَابِيْبِ
 هُنَاكَ أَعْظَمُ بِفَحْلٍ غَيْرِ ذِي نَكِلٍ
 لَدَى الْإِلْقَاءِ وَسَيَفِ غَيْرِ مَقْرُوبِ
 يَصُولُ صَوْلَ عَلِيٍّ فِي وَقَائِعِهِ
 فَلَيْسَ يَعْرِفُ قَرْنًا غَيْرَ مَكْبُوبِ
 عَدَا عَلَى عَبْقَرٍ مِنْ لَيْسَ ذَا صِلَةٍ
 مَعَهَا عَلَى الرَّغْمِ مِنْ نَعْتٍ وَتَلْقِيْبِ
 فَالْعَبْقَرِيَّةُ وَصَفٌّ فِي رَشِيدِ رِضَا
 وَالْعَبْقَرِيَّةُ لَيْسَتْ بِالْأَكَاذِيْبِ

قِسْ كُلَّ صَاحِبِ فَضْلٍ مَعَ رَشِيدِ رِضَا
 قَيْسُ الرُّهَامِ إِلَى الطَّيْرِ الْمُنَاسِبِ
 تَسْمُو الْمُنَابِرُ إِعْجَاباً بِوِطَاطِهِ
 لَهَا وَتَخْضَعُ أَقْوَاسُ الْمَحَارِبِ
 سُبْحَانَ مَنْ زَادَهُ عِلْماً وَأَلْهَمَهُ
 تِلْكَ الْبِرَاهِينَ فِي أَحْلَى الْأَسَالِبِ
 رَبُّ الْوَفَاءِ الَّذِي أَرْبَى بِشَهْرَتِهِ
 حَقّاً عَلَى مِثْلِ فِي الْعَهْدِ مَضْرُوبِ
 لَمْ يَدْرِ بَغِيّاً عَلَى الْإِخْوَانِ فِي زَمَنِ
 سَادَتْ عَلَى الْجَمِّ فِيهِ شَيْمَةٌ الذِّيبِ
 لَهُ الْمَنَارُ الَّذِي كَانَتْ تُنَارُ بِهِ
 سَفَائِنُ الْقَوْمِ فِي لَجِّ التَّجَارِبِ
 مُقْلَةً مِنْ أَصُولِ الشَّرْعِ أَشْرَعُهُ
 تَمْشِي مَعَ الْعَقْلِ تَسْيَارَ الْأَصَاحِبِ
 كَانَ الْمَنَارُ لِحَزْبِ الْحَقِّ مَعْتَصِراً
 يَهْدِيهِمْ بِشُعَاعٍ غَيْرِ مُحْجُوبِ
 غَدَتْ بِهِ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ حَجَّتْهَا
 شَهْبَاءُ فِي حَازِبٍ مِنْهَا مُحْزُوبِ
 جَمِيعُ أَجْزَائِهِ تَأْتِي عَلَى نَسَقِ
 مِثْلَ أَطْرَادِ الْعَوَالِي بِالْأَنْبَابِ

فيه الفتاوى التي يرضى الجميعُ بها
 فلا تَرَى حاجةً في نَفْسٍ يعقوبِ
 تجري بأذانٍ من يَصْغِي لقارئها
 لحن السريجي في سمع المطاريبِ
 ما بالمنارِ ضياءٌ غير مقتبسِ
 وليس فيه هلالٌ غير مرقوبِ
 وكم كتابٌ له غير المنارِ غداً
 فوق الكتائبِ في حَشْدٍ وتكتيبِ
 في كلِّ عامٍ تآليفٌ يجودُ بها
 كالغيثِ يرسلُ شؤبوباً بشؤبوبِ
 مواقفٌ لن تَرَى من يستقلُّ بها
 ولن تَرَى طامِعاً منها بتقريبِ



سرُّ نحو ربِّك مبكياً بكلِّ دمِ
 قانٍ على صفحةِ الخدينِ مصبوبِ
 وأنعمَ لَدَيْهِ بِمَا قَدَّمْتَ مِنْ عَمَلِ
 وفُزْ بِقِسْطِكَ مِنْ بَرٍّ وتثويبِ
 واتركُ ثناءً كَنَفَحِ الطَّيْبِ لَيْسَ يَني
 يَمْلأ البلادَ بِتَشْرِيقٍ وتَغريبِ
 قد يَغْلِبُ الحُزْنَ أَقْوَامٌ بِصَبْرِهمْ
 لكن حُزْنُكَ عِنْدِي غير مَغْلُوبِ

أَبْكِيكَ مَا دُمْتَ فِي الدُّنْيَا وَمَا بَقِيَتْ
 إِلَّا بَقِيَّةُ عَيْشٍ غَيْرِ مَحْبُوبٍ
 لِي مَعَكَ عَهْدٌ فَابْيَ أَنْ أَخِيَسَ بِهِ
 حَتَّى أَصِيرَ إِلَى لَحْدٍ وَتَتَرِبَ

الأسف

شكيب أرسلان

فهرس المحتويات

- ٥ تصدير ديوان أمير البيان
- ٨ مقدمة

القسم الأول من الديوان المراسلات السامية

- ١٤ قالت الزهور

القسم الثاني

في مساجلات شعرية، ومفاكهات أدبية

- ٦١ حادثة سياسية استحال فكاهاة أدبية
- ٧١ مدحتي لسمو الخديوي توفيق باشا
- ٧٧ تاريخ مولود عزيز
- ٧٩ جواب عالم في بوسنه
- ٨٠ ذكرى شاعر الألمان الحكيم
- زيارة قبر سيف الله ورسوله وقائد جيوش العرب
- ٨١ والإسلام الأكبر
- ٨١ ما أنشد في حفلات تكريم كبار الشعراء
- ٩٤ قصيدة حفلة عبد الحميد بك الرافعي

القسم الثالث

في مراثي العلماء والأدباء والكبراء

رثاء إمام اللغة وفارس ميدان الإنشاء الشيخ

- أحمد فارس الشدياق ٩٩
- فسبحان الحي الذي لا يموت ١١٢
- لوعة أخ على أخيه رثاء لمفخرة المغرب المرحوم
- الحاج عبد السلام بنونة ١٧٠
- الحياة ١٧٠

القسم الرابع

في المدائح السلطانية، وشؤون السياسة العثمانية

عن مخيم عين منصور في ظاهر أدرنة

- أول ربيع الأول سنة ١٣٣٠ هـ ٢٠٨
- ذكرى الأندلس ٢٣٥
- الباكورة ٢٥١
- إهداء الباكورة ٢٥١
- وقلت في مثل ذلك عند حضور امتحان المدرسة السلطانية
- في السنة نفسها ٢٦٤
- وقلت أشكو الزمان ٢٧١
- وقلت متغزلاً بالحسن المعنوي مفتخراً بأصحابه ٢٧٧
- وقلت مفتخراً بالسلف ٢٨٦
- وكتبت إلى السيد جمال الدين الأفغاني رحمه الله ٢٩٢

- وقلتُ وكتبْتُ بها إلى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ٢٩٦
- وقلت في الأستاذ الشيخ محمد عبده أهنيه بالأضحى ٣٠٤
- تاريخ ٣١١
- ولي بعد ذلك تهنئة بزفافه ٣١٦
- رثائي لحجة الإسلام ٣٦٨